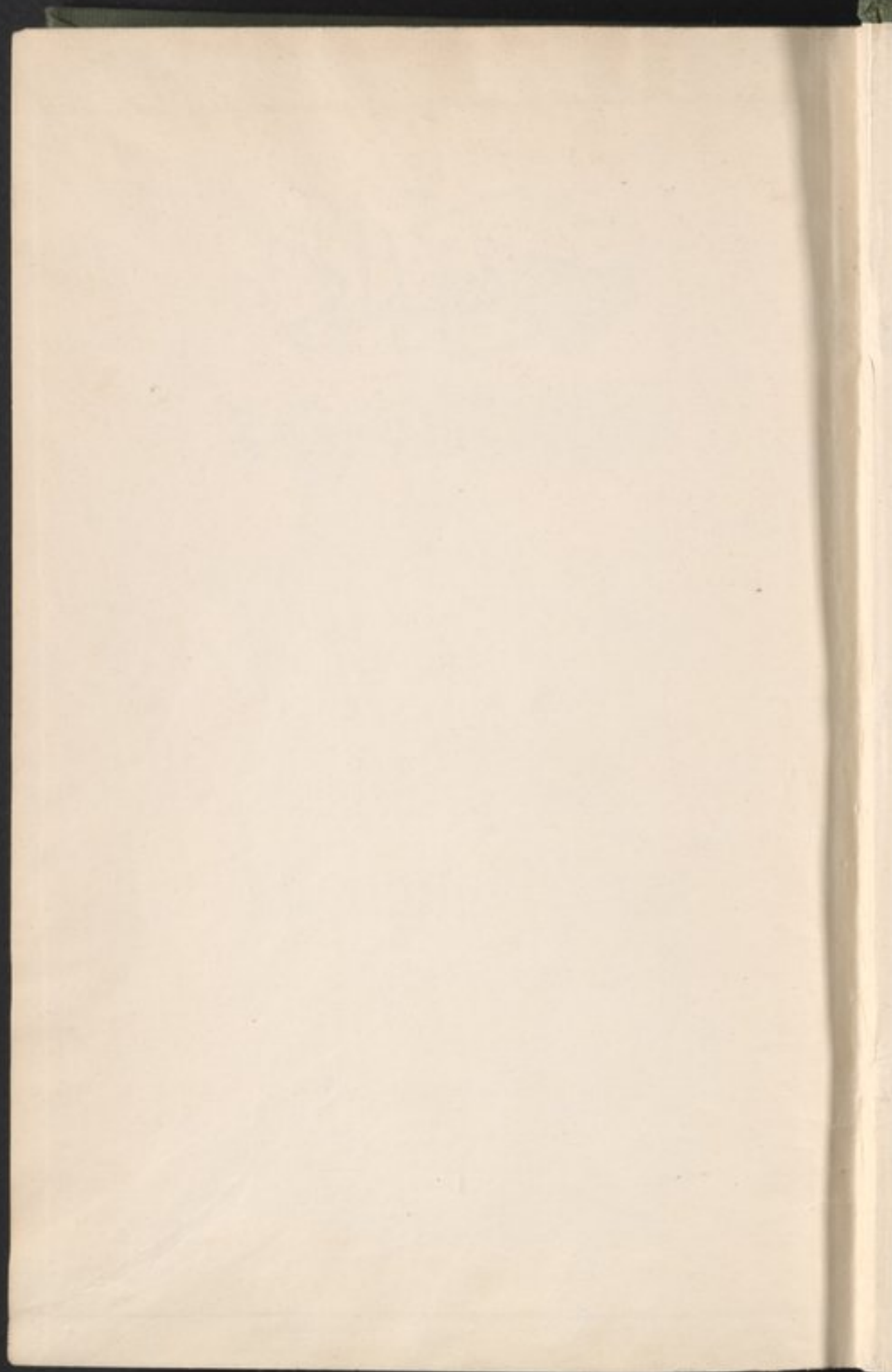


AMERICAN LIBRY IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01049 2654

- Plin





03-34920 Put

PJ
7876
2225
W3
1938

وَحْيُ بَغْدَادٍ

صُورٌ وَجَدَانِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ

بقلم الدكتور

زكي مبارك

المفتش بوزارة المعارف

[حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْعَصْرِيَّةِ بِبَغْدَادِ

لصاحبها محمود حملي

الطبعة الأولى: ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

مطبعة الأستفانم بالقااهرة

شارع نزار باشا ١٢

915-67
M88b

919-7V

9.15

20062

الاهداء

إلى الباحث الذي صور عصر النبوة
أبداع تصوير ، وجلاه أروع جلاء ،
وعطر الأدب الحديث بأريج الدين الحنيف
إلى معالي الدكتور محمد حسين هيكل
باشا أهدي وحي بغداد

زكي مبارك

مصر الجديدة في
} ١٠ رجب سنة ١٣٥٧
} ٥ أيلول سنة ١٩٣٨

مؤلفات زكي مبارك

- (١) حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة)
- (٢) البدائع (الطبعة الثانية في جزأين)
- (٣) الأخلاق عند الفزالي
- (٤) مدامع العشاق (الطبعة الثانية)
- (٥) الموازنة بين الشعراء (الطبعة الثانية)
- La Prose Arabe au I^e siècle de l' Hégire
- (٧) ديوان زكي مبارك
- (٨) ذكريات باريس
- (٩) تحقيق نسب كتاب الأمم
- (١٠) شرح الرسالة العذراء (ومعه بحث مفصل
بالفرنسية موضوعه
- L' Art d' écrire chez les Arabes au III^e
siècle de l' Hégire
- (١١) اللغة والدين والتقاليد
- (١٢) النثر الفني (في مجلدين كبيرين)
- (١٣) عبقرية الشريف الرضي (في جزأين)
- (١٤) المدائح النبوية في الأدب العربي
- (١٥) التصوف الإسلامي (في مجلدين كبيرين)
- (١٦) وحي بغداد

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد كتب الله تباركت أسماؤه أن يجعلني من الموفين بالعهد : فأخرجت كتاب «ذكريات باريس» تحية لمدينة النور التي اتصلت بها نحو خمس سنين ، واليوم أخرج كتاب «وحي بغداد» تحية لمدينة الرشيد التي اتصلت بها نحو تسعة أشهر قضيتها في يقظة عقلية أوحت إلى قلبي ألوف الصفحات

وكنت نظرت فرأيت كتاب «ذكريات باريس» أوحى إلى فريق من الكتاب أن ينشئوا المؤلفات عن العواصم الغربية أمثال باريس ولندن وبرلين ، وأنا اليوم أرجو أن يكون كتاب «وحي بغداد» سنة حسنة لمن يعيشون في العواصم الشرقية عساهم يحبون العرب والمسلمين في بلادهم بما يتسكرون من شائق الوصف ورائع الخيال .

وقد عجب ناس من وفائي لأهل العراق واهتمامي بتسجيل ما لهم من محامد ومناقب ، وكنت أستطيع أن أقول إنني عشت في العراق معلما ، ومن واجب المعلم أن يبرز المحاسن ليقوى الروح المعنوي

في تلاميذه ويسوقهم إلى ميادين الجهاد ، كنت أستطيع أن أقول ذلك ، ولكنني في الواقع لم أر من أهل العراق غير الشهامة والنبيل والوفاء ، ويسرني ويشرح صدرى أن أقول كلمة الحق في تحية من يعيشون في أنس بزهرات بغداد ونخلات البصرة وسمكات الفرات وسيأتي يوم يعذرني فيه من اتهموني بالإسراف في حب البلاد التي عرفت بكاء الجماجم وظلام الليل

سيعرف إخواني في مصر أني بنيت لهم صرحا من الوداد في وطن نبيل هو العراق

سيعرف إخواني أن غيرتي على سمعة العراق ستضاف إلى المحامد المصرية ، وسيتول المنصفون إن المصري حين يغترب لا ترى عينه غير الجميل من شمائل الرجال

وهل كنت أملك أن أذكر العراقيين بغير الثناء ؟ لقد نظمت في تكريمي هناك قصائد وخطب ومقالات لو جمعت لكانت مادة كريمة لكتاب نفيس ، فأبى وجه ألقى الله إذا ذكرت العراق بغير الجميل ؟

كنت أعرف أن أيامي قصيرة في العراق فتجشمت ما تجشمت لأزور أشهر الحواضر العراقية ، فكانت فرصة عرفت فيها كيف يلتاع من يفارق حواضر العراق ؟

يأليت ماء الفرات يخبرنا أين استقلت بأهلها السفن
ولا يعلم إلا الله كيف رحلت عن البصرة والحلة والنجف
الموصل وكركوك وكربلاء

لا يعلم إلا الله كيف أخفيت يوم الفراق عن أصدقائي في بغداد
لا يعلم إلا الله كيف أخفيت نيتي عن تلاميذي فلم أخبرهم أن
التسليم عليهم يوم الرحيل هو آخر العهد
لا يعلم إلا الله كيف انخلع قلبي وأنا أنظر إلى دار المعلمين العالية
آخر نظرة، وألقى عليها آخر سلام

وإذا كانت شواغلي بمصر قضت بأن أعتذر عن المضي في خدمة
تلاميذي بالعراق فساتعزى عن فراقهم كلما تذكرت أني أوقدت في
صدورهم جذوة لن تخدم أبداً، وسيصيرون بإذن الله من أشرف
خدام العراق

والعهد بيني وبينهم أن نقضى العمر كله أوفياء للحق والواجب،
وأن لا نرى المغانم في غير طهارة الضمائر وسلامة القلوب

هذا كتاب أرحته بغداد، وفيه ما في جوف بغداد من طغيان الرفق
والعنف، وصوله العقل والفتون

هو كتاب سِيرَقَم على وجه الدهر وجبين الزمان

هو كتاب سيسعد به قوم ويشقى به آخرون

ولكنه سيظل أثيراً لدى بغداد، لأنه من وحى بغداد

محمد زكي عبد السلام مبارك

من جحيم الظلم في القاهرة

إلى سعيِرِ الوجدِ في بغداد^(١)

وَوَدْتُ عَلَى بَغْدَادَ وَالْقَلْبَ مُوجِعٌ فَبَلِّغْ كَرْبِي وَهَلْ أَبْرَأْتُ دَائِي
تَرَكَتُ الْخُطُوبَ السُّودَ فِي مَهْرَافَانِبْرَتِ سَهَامِ الْعُيُونِ السُّودِ أَصْدَعِ أَحْشَائِي
تَرَكَتُ دُخَانَنَا لَوْ أَرَدْتُ دَفْعَتَهُ بَعْزَةَ مَقُولِ الذَّرَاعِينَ مَضَاءِ
وَجِئْتُ إِلَى نَارِ سَتَشْوَى جَوَانِحِي وَتَضَهَّرُ أَضْلَاعِي وَتَسْحَقُ أَحْنَائِي
فِيَاوِيحِ قَلْبِي عَضَّهُ الدَّهْرُ فَكَتَوِي بَلْفَجَةٍ قَتَائِنِ جَوْرِ وَإِصْبَاءِ

سَمِعْتُ حَمَامَاتٍ يَنْجُنُ فَعَزَّي حَنِينِي إِلَى صَحْبِ بَهْرٍ أَشْتَاءِ
هُمْ أَسْأَلُونِي لِأَعْفَا الْحُبِّ عَنْهُمْ إِلَى لَيْلَةٍ مِنْ عَمْرَةٍ الْحُزْنِ لَيْلَاءِ
أُنَادِيهِمْ بِالْوَهْمِ وَالْقَلْبِ عَارِفُ بَأَنِّي لَدَى كَأْسٍ مِنَ الدَّمْعِ حَمْرَاءِ
شَرِبْتُ الْأَسَى صِرْفًا فَتَارَتْ مَدَامِعِي تُذِيعُ حَدِيثِي فِي الْغَرَامِ وَأَنْبَائِي
أَنَا الطَّائِرُ الْمَجْرُوحُ يَرْمِيهِ بُوْسُهُ لِشَقْوَتِهِ مَا يَبِينُ نَارَ وَرَهْمَاءِ

(١) ألفت هذه القصيدة في نادي القلم العراقي يوم اجتماعه بالرسنية

فإن عشت أذنتي جروحى وإن أمت شوتنى فى الأرواح نيرانُ بأسائى

أحبائى فى مصرِ تعالوا فاتى أودع فى بغداد أنسى وسرائى
تعالوا أعينونى على الشهد والضنى فلم يبق منى غير أطياف أشلاء
تعالوا أحدثكم فى القلب لوعةً هى الجاحم المشبوب فى جوف قصباء
تعالوا تروا بغداد أغرت بهجى نوب المنايا فى صباحى وإمسائى
أحبائى فى مصرِ، وهل لى أحبةٌ ؟ أحبائى فى مصرِ تعالوا أحبائى
تعالوا إلى بغداد تالقوا أخاكم صريع خُطوب يتدحين وأرزاء
تعالوا ترونى فى صروف من الجوى تُهدم بُنيانى وتنهض حوَّبانى

عفا الحب عن بغدادكم عشت لاهياً أكثرُ أيامى بليلى وظهياً
فكيف وقعت اليوم فى أمرٍ طفلةٍ مكحلةٍ بالسحر ملثوغةٍ الرء
أصولٍ عينها بعينى والهوى يُشيع الحمياً فى فؤادى وأعضائى
وأشهد أطياف الفرديس إن بدت تراود أحلامى مزاحاً وأهوائى
وألمس نيران الجحيم إذا مضت تروم بعين الجددُ بعدى وإقصائى
أكاتم أهايمها هيامى ولو دروا لهامت بجنب الشط أرواح أصدائى
إلى الحب أشكوها فقد ضاق مذهبي وأخلفنى بعد الفراق أعزائى

إلى الحب أشكوها فلولا أنه لم أبت حليف مهورم يضطر عن وأنواء
إلى الحب أشكو، بل إلى الله وحده أفوض بأساني لديها ونعماني

أرباه أنقذني فانت ريمتي بقلب على عهد الأحياء بكاء
أرباه لا تفعل فإني أرى الهوى على وقده بالقلب أنفاس رواء
أحب سعي الوجد فارم حشاشتي على جرات منه حمقاء هوجاء
أحب شقائي في الغرام وإنه لأروح من مطولة الزهر شجرا
فيا خالق النار العصوف وشائقي إليها أدم فيها لو أعج إصلائي
أحبك يا ربّي فهل أنت شافعي إلى سرحته في شطّ دجلة زهراء
شهدت فنان فيك حين رأيته تحاول إضلالى وتشدّ إفتائي
ومن أنت يا ربّي؟ أجبني فإني رأيتك بين الحسن والزهر والماء
أنا الفنان المفتون فارحم بليتي وقدر بأرجاء الفراديس إثنائي
ولا تخلني في جنة الخلد من هوى برعبوية لا تعرف الرفق حمقاء
أحب الملاح الهروج في الخلد نفسه عساني بدار الخلد أجمر إغثمائي
تباركت ما الجنات من دون لوعة سوى بقعة في غابة الموت جرداء
يجب ضعيف الروح في الخلد أنسه إلى غادة مأمونة الغيب بلهائ

وَأَنْشُدُ فِي الْجَنَاتِ إِنْ ذُقْتَ رَاحَهَا مَلَاعِبَ مَنْ طَيْشٍ وَفَتِكَ وَإِغْوَاءِ

أَضَالِيلُ يُزْجِيهَا خِيَالِي وَأَنْشَى إِلَى سَاحَةِ مَطْمُوسَةِ الْأَنْسِ قَفَرَاءِ
لَقَدْ كُنْتُ فِي مِصْرَ شَقِيًّا فَمَا الَّذِي سَتَجْنِينِ يَا بَغْدَادُ مِنْ وَصَلِ إِشْقَائِي
أَهَذَا جَزَائِي فِي الْعِرَاقِ وَحُبِّهِ أَهَذَا جَزَائِي فِي رِوَاحِي وَإِسْرَائِي
أَخِلَّيَ مَا بَغْدَادُ رَاحِي وَإِنْ دَرَّتْ قُلُوبُ صَبَايَاهَا مَدَارِجَ إِصْبَائِي
أَخِلَّيَ رُدُّونِي إِلَى مِصْرَ إِنِّي أَرَى الظُّلْمَ دُونَ الْوَجْدِ تَسْعِيرَ لَأْوَاءِ

سَقَى الْغَيْثُ أَيَّامِي بِحُلُوَانٍ وَارْتَوْتُ مَلَاعِبَ أَحْلَامِي هُنَاكَ وَأَهْوَائِي
فَمَا غَدَرْتُ بِي فِي حَمَاهَا نَسَائِمٌ سَقَاهَا رِيْعُ الْحَبِّ أَكْوَابَ أَنْدَاءِ
وَلِلَّهِ عَهْدٌ بِالزَّمَالِكِ لَمْ يَكُنْ سِرِّي لِحَاتِ يَزْدَهِينِ وَأَضْوَاءِ
هَضَرْتُ بِهِ غُصْنًا نَضِيرًا تَفْتَحُ أَزَاهِيرُهُ فِي ظِلِّ خَضْرَاءِ لَفَاءِ
وَأَيْنَ عَلَيَّ مِصْرَ الْجَدِيدَةِ مَوْرِدِي وَأَيْنَ سُهَادِي فِي حَمَاهَا وَإِغْفَائِي
أَطَايِبُ ذُقْنَاهَا وَلَمْ تَدْرَ أَنَّهَا لُنُدْرَتِهَا فِي الدَّهْرِ أَزْهَارُ صَحْرَاءِ

أَحْبَابِي فِي مِصْرَ الْجَدِيدَةِ سَارَعُوا فَقَدْ صَرَعْتَنِي حَوْلَ دَجَلَةَ أَدْوَانِي

أجذكم هل تعلون بأني وإن كنت جار الشط أشرب أظمائي
خذرنى إليكم يارفاقي فإنتي أحاذر في بغداد حثني وإصمائي
أخاف العيون السود فاليرحم الهوى فجيعة أهلى يوم أفضى وأبنائي
أنادم أحباني ، وفي الحق أنتى لهول الذى ألتى أصول أعدائي

أدجلة ما بينى وبينك ؟ أنصحى فقد طال فى مغناك تبريح إضنائى
وردتك أستشفى فثارت بلبتي وأرهضني حزني وأضرعني دائى
وردتك أشكو النيل يطغى ججوده فأين سلامى فى حماك وإشكائى
سقى وردك المعسول غيرى ولم أجذ لهول بلائى غير أو شاب أقداء
أطال أناس فىك نجوى نعيمهم وفى شطك المورود ناجيت بأسائى
أدجلة أين الحب ؟ قولى فإنتى تقلبت فى نارين حقد وبغضام
أدجلة أين النور ؟ قولى فإنتى على الشط أستهدى دياجير ظلماتى
أدجلة أبلانى اغترابى وشففى هيامى بظلمى فى بلادى وإشقاتى
أدجلة أنت النيل بغياً وكدره فكيف من النارن تسلم أحشائى
أدجلة ساقنى إليـك مقادراً تأتقن فى كيدى وأبدعن إيدائى
أدجلة واسينى فللضيف حقه إذا شئت من زادٍ وحبٍ وصهباء

طغى موجك الصخاب فاهتاج لوعتي وأيقظ أشجاني وبلبل أهواني

وقفت أبث الجسر ما بي فلم أكن سوى نافث في أذن رقطاء صمَاء
وقفت أرجيه ولم أدري أنى أسطر أحلامي على ثبيح الماء
إلى أين هذا التبر يجرى وحوله حرائق من أرض على الرى جدياء
أرقت دموعي في تراها فما ارتوت وهل كان دمعى غير أطياف أنداء
شوتني الخطوب السود شيئاً فلم تدع لمعتسيف حُلماً إذا رام إيكاني
أجبنى يا صوب الغوادي فإني على علتى في الدهر أنساء أدواء
تحدرت محتالاً فلم تغن أمة تشهى لطول الجذب أو شال أنها
بكي حولك الماضون دهرأ فهل رأوا لدى موجك الصخاب لحظة إصفاء
تشكى العراق الجذب وارتعت أبتغى نصيبي فلم أظفر لديك يارواء
أعندك يا صوب الغوادي تحية لناس على شطيك ذابن أنضاء
تروح إلى البحر الأجاج سفاهة على شوق أهل في العراق أوداء
أبوك السحاب الجود يرتاح جوده إلى كل أرض في العراقين ميثاء
فعمن أخذت البخل يا جار فية هم الجمع المنساب في جوف بطحاء
شكا الزهر في شطيك فاخجل ونجّه من الظما الباغي ومن حية الماء

جريت بلا وعي إلى غير غاية مُجَلَّة بين المصاير غراء
فدعني أطل فيك الملام فلم أكن سوى شاعرٍ للحمد واللوم وشاء
أنت الذي يجفو الظماء لينضوي إلى لجة في باحة البحر هوجاء
أنت الذي يسقى البحار وحوله أزاهير في سهل يُفديه مظماء
وقفنا على شطيك نشكو أماننا على نبرات الدف، والعود والناء
فأين العطاء الجزل يا فيض بزنة مُحمَّلة بالخير والشر كلفاء
عشقت شقائي فيك للحب إني أحب شقائي في رحاب أحبائي

أبغداد هل تدرين أنني مودع وأن سموم البين تفتح أحشائي
وردتك ملثاعاً أصارع في الهوى دموع رفاقٍ وامقين أخلاء
تأدوا إلى باب الحديد فودعوا بقايا فؤادٍ وافر العطف وضاء
وفهم خؤول لو أراد لردني إلى روضة من يانع الانس غناء
تقدم يستهدى العناق فلم يجد سوى صخرة مكتومة السر خرساء
وعاد يروض العتب أحلام قلبه على خبطة من شائك الحجر هوجاء
وردتك مطموناً تور جروحه فكان بنوك الأكرمون أطباء،
لحبك يا بغداد والحب أهوج رأيت فناناً فيك مشرق إحياء

تأسيتُ في مصرَ الجديدةِ صِيئةً هم الزهرُ الظمآنُ في جوفِ يدياءِ
يناجونُ في الأحلامِ أطيافِ والدِ لعهدِ بنيهِ والبُنَيَّاتِ نساءِ

أبغدادُ هذا آخرُ العهدِ فاذكُرِي مدامعَ مفضولٍ على الحبِّ بكاءِ
أبغدادُ يضمنني فراقك فاذكُرِي لذي ذمةِ التاريخِ بيني وإضنائِ
خلعت على الدنيا جمالكِ فاثنتِ تخاليلُ في طيبٍ وحُسينٍ ولآلايِ
سيدكُرني قومٌ لديكِ عهدتهمُ يحبونُ ظلامينَ ضُرِّي وإيذائِ
سُمسي خصومي بعد حينٍ أحبةٌ يذيعون مشكورينَ أطيبِ أنبائِ
ستذكُر أرجاءُ الفراتينِ شاعراً تفجرُ عن مكنونهِ الدرِ عصماءِ
سيسال قومٌ من زكيِّ مباركٍ وجسمي مدفونٌ بصحراءِ صماءِ
فإن سألوا عني ففي مصرَ مرقدِي وفوق ثرى بغدادِ تمرح أهوائِ
ستذكُرني غيد ملاحٍ أوانسِ أطلن بلائي في الغرامِ وإشقاتي
ستذكُرني مصرَ وما كان قلبها سوى صخرةٍ في جانبِ النيلِ مَلساءِ
إلى الله أشكولثومِ دهري وصرْفهُ وعند الإلهِ البرِّ أودِع حوبائيهِ

مداعبة الدكتور زكي مبارك^(١)

—>>>0<<<—

وفاءً بعهدى أو نزولاً على وعدى وقتت أحيي معشرى وبنى ودى
وقتت أحيي عصبة عريضةً بها نستبين الرشيد حقاً ونستهدي
فأهلاً بكم في روضة الحب والصفاء وأهلاً بكم عند المسرة أو عندى
وهيجنى في «الرسومية» شاعرٌ به مثل ما بى من أنينٍ ومن سهد
به من هوى ليلى رسيس من الهوى وبى لُهبٌ لا ينظنى من هوى هند
أماناً لها من داءٍ وجدى فإنى أخاف عليها أن داء الهوى يعدى
وذكرنى عهد الصبا في نشيده سلام على عهد الصبا في ربا نجد
هواه على أجراف دجلة وافدٌ وأما هوى قلبى فلليل والوفد
فلا تحسبوه شارد الذهن وحده ولا تحسبونى سادراً فى الهوى وحدى
شيدان : هذا للترايب عينه وآخر مطول الوريد على الزند
قتيلان إما من لقاء مفاجيء أتبع وإما من لقاء على وعد
فإما قتيل من جنى الشهد يشتكى وإما صريع يشتكى من جنى الورد
صريع الغوانى لا تلنى فإنى صريع أغانى أم كلثوم لا دعد
سلام على تلك الأغاريد إنها أغاريد من وحى الصبا والوجد
باقر الشيبى

(١) ألفت بنادى القلم العراقى حين اجتمع بالزوية ، وكان النادى اقترح على الأستاذ باقر الشيبى أن ينظم قصيدة في معارضة القصيدة السالفة.

بغداد :

كما صورتها وكما رأيتها

قبل الرحيل إلى بغداد بأيام أوصاني صديق عزيز لعله الدكتور طه حسين فقال : ستقدم بغداد وأنت كاتب معروف فيقبل عليك الصحفيون فيسألونك كيف رأيت بغداد ، فإن فعلوا فاحذر يادكتور زكي أن تصرح بشيء ، لأنك موظف في حكومتين ، ومركزك دقيق .

وقد صح ما توقع ذلك الصديق ، وكنت عند نصحه الثمين ، فلم يظفر مني الصحفيون العراقيون بشيء غير التلطف المقبول . ولكن محرر الهلال سيظفر بما لم يظفر به الصحفيون العراقيون ، لأن بعد الدار لم يصرفه عنى ، فكتب يسألني كيف تصورت بغداد وكيف رأيت بغداد ، وللهلال على قلبى حقوق ، فلا توكل على الله ، ولا أخرج مرة واحدة على ذلك المركز الدقيق .

على أتى لا أتوقع أن يغضب العراقيون من بعض ما سيقع فى هذا الحديث ، لأن الصدق لا يغضب عقلاء الرجال ، وإنما يغضبون من التحامل البغيض الذى تمليه الضغائن أو الأهواء .

وليس من الإسراف أن أصرح بأنتى لست من الغرباء ، فى بغداد
فأنا أغار عليها كما أغار على القاهرة أو الاسكندرية أو سنتريس ،
لأنها فى قلبى وفى نفسى من الحواضر العربية التى يغار عليها العرب
والمسلمون فى جميع الممالك والشعوب ، وفى نيتى - وأنا صادق - أن
أجاهد فى سبيل بغداد حتى تبلغ ماهى أهل له من الحضارة والعمران ،
وتحمل مصاييح الثقافة كما كانت فى عهود الخلفاء ، ولن أترك هذه
المدينة حتى أضع فى صدور تلاميذى وأصدقائى بذور الشوق إلى
الحياة العالية ، حياة المدنية الصحيحة التى تعشق الأنوار وتبغض
الظلمات ، فلا يبقى فى بغداد شارع ولا بيت إلا وحوله ملائكة
أطهار يسمون به إلى مناط الجوزاء ، والله بالتوفيق كفيل .

أما بعد فقد كنت أفهم جيداً أن بغداد أدت واجبها بعنف يوم
شاء لها الطالع السعيد أن تسيطر على المشرقين والمغربيين ، وكنت
أفهم جيداً أنها فى غفوة الراحة بعد ذلك النضال العنيف ، فلم يكن
يخطر ببالى أن أراها كلقاهرة أو باريس ، ولكنى مع ذلك كنت أنتظر
أن أجد آثار المدنية التى أقامها العباسيون ، وهنا أصرح والأسى
ملء الفؤاد أن آثار الغطاريف من بنى العباس لم يبق منها إلا رسوم
ضئيلة هى فى مغازيها ظنون فى ظنون ، وكذلك قضت المقادير بأن

لا يبقى شيء من قصور الخلفاء والوزراء والأمراء الذين سيطروا
على العالم نحو ثلاثة قرون ، وكانت أيامهم مواسم الدنيا وأعياد الزمان
وقد سألت عن السبب في ضياع تلك الآثار فحدثوني أن نهر دجلة
الغادر الصوال كان يطغى من حين إلى حين فيطمس ما يشاء من القصور
والبساتين ، وقد شاء له عدوانه أن ينقل بغداد من مكان إلى مكان
فهى اليوم في بقعة غير البقعة التي اختارها المنصور على أيامه السلام
فإن شتم وصف بغداد القديمة فارجعوا إليها في الكتب ، فقد كان
المؤلفون القدماء يدركون بغير وعى صريح أن مدينتهم سيأتي عليها
يوم لا يعرفها فيه غير قراء الأخبار والأساطير .

و كنت أتصور أن بغداد لا تزال فيها بقايا من تقاليد الزخرف
البراق الذي عرفه الخلفاء ، فوجدتها مدينة لا تعرف غير خشونة
الحقائق ، ورأيت الوزراء مجتمعين في قصر ساذج لا يعرف معنى
للتصاوير والنماويل التي تعرفها بعض القصور في بعض الحكومات ؛
وقد دهشت حين زرت وزير المعارف ، وكان أول من رأيت من
الرجال يوم وصلت إلى بغداد ، فقد رأيتني أمام وزير المعارف فقط
أمام المنطق والعقل ، ولم أر في غرفته شيئا يدل على ذوق الترف
في فهم المعاش ، وكذلك كان الحال حين زرت رئيس الوزراء ،
فقد رأيتني أواجه رجلا يمثل أدب النفس ، وذلك كل حلاه وهو
رئيس الوزراء .

وكذلك يمكن الحكم بأن دور الحكومة في بغداد هي مواطن
أعمال لامواطن استقبال .

كنت أتصور بغداد قد تأثرت بالمدينة الحديثة فأصبحت كالقاهرة
فيها حيّ قديم وحيّ جديد ، فلما وقعت عيني عليها رأيتها مدينة شرقية
من جميع النواحي ، ورأيتها لم تأخذ من المدينة الحديثة غير الإضاءة
وتوزيع الماء على البيوت ، وفيما عدا ذلك تعيش بغداد عيشة القاهرة
قبل جيلين ، فتجد فيها الأسواق والخانات على نحو ما كانت القاهرة
في عهد المماليك . والشبه كبير جداً بين سوق الفحامين في القاهرة
وسوق الشورجة في بغداد . ولا أكنم القارئ أن بغداد تفتنى من
هذه الناحية أشد الفتون ، ففي أسواقها ملهاة للنظر والذوق ، وفي
خاناتها تذكير بأحاديث «ألف ليلة وليلة» وفي مساجدها العتيقة
ما يذكر بدعابات أبي الفتح في مقامات بديع الزمان .

وقد ثارت نفسى ثورة عنيفة يوم رأيت بغداد ، وهممت بأن
أقترح على رئيس الحكومة العراقية هدم هذه المدينة وبناءها من
جديد ، ولكن لم تمض أيام حتى رأيت التطور يأخذ مجراه ، فقد شرع
الناس في الهجرة إلى الضواحي وأخذوا يشيدون منازل جديدة على
الطراز الحديث ، فإن زرتهم بغداد بعد عشرين عاماً فسترونها
كالقاهرة تنقسم إلى قسمين عظيمين : قسم جديد وقسم حديث .
على أنني أصبحت أتمنى أن لا تبديد بغداد القديمة ، فلا أسواقها

جاذبية ، ولدروبها الضيقة ملاح من الحسن الاصيل ، وهى فوق ذلك صورة من المدينة الشرقية التى يحرص عليها أستاذنا الدكتور منصور فهمى أشد الحرص ، ويتمنى لو يعود إليها الشرقيون أجمعون ! وكنت أتصور دجلة نهراً صغيراً لم يأخذ عظمته إلا بفضل أخيلة الشعراء ، فلما رأيت أنه أخذت منى الروعة كل ما أخذ ، وتمنيت لوجاء شعراء مصر فرأوه وعرفوا أن فى الدنيا نهراً يشابه نهر النيل . إن دجلة نهر هائل جداً ، وهو حين يسير بغداد يقرب من النيل فى الاتساع ، ولا يمتاز عليه النيل إلا بمزية واحدة هى قوة تدفق الماء ، أما دجلة فله مزايا كثيرة أظهرها قيام النخيل على جانبيه ، وحرص أهل بغداد على إقامة المنازل والشرفات بحيث تواجه منظره الجميل .

وقد بحثت عن الجسر الذى قال فيه ابن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

أعدن لى الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدن جمرأ إلى جمر

بحثت عن هذا الجسر ، ولم أجده ، فوا أسفاه ، وإنما وجدت

جسراً سموه جسر مود ، (Maude) وهو اسم قادم من قواد الإنجليز

الذين دخلوا بغداد فاتحين .

فيارئيس حكومة العراق تفضل وسمّ الجسر الجديد (جسر
ابن الجهم) مراعاة لخواطر الشعراء

وهدوء الماء في نهر دجلة يجعله من أصلح الأنهار للملاحة
النهرية ، ولكنني بعد الدرس رأيت الملاحة في دجلة تنعدم أو تكاد ،
فقد تمرّ ساعات وساعات ولا تقع العين على سفينة واحدة في ذلك
النهر الميمون الغدوات والروحاحات . أما الفلك الصغيرة التي يمتطيها
اللاهون والعابثون فلا تزال على العهد الذي عرفه الشاعر المفضل
أبونواس ، ولكن قلما يغنى فيها الملاحون كما كانوا يفعلون في الأيام
الخوالي ، وقد ساهرت النجم ليلتين على شاطئ دجلة لأسمع غناء
الملاحين ، ثم انصرفت وقد كادت أذني تصم من سكون الليل .

وحملني حب الدنيا على التفكير في بناء بيت على شاطئ دجلة
فعرفت أن المتر المربع يباع بنحو دينارين ، وكذلك عرفت أن
أهل بغداد يعرفون قيمة الأرض على شاطئ ذلك النهر الجميل .

و كنت أنتظر أن تكون بغداد مدينة يغلب عليها اللهو واللعب
والمجون ، فرأيتها أعجوبة الأعاجيب في الجد والنشاط ، ولقد زرت
نحو عشرين مدينة من المدن العالمية فلم أر من صور الجد والاهتمام
والمصابرة معشار ما رأيت في بغداد ، فحيثما نظرت رأيت ناساً

يعدون إلى أعمالهم عدو الظلم ، وشهدت الناس يغدون وبروحون
وعلى وجوههم أمارات الجد الرزين . والمدارس في بغداد هي اليوم
مصانع لسبك الرجال ، ويندر أن تجد شاباً يضيع وقته على نحو
ما ترى في بعض مدارس القاهرة أو مدارس باريس .

والبغداديون يمتلكون مدينتهم تمام الامتلاك ، فهم السادة
الأعلون، ولا يسود في مدينتهم من الأجانب إلا عدد قليل، وسيكون
من حظهم في المستقبل أن يقولوا نحن حضرنا مدينتنا ولم يساعدا
على تحضيرها واغل من العالم القديم أو العالم الجديد .

ولقد شهدت آثار هذا الجد حين رأيت تلاميذي في دار المعلمين
العالية ، فهم شبان أذكاء تكفيهم اللمحة ، ولا أحتاج في تفهيمهم
أدق المشكلات إلى أدنى عناء .

وكذلك يحدثني الأساتذة المصريون الذين يدرسون في كلية
الحقوق فهم يشهدون بأن تلاميذهم فوق ما كانوا ينتظرون ، وأنهم
يفهمون أدق المشكلات بقليل من البيان .

وكنت أنتظر أن تكون بغداد ميدانا للجدل والصيال على نحو
ما كانت في عهود المتكلمين ، فكانت كما انتظرت ، فهي اليوم تزخر
بالأدباء والمفكرين الذين يملأون الأسواق بأجود ما تجود به العقول،
ويكفي أن يكون فيها رضا الشيبلي وزير المعارف ، وطه الراوي
مدير التعليم ، فهذان الرجلان يصوران ما امتازت به العقلية العراقية

في قديم الزمان .

وأشهد صادقا أني ما صادفت رجلا من المفكرين في بغداد إلا
انتفعت منه أجزل انتفاع ، ولا رأيت كاتباً ولا عالماً إلا تذكرت
الجاحظ وابن العميد .

وليت أدباء القاهرة يعرفون أن مؤلفاتهم تقرأ في بغداد ، وليت
أصحاب المجلات في القاهرة يعرفون أن لهم قراء في العراق ، فلو
عرف زملاؤنا في مصر شيئاً من ذلك لحاسبوا أنفسهم بعض الحاسب ،
ففي العراق موازين يعرف بها النقصان والرجحان ، وفي العراق
رجال يميزون بين الطيب والخبيث والغث والسمين ، وأدباء مصر
لهم في العراق خصوم وأنصار لا يخفى عنهم الحق ولا تجوز عليهم
الآباطيل .

وكنت أتصور بغداد مدينة أثر فيها الاحتلال ، احتلال الترك أو
احتلال الانجليز ، فوجدتها مدينة عربية في كل شيء ، ولا تغلب فيها لغة
الترك ولا لغة الانجليز ، فالعراق من هذه الناحية يشبه مصر ، فهو يبتلع
كل شيء ، ولا يؤثر فيه شيء ، ولعل لماضيه أثراً في ذلك ، فهو لا يزال
يعتقد أنه دان الأمم العربية جمعاء ، وهو من أجل ذلك يرفض
السيطرة الأجنبية . فإن رأيتموه يستعين العلماء المصريين في بعض
شؤونهم فاعلموا أنه يرى المصريين إخوة أشقاء ولا يراهم أجنباً ،

وهذا معنى لمسته بنفسى وقابلته بأصدق آيات الشاء .

وكننت أتصور بغداد مدينة شغلتها الصروف عن تقاليد الاسلام ،
فراقى أن أراها مدينة إسلامية فى كل شىء ، وما ظنكم بمدينة تعيش
فى القرن العشرين وهى مع ذلك لا تسمح لإنسان بأن يدخن سيجارة
فى رمضان ، ولا يفتح فيها مطعم ولا مشرب ولا حانة فى أيام
الصيام ؟ .

هل تصدقون أن الخروج على آداب الصوم يجر الرجل إلى دار
الشرطة حيث يلقى سوء الحساب ؟ هل تصدقون أن رجال الشرطة
فى بغداد يراقبون الناس فى الطرقات عسائم يظفرون بمسلم جاهل
يتظاهر بالإفطار ليزجوا به فى غيابات السجون ؟ هل تصدقون أن
النصارى واليهود فى بغداد يحترمون رمضان مراعاة لخواطرها
المسلمين ؟ .

أقول هذا وقد سمعت أن الصوم الحق لا يقوم به إلا الاتقياء ،
ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن العراق من الأقطار الإسلامية
التي تعرف الواجب نحو الدين الخفيف .

وكننت أتصور بغداد تموج بالفتنة بين السنة والشيعة ، فلما
خبرت الناس بعض الخبرة رأيتهم على جانب عظيم من التسامح ،
رأيتهم يعيشون جنبا إلى جنب فى هدوء واطمئنان ، ورأيت الثقة
بينهم على أتم ما يكون من الصفاء ، وتبينت أن المذاهب الدينية

لا تصرفهم عن الواجبات الوطنية ، وأن الآخرة العراقية ستكون
أساس الوحدة القومية بعد قليل من الزمان .

وجملة القول أن بغداد في عهد البناء ، والتجارب القاسية التي
مرت بها ستجعلها في حرز من تقلبات الأهواء . فمن كان في ريب
مما أقول فلينتظر قليلا ، فستأتي هذه البلاد بالأعاجيب ، وسيرى
الساعون بالنميمة أنهم كانوا واهمين .

إن العراق ينفض عن عينيه آثار السبات القديم ، ويتلفت إلى
المستقبل تلفت الليث جاءت أشباله ، ويقبل على الحياة إقبال الأفعوان
المهتاج ، ويضطرب في الدنيا كما تضطرب الوحوش الضواري
في غسق الليل ، فمن كانت له عند العراق حاجة فليؤجلها قليلا ،
فإن العراق لا يفكر اليوم إلا في شيء واحد : هو أن يكون أمة
تحكم وتستطيل .

* * *

قد تسألون : وكيف يحيا المجتمع في بغداد ؟ وأجيب بأني
رأيت في بغداد لونين من الحياة ، أما اللون الأول ، لون الجد ، فهو
ما حدثتكم عنه ، وأهل بغداد من هذه الناحية جبابرة عتاة ، وفيهم من
يصل النهار بالليل في سبيل الرزق ، وفيهم من لا يأوى إلى فراشه إلا
وفي صدره غرض مبيت مدفون .

أما اللون الثاني ، لون الهزل ، فهو يتمثل في المراقص والقهوات ؛
وما أزعج أتي قادر على وصف المراقص ، لأنني زرت مرقصاً واحداً
مرة واحدة ، وذلك المرقص يعطى صورة صحيحة ، لأنه فيما سمعت
كثير الأشباه في بغداد ، ومادة اللهو في هذه المراقص لا تعتمد على
الجمال العراقي ، وإنما تعتمد على الجمال الأوروبي ، فالراقصات في
تلك المواطن من المتاع الذي تجلبه السفن والسيارات لإيناس
اللاهين من الشرقيين ، واللحظة التي قضيتها في ذلك المرقص نهتني
إلى كثير من المعاني ، فقد رأيت من السامرين من يقول : إن ذلك
الفتى الذي يراقص تلك الشقراء هو ابن الشيخ فلان الرجل الصالح
الذي لا يعرف غير المسجد والبيت ، ففهمت من ذلك أن بغداد
تنقسم إلى جيلين مختلفان أشد الاختلاف : جيل الشباب ، وجيل
الكهول ، ومعنى ذلك بعبارة أوضح أن الفتيان الذين يرقصون
الرقص الإفرنجي في بغداد ليس لهم في ذلك المعترك أعمام ولا أخوال
وأحببت أن أرى الملاهي البغدادية الأصيلة ، ولكن الصديق
الذي أثق به في بغداد نهاني عن ذلك . أفيسكون معنى هذا النهي أن
البغداديين يرون ملاحيمهم القديمة مما تعافه الأذواق ؟ .

أما القهوات فكلها من طراز قهوات حيّ الحسين . ويندر جداً
أن يشرب فيها غير القهوة والشاي ، وربما كان من الحق أن نقرر
أن البغداديين لا يشربون الخمر أبداً على قارعة الطريق ، كما يتفق

ذلك لأهل القاهرة والاسكندرية وبورسعيد ، فهم من هذه الناحية
عقلاء ، ومع أن الحانات تظل في الأغلب مرخاة الستائر مغلقة
الأبواب لا يهتدى إليها غير العابثين ، فقد قرأت في الصحف العراقية
كلمات يقترح كاتبوها أن توحد أبواب الحانات إيصاداً مطلقاً في
ليالي رمضان .

ومع ان البغداديين يتحفظون في شرب الخمر فهم يسرفون في
شرب الشاي إلى حدّ الإدمان ، ويتفق في أحوال كثيرة أن ينقطع
الرجل عن الحديث ، فإذا سألت عرفت أنه لم يشرب الشاي منذ
ساعتين ، وأنه من أجل ذلك « خرمان » فهم من هذه الناحية
يشبهون الفلاحين في الجيزة الفيحاء ، فمن أهل الجيزة من لا يدرك
ولا يعقل إلا إذا أسعفته بكأس من الشاي الأسود البغيض .

وهناك مسألة على جانب من الأهمية وهي الوحدة الجنسية في
العراق ، فمن المعروف أن في العراق أجناساً مختلفة ولكن اللون
يكاد يتوحد في تلك البلاد ، فإذا مشيت في شوارع بغداد شاهدت
وحدة جنسية يمثلها اللون ، وسبب ذلك فيما أعتقد يرجع إلى جوّ
العراق ، فلذلك الجو سلطان قاهر في لفتح الوجوه ووسم البشرة
بسمات تقرّب ما بين السكان على اختلاف الأجناس .

والمرأة هنا محجبة تمام التحجب، وهي لا تلبس البرقع كما كانت تفعل المرأة المصرية، وإنما تغطي وجهها كله تغطية محكمة فلا ترى الدنيا إلا من وراء السواد، فإن رأيت امرأة سافرة بعض السفور فثق بأنها في الأغلب من بنات إسرائيل. وقد شاع اختلاط الجنسين في المدارس العالية، ولكنه اختلاط محوط بالتحفظ الشديد، وهو على كل حال من طلائع العصر الحديث. والوجوه في هذه البلاد وجوه مكدودة أرهقتها طول النضال فلا تعرف لين الترف إلا في قليل من الأحيان. وهذا الحكم نسوقه بتحفظ لأننا نرجو أن يكون خلف الستائر كثير من اللؤلؤ المسكون.

* * *

بغداد! بغداد! أين الحسن الذي أطال في وصفه الشعراء؟
أين عيون المها يا بغداد؟ أين مرابع اللهو، وأين مراتع الفتون؟
أفي الحق أن يفد عليك قلب خائف فلا يجد الأنيس؟
بغداد! كنت أرجو أن أراك أندى من القاهرة وأجمل من
باريس، فارفمي الستر قليلاً علني أصطبح أو أغتبق بجبينك الوضاح،
فإن لم تفعل فسيطول عليك العتب من شاعر سنتريس^(١).

(١) قد استجابت بغداد لهذه الدعوة فكشفت للكاتب عن جبينها المشرق وقلبا الطروب، وستظهر شواهد ذلك فيما سيراه القارئ من مختلف الفصول.

المذاهب الأدبية في مصر

خطبة ألقاها المؤلف في نادى القلم العراقى

أيها السادة

اقترح معالى الرئيس الأستاذ محمد رضا الشيبى أن ألقى محاضرة عن المذاهب الأدبية فى مصر، وهو موضوع شائك حملتنى وعورته على أن أقف موقف الواصف، ابتغاء السلامة من الشطط والاعتساف .

وأبدأ بشرح الغرض من كلمة « الأدب المصرى » فأصرح لكم أنها تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة « الأدب الأندلسى » مثلاً، أعنى أنها تدل على الأدب العربى الذى ينشئه كتاب مصريون، والمعنى الذى تؤديه كلمة « الأدب البلجىمكى » أى الأدب الذى ينشئه البلجىكيون وهم يكتبون وينظمون باللغة الفرنسية، وكذلك يقال « الأدب الأمريكى » وهو أدب ينشئه الأمريكيون باللغة الانجليزية، فليس يصح لأحد أن يستوحش من كلمة « الأدب المصرى » لأن المصريين يكتبون باللغة العربية فى جميع الموضوعات، حتى الشؤون الخاصة بالبيئة المصرية .

فإن سمعتم أن كلية الآداب عندنا تفكر فى إنشاء كرسى للأدب المصرى فليس معنى ذلك أنها تريد أن تناسى الأدب العربى؛ وإنما

هو كرسى لدرس الأدب الذى جادت به القرائح المصرية باللغة العربية ؛ وأتم تعلمون أن للشعراء والكتاب والمؤلفين الذين نبغوا فى مصر مكانة فى الأدب العربى ، وهم خليقون بأن يظفروا باهتمام خاص من الجامعة المصرية .

وأعود إلى صميم الموضوع فأقول :

إن هناك فرقا بين الأدب والمذاهب الأدبية

وإنما احتجت إلى النص على هذا الفرق لآنى غير مطمئن إلى وجود المذاهب الأدبية فى مصر ؛ ففى مصر أدب ضخم يتمثل فيما تصدر من المؤلفات ، وقد حدثنى السيد عبد العزيز الحلبي أحد كبار الناشرين أن المطابع المصرية تخرج فى كل يوم نحو اثنى عشر كتابا باللغة العربية ، والأمة التى تخرج فى كل سنة أكثر من أربعة آلاف كتاب لا يمكن اتهامها بالضعف فى حياتها الأدبية واللغوية .

فالأدب فى مصر قوى جدآ ، ولكن الذى أرتاب فيه هو وجود المذاهب الأدبية ؛ وإليكم البيان .

قامت مناظرة فى الجامعة المصرية بين معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا والأستاذ خليل مطران ، وكان موضوع المناظرة :

هل يكفى الأدب العربى لتكوين الأديب ؟

وكان رأى الأستاذ مطران أنه يكفى ، وكان رأى الدكتور

هيكل أنه لا يكفى .

وقد وقف الدكتور طه حسين في صف الدكتور هيكل ووقفت أنا
في صف الأستاذ مطران ، فهل كنا جميعاً جادين في هذا الجدل ؟
هيات ، فقد كان الدكتور طه والدكتور هيكل أديبين قبل
أن يعرفا شيئاً من اللغات الأجنبية ، وكنت أنا والأستاذ مطران
من أحرص الناس على التزود من الآداب الأجنبية .

فما معنى هذه المناظرة ؟ ما معناها وليس في المتناظرين من يكتفي
بالآداب العربية أو يزهد في الآداب الأجنبية .
إن لهذه المناظرة معنى واحداً : هو حض الشبان على تقليب
وجوه الرأي في المسائل الأدبية .

* * *

وكذلك يقال في الجدل العنيف الذي ثار في مصر بين القديم
والحديث ، فقد كان الأستاذ مصطفى الرافعي يحمل راية القديم
وكان الدكتور طه حسين يحمل راية الحديث .

فهل معنى ذلك أن أدب الأستاذ الرافعي كان صورة لأدب
الجاحظ وابن العميد ، وأن الدكتور طه كان يتجاهل الأدب القديم ؟
لا هذا ولا ذلك ، وإنما هي صور من الجدل بكثير صدورهما
في الصحف المصرية .

ومن هذا الباب كان الجدل بين الدكتور طه حسين والأستاذ

العقاد حول الادب اللاتيني والادب السكسوني ، فليس الدكتور
طه ممن يتجاهلون خصائص الآداب السكسونية ، ولا الأستاذ
العقاد ممن يتجاهلون خصائص الآداب اللاتينية . وإنما هو جدل
يكثر صدوره عن أفلام الأدباء المصريين .

وكذلك الحال في الجدل الذي يثور في مصر أحيانا بين أنصار
الترجمة وأنصار التأليف ، فليس في الداعين إلى التأليف من يجهل
فضل الترجمة ، وليس في الداعين إلى الترجمة من يجهل فضل التأليف ،
وإنما هي ضروب من الجدل المثمر يحسنها المصريون .

ومثل هذا يقال في الجدل الذي ثار حول الأدب المكشوف ،
فليس في مصر اختلاف حول استقباح ذكر العورات والمخازي ،
وإنما هو خلاف في طريقة نشر المؤلفات القديمة ، ففي مصر أدباء
يشيرون بنشرها مهذبة ، وأدباء يشيرون بنشرها كاملة مراعاة للأمانة
في فهم التاريخ .

وقد ثار الجدل في مصر حول مهمة المجمع اللغوي ، فجماعة
يقولون بدرس اللهجات ، وآخرون بإحياء المؤلفات القديمة ،
ولكنهم جميعا متفقون على ضرورة الجمع بين الفائدتين .

والقصة ، ما شأنها ؟ ناس يقولون بوجوب الاهتمام بالقصة ،
وفريق يقول إنها فن مفتعل في اللغة العربية ، ولكن أولئك
وهؤلاء يجمعون بين المذهبين في التأليف .

وخلاصة القول أن النزاع بين الادباء المصريين لا يصدر عن مذاهب أدبية؛ وإنما هي طلائع لمذاهب أدبية ستستفحل بعد حين.

* * *

ولكن متى بدت تبشير تلك الطلائع؟

كان المصريون قبل مائة سنة لا يعرفون من موارد الثقافة غير الأزهر الشريف، فكان الادباء يتشابهون في الاغراض والأساليب. ثم أنشئت وزارة المعارف فدخلت على الاذهان والعقول أطراف جديدة من الثقافة الغربية، وشرع الادباء ينقسمون إلى طائفتين: طائفة أزهرية، وطائفة عصرية، وأخذت هاتان الطائفتان تفتلان في مخاض الميادين.

وأقرب الشواهد لذلك ما كان يثور من الخصومات الأدبية بين كتاب (الجريدة) من جانب، وكتاب المؤيد واللواء من جانب؛ وكان ذلك منذ ثلاثين عاماً، حين كان أحمد لطفي السيد يقارع عبد العزيز جاويش وعلي يوسف، وأساس الثقافة عند الأول مدني؛ وعند الآخرين أزهرى، فكان يظهر التفاوت في الاغراض وفي الأساليب، بحيث كان يظهر أن الجو الأدبي لم يعد يتنفس في هواء واحد، وكاد الناس يدركون أن عقلية من يحمل العمامة تخالف عقلية من يحمل الطربوش.

والاختلاف في الاغراض ظهر بقوة جارية يوم نار الجدل في

مصر حول السفور والحجاب ؛ فقد كان دعاة السفور من أنصار الثقافة الحديثة ، وكان المتمسكون بالحجاب من شيوخ الأدب القديم . وكان إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨ بداية الفصل بين القديم والحديث ، فقد كان أكثر الأدباء لذلك العهد لا يعرفون اللغات الأجنبية ، فلما أنشئت الجامعة كان في نظامها أن لا يظفر بألقابها إلا من يؤدون امتحانا في آداب اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية ؛ ومعنى ذلك أن الأديب لا يظفر بإجازة جامعية في الأدب إلا إن تمكن من الاتصال بالآداب اللاتينية أو السكسونية ؛ ونحن نعرف أن ذلك لا يمر بسلام ؛ وإنما يدخل في عقل الأديب وذهنه وقلبه ألوانا من الثورة على الأدب الموروث ؛ وتنتج ذلك محسوسة : فالأدباء المتخرجون في الأزهر ودار العلوم غير المتخرجين في الجامعة المصرية ، ويكفي أن تنظروا في كتابين ألفا في موضوع واحد هو الأدب الجاهلي ، أولهما للأستاذ محمد هاشم عطية ، وثانيهما للدكتور طه حسين ؛ وهما كتابان جيدان ، ولكن المؤلفين يختلفان في فهم الأدب الجاهلي أشد الاختلاف .

وقصة الأدب المكشوف ، ليس لها في مصر وجود ملموس ، ولكن يظهر أثرها في مطبوعات دار الكتب المصرية ، فإن القسم الأدبي هناك يطبع من كل كتاب نسختين : نسخة كاملة ، أو نسخة مدنسة ؛ تنشر

بما اشتملت عليه من العورات والمجون ؛ ولاتباع لغير الخواص ؛
ونسخة مطهورة أو مهذبة تحذف منها أسماء العورات والمجون، وتباع
لسائر الناس .

ولم يسلم من هذه الرقابة غير كتابين : الأول عيون الاخبار ،
وقد دافعت عنه بنفسى يوم كنت موظفا بدار الكتب المصرية
سنة ١٩٢٥ وأقنعت المرحوم الدكتور أبو هيف بإبقاء الكتاب
على أصله ؛ رعاية لوصية المؤلف رحمه الله ؛ والثانى كتاب الاغانى
وقد اشترط السيد راتب أن لا يحذف منه شيء ؛ وكان قدم لوزارة
المعارف مبلغاً من المال تستعين به على إحياء ذلك الكتاب .

* * *

أيها السادة

كان النقد الادبى قبل الحرب يحاكم الكتاب والشعراء إلى
المعروف من أساليب القدماء ؛ ولكن الحياة الادبية مع ذلك لم تخل
من وثبات فكرية بفضل النور الذى بثته الجامعة المصرية ؛ فلما
جاءت الحرب غلا الورق غلاء شديدا ، وتخاذلت الصحف
والمجلات ؛ وضائق الميادين أمام الناقدين وخلا الجو للمرحوم
المنفلوطى فكان وحده المؤلف وكان وحده المنتهود .

وفى أعقاب الحرب ظهر كتاب اسمه (الديوان) وهو أشبه بمجلة
دورية يحررها الاستاذ عباس العقاد والاستاذ إبراهيم المازنى ، وكان

الغرض منه هدم الاسماء التي سيطرت على الحياة الادبية ؛ ولا سيما شوقي والمنفلوطى . وبجانب ذلك نشطت مجلة أسبوعية اسمها عكاظ كان من همها أن تدحر هذين الكاتبين ، واستطاع هذا العراك أن يشغل الناس من جديد بالحياة الادبية .

ثم كانت الثورة المصرية التي خلقت مئات من الكتاب والخطباء .

ثم كان الجدل السياسى بين عدلى يكن وسعد زغلول، وهذا الجدل هو وحده صاحب الفضل على الأدب فى الديار المصرية .

ويبان ذلك أن عدلى يكن وأصحابه كانوا يفهمون جيداً أن سعد زغلول يستأثر بالجماهير ، فانشأوا جريدة السياسة وزودوها بالدراسات الأدبية لتستطيع الوصول إلى جماهير القراء ، وقد صح ما توقعوه فأصبح لجريدتهم قراء ، ثم رأى الوفد المصرى أن يفضل الأدب بالأدب ، فأمدت جريدة البلاغ بطائفة من حملة الأقلام . وكذلك أصبح من التقاليد أن يكون فى كل جريدة يومية صفحة أدبية .

ولكى تعرفوا كيف كان يسيطر الأدب فى ذلك العهد أروى لكم القصة الآتية :

كان شوقي رحمه الله ينشر قصائده فى جريدة الأهرام ، ورأت جريدة السياسة أن تتفرد بنشر تلك القصائد ، ولكن ماذا تصنع ؟

أعلنت أنها تدفع خمسين ديناراً للجمعية الخيرية الإسلامية في كل
مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي .
وبذلك غنمت القراء الذين كانوا ينتظرون شوقي على صفحات
الأهرام .

* * *

أيها السادة

في مصر اليوم رجة اجتماعية ستعود على الأدب بأجزل النفع ،
وأنتم تعلمون أن الأدب يستفيد من الخير والشر على السواء . ومن
شواهد ذلك الأدب النسوي : فقد ابتدأ برسائل (باحثة البادية) ملك
حفنى ناصف ، وكانت أبحاثها مقصورة على الجوانب الاجتماعية ؛
ثم جاءت الآنسة مى فأمدت الأدب النسوي بأرواح معطرة ، ولكن
نشأ في الاعوام الاخيرة حادث أدبي يستحق التنويه ، ذلك هو
أدب الآنسة جميلة العلابي ، فقد أخرجت ديواناً شعرياً يتوقد
بأنفاس الحنين ، وهى أول مرة نسمع فيها أن فتاة عربية تنظم
ديواناً تغلب عليه الوجدانيات ، وهذه الآنسة قصص طريفة تمثل
بها عواطف النساء العاشقات أصدق تمثيل ، وذلك لونها من
الأدب الجديد .

أقول هذا وأنا أعرف أن فيكم من ينكر أن تفصح الفتاة عن
عواطفها الوجدانية ، ولكنى أقف موقف المؤرخ ، ولا أخرج على

من يحاول الأمانة في سرد التاريخ .
وعندنا اليوم فتاة اسمها سهير القلماوى ، وهى أقل جرأة من
جميلة العلابى ولكن يغلب على ظنى أنها ستكسر قيود الرزانة بعد
قليل ، إلا أن تحرص على وظيفتها بكلية الآداب فتتكلف الوقار .
وفي كلية الآداب اليوم حركة لانتخاب «أميرة الشواعر» وأخشى
أن نستغنى بها عن «أمير الشعراء» !!

وبهذه المناسبة أذكر أن المصريين كانوا فكروا فى انتخاب أمير
للشعر بعد شوقى ، ورأى جماعة أن يكون ذلك اللقب من حظ
الأستاذ عباس العقاد وثار جماعة آخرون منهم الأستاذ محمد الهراوى
والأستاذ محمد الأسمر فقد أهدوا اللقب إلى «البرنس» وهو نساخ
فى دار الكتب المصرية له منظومات فى التهانى بالافراح والليالى
الملاح !! . وقد قُتل ذلك الجد بهذا المزاح .

* * *

أيها السادة

لا تعجبوا من حرصى على تدوين الجانب النسائى فى الحياة
الادبية ، فأنا واثق بأن الرجة الاجتماعية التى يمثلها اختلاط الجنسين
فى الجامعة المصرية سيؤدى إلى نتائج منها المقبول والمرذول ، ولا
مفر من الاعتراف بأن وجود نحو ثلثمائة فتاة بين شبان الجامعة
المصرية سيحدث أزمات نفسية وخلقية ، ومن تلك الازمات

المخوفة ياخذ الادب وقوده الذى ظل ينتظره منذ أجيال .
ولكى تعرفوا كيف أسرع التطور فى بلادنا أذكر لكم أنى
كنت طالباً فى الجامعة المصرية منذ عشرين عاماً ، ولم يكن يزاملنى
من الجنس اللطيف فى ذلك العهد غير فتاة واحدة هى الآنسة مى ،
و حين يلتحق ابنى بالجامعة فى العام المقبل سيجد بجانبه ثلاثمائة فتاة ،
فإن صح أن مزاملة فتاة واحدة أثرت فى أدبى فكيف يكون حال
ابنى ؟ وقاه الله ونجاه !!

أيها السادة

قد يكون من الخير أن نقرر أن الادباء المصريين بدأوا
ينقسمون إلى طوائف فى الشعراء من يريد قصر شعره على مسامرة
الاطفال كالاستاذ محمد الهراوى ، وفيهم من يقف اشعاره على الأغاني
كالاستاذ احمد رامى الذى لا المشرقيين بالحنين على لسان أم كلثوم ، وفى
الكتاب من لا يعبر عن اغراضه بغير القصص وفيهم من يكاد يقصر
ادبه على السخرية من المجتمع كالاستاذ ابراهيم المازنى ، وفيهم من
وقف ادبه على الفكاهة كالاستاذ حسين شفيق المصرى ، وعندنا
ادباء لا يعرفون إلا إذا علوا منابر البرلمان .

وقد بدأت الاساليب تتنافر وتختلف ، فأسلوب فكرى اباطة
ومحمد التابعى غير أسلوب عبدالعزيز البشرى واحمد الزيات .

وكتاب الازهرام لهم مسالك في التعبير تخالف مسالك زملائهم
في جريدة البلاغ .

والموضوعات التي تدرسها مجلة الرسالة غير الموضوعات التي
تدرسها مجلة الصباح .

والسامرون في الاحياء الازهرية لهم مذاهب في القول والتعبير
تباين المذاهب المسالفة عند السامرين في شارع مظلوم وشارع فؤاد
وادباء القاهرة غير ادباء الاسكندرية وغير ادباء اسيوط .

ولكن ما نراه تباينا لا يجيز القول بأن في مصر مذاهب أدبية
تشبه الكلاسيك والرومانتيك عند الفرنسيين ، ذلك بأن الادباء
المصريين تنطور أذواقهم كل يوم بفضيل إقبالهم على مختلف الثقافات
الشرقية والغربية ، فالخلاف بين الاساليب هو كالتخلاف بين
الوجوه لا يجعل الرجلين من امتين مختلفتين وإن كان يشهد لكل
فرد بالقوة الذاتية .

وهذا التصادم بين المشارب والميول يحير المبتدئين في بلادنا
فلا يعرفون كيف يتوجهون ، ولكنه يساعد على قوة الشخصية ، إذ
يستطيع الشاب الناضج أن يتفرد في النهاية بأسلوب خاص .

وقد يكون من الخير أيضاً أن نقرر أن في مصر كثيراً من

الجرائد والمجلات التي تصدر باللغات الاجنبية ، وهذا يؤثر في
تلوين الثقافة أشد تأثير ، لانه يغرى الادباء المصريين بمتابعة الكتاب
الاجانب في بعض المذاهب ، ولعل لهذا دخلا في شيوع الصور
الرمزية بالمجلات المصرية ، والافكار تعدى بالصحة وتعدى بالمرض
في اكثر الاحيان .

* * *

ايها السادة

لايسعنى في هذا المقام أن أغفل ظاهرة أدبية عرفتها مصر في
الأعوام الأخيرة ، فقد كانت أنشئت مجلة شعرية اسمها «ابوللو»
ولم تعمر غير عامين ، ولو طال عمرها لأمدت الشعر بكثير من
الحيوية ، ولكن الدكتور ابوشادى عجز عن الإنفاق عليها بعد أن
أنفق في سبيلها ما أنفق ، فغربت بعد أن أظهرت طائفة من الشعراء
الشبان منهم حسن الصيرفى وصالح جودت وعلى محمود طه ، وبعد
أن عرفت الجمهور بعبقرية الدكتور إبراهيم ناجى أصدق شاعر
يسكى حظوظ القلوب ويذكر الناس بنبرات ابن الاحنف
وابن زيدون .

أتريدون كلمة الحق؟

لم يبق في مصر أدب ولا مذاهب أدبية .

إن الاقلام كلها تحولت إلى الجدل السياسي ؛ وكاد المسرح
المصرى يموت بالرغم من وجود قصاصين بارعين أمثال محمود
تيمور وتوفيق الحكيم .

فإن شئتم أن تعرفوا ما هو المذهب الجديد الذي عرفته مصر من بين
المذاهب الأدبية فإني أحدثكم أن ذلك المذهب هو الأدب السياسي ؛
والأدب السياسي هو كل ما تعرف مصر من غذاء العقول في هذه
السنين العواصف .

والأدب السياسي فن جديد في اللغة العربية ؛ ولا يعرف قيمته
إلا من يقرأ البلاغ والكوكب والجهاد والاهرام والمقطم و آخر
ساعة والكشكول ، ففي هذه الجرائد والمجلات صنوف من الصبوح
والغروق يدركها أرباب الاذواق .

ولو رأيتم كيف تتصاول المذاهب والآراء في تلك الجرائد
والمجلات لرأيتم العجب العجيب . وأشد ما آسف له أن الأدب
السياسي في مصر لا يطلع عليه إخراننا في سائر الأقطار العربية ؛
لأنهم يحسبونه نوعا من الحديث المعاد ، ولو بحثوا عرفوا أنه صقال
للأذهان والعقول .

أيها السادة

قد رأيتم أنني وقفت موقف الواصف لبعض الظواهر الأدبية
في الديار المصرية؛ وما أدعى أنى وفيت الموضوع حقه من البحث،
ولكن يكفي أن أكون ظففت بكم طوفة لا تخلو من طرافة؛ وهي
طوفة كنت فيها مثالا للدليل الأمين، والسلام.

—————

القلب الغريب

في ليلة عيد

أخي الاستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشبهت مرة
أن توجه إلى خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى
غريب » و كنت الغريب في بغداد و كنت الغريب في باريس ؟
ولم تحدثني عما أوحى إليك أن تفكر في إنشاء ذلك الخطاب ،
فهل أستطيع أن أرجح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة « من
غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس ، تلك الرسالة التي فضحتُ بها
مكتوم صدري ومكثون هواي ؟

على أنني لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد
الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح
يوم رحيلي إلى العراق

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلَّ عهد الاغتراب عن القاهرة ،
فمن يردني إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية تحية المغاني الآهله
التي كانت تتشوف إلى العيد ، لتراني مع العيد !

ليتك يا صديقي تعرف نعمة الله عليك في بلد لك فيه أهلٌ وأحباب،

ولا أراك الله حسرتي وعذابي وأنا أنجرح كأس الغربة في ليلة عيد !
ولكن هل من السياسة أن أعلن غرتي في بغداد ، وقد لقيت فيها
أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أني لا أعاني غربة العقل ، وإنما أعاني
غربة القلب

وكيف أعاني غربة العقل ومحضراتي يشهدا المئات من عشاق
العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالمعطف والإعجاب ،
ولا أدخل نادياً إلا تلقاني أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟
ولكن هل يكتفي مثلي بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كتب
علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ! وما أضيقت العيش إن
كانت لا تلعب بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب . وهل
يخفى عليك ما يعانیه رجل مثلي حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس
ولارفيق ؟ هل يعزبه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر
الفسكر والرأى وهو يلتقي محاضراته على جمهور من العلماء والأدباء ؟
ليتك تراني وأنا أدخل إلى غرتي شارداً اللب فأزيح الستائر عن
الزواقد ثم أطفئ المصباح لأتف وجهاً إلى وجهه مع ظلام بغداد .
ويارحمة الله من ظلام بغداد في لياليها الطوال !

ولكن ما الذي يدعوني إلى معانقة الظلام في بغداد ؟

لا أعرف، ولكن يخيل إلى أن الظلام يؤنسني بعض الإيناس،
لأنه يوهمني أني في فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب،
وتسكن الأرواح إلى الأرواح. وربما كان الظلام في غرفتي فرصة
طيبة أتبين فيها بصيص النور في منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة
النجوى والعتاب، وأتوهم ضجيج المرح في ليالي الوصال

* * *

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان.
وهذا مكاني على المائدة في المطعم الذي تخيرته بشارع الرشيد، وهذه
أطراف ترد على القلب، من أحباب القلب، أطراف من مصر الجديدة
والزمالك، تلك البقاع التي لم ترفها النجوم قلباً مثل قاي، ولم تسدل
ستارها على هوى أعنف من هوى... وليقل من شاء ماشاء!

وأسأل جاري على المائدة: هل ثبتت الرويا؟

فيجيب: سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين.

وأخرج فأتصفح الوجوه في شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء،

سم أميل على الشرطي أسأله:

هل ثبتت الرويا؟

فيجيب: لم تثبت، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف
فأددم: برقية من النجف؟ وهل يسر من في النجف أن يفطر

من في بغداد؟ إن كان الأمر لعلماء النجف سيضيفون إلى الصوم يومين، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين.
وأذهب إلى نادى المعارف لأستمع لحظات مع زملاء من المدرسين فيفرحون ببلقائى ويسألون: كيف غبت أمس؟ فأجيب: غبت أمس لأحضر اليوم. ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال؟ فيجيبون: سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة. فأقول والشمس تغرب فى الخامسة، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال؟

وبعد لحظة تحول إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تبأغم المستمعين فتقول: سادنى وسيدانى، هذا آخر العهد برضان!
فأقول: يا إخوانى، يا حضرات الأساتذة، يا مسلمين يا أولاد الهلال هذه فى مصر ليلة العيد

فيجيب أحدهم وهو يتسم: علت شيئاً وغابت عنك أشياء، ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة، وصام المصريون يوم الخميس، فهم حتماً يسبقوننا إلى العيد؟

فأقول: من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شىء، فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد. وأنصرف محزون الفؤاد

هذه غرقتى موحشة لا يؤمننى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين،

وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لاعطلة فيه في بغداد ،
وإذن فسأعطي غداً درساً في التفسير ، وهو درس متعب لأنه في
الكشاف ، وفي آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال
وكيف أعد هذا الدرس ، يارباه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد في
مصر الجديدة وفي الزمالك ، ويا ويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل
مصر الجديدة والزمالك و غضبة الله على من تمر بياله خاطرة ملام
وأنا أردد أسماء تلك المغاني ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نضرة النعيم
بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا
تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم
وأنتم لا تشعرون »

قال جار الله الزمخشري ...

هذه طلقة مدفع ١

وقال ابن حجر في الرد عليه ...

وهذه طلقة ثانية ١

وكيف نوفق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة ١

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة. إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع
الرفع، وإنما هي مدافع العيد

وأطفأت المصباح، وتلفت إلى النافذة لأرى ظلام بغداد،
وقلت: هذه ليلة عيد بالإجماع، فلأرح نفسي من الكشاف،
وللحاجة صاحب الكشاف، ولأقبل على قلبي أتبين ما فيه من
فُطور وندوب

وتذكرت أنني كنت أكتب رسالة وجدانية في كل ليلة عيد،
ثم انقطعت رسائلي بعد إذ مات أبي رحمه الله، لآتني أنفت أن أبكي
بعده على غرض مُضَيِّع أو هَوِيٍّ مفقود

ثم بدالى في هذه الليلة أن أبى لا يسره في قبره أن تعيش مهجتي
بلا لوعة، ومقلتي بلا دمة، وكان يرحمه الله جذوة من الوجدان
وعدت إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجدمن أحاوره غير
الرجل الحزين الذى اسمه أحمد أحمد حسن الزيات

صديق

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدث إخوانك أنك عرفتني أول
مرة عن طريق البوليس؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى
زيارة المحافظ فتوجست خيفة، ثم رأيت أن الخطب هين لأنك

دعيت لتسلم رسالة من الشيخ زكي مبارك الذي اعتقلته السلطة
العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتلقى مني رسالة إلا في ظروف
تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى في عهد ثورة فهذه أيضاً
في عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن
صديق حزين يناضل الأرق والسهاد في ليلة عيد

صديقي !

لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل
الأعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسم لا تلهمي
الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن
القلب أدق ميزاناً من العقل . وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ
هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدى العقل إلا بالبراهين ، وهي
في الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل

صديقي !

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة
فتذكر أنك أرق في ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين
تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك
الغريب في بغداد ، الغريب الذي يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء

والآن أظني المصباح لأعاق الظلام في المدينة السحرية التي شقي
بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته
الحكومة على شاطئ دجلة ، فأفهم أنني أخاطب الآهوات لأن
مصاييح الحكومة لا ندل على شيء ، ولا يهتدى بها غير لصوص
الجيوب .

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء
والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذي لا يعرف ربيع القلب ، ولا
نعيم الجفون .

في هذه الليلة تهدأ جنوب ، وتقلق جنوب ، وجنبي هو الجنب
الحائر تحت سماء بغداد .

في هذه الليلة تنلفت عيون فلا تراني ، عيون كنت لها أمتع من
إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، في هذه الليلة تشتاقني
أكباد رفاق علمتها كيف تطيب ليالي الأعياد .

ولكن لا بأس ، فسنعيش حتى نرد ديون الهوى ، وسيعلم من
أبكامم الفراق أن الدمع لا ينفع وسنرجو أن لا يسمحوا لنا بعد
هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد .

أخي الأستاذ الزيات .

لا أنتظر منك دمة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لي إليك
رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش في شوارع القاهرة إلا مشية

الخاصين ، فليس في تلك المدينة بقعة إلا ولي فيها صبوات ، وليس
فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولي فيه أحباب وخلان .

ولو شئت لسكفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب في مصر
الجديدة ، وفي الزمالك ، ولكن مثلك وأسفاه لا يؤتمن على نقل
التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولي إلى من أذالوا
غاليات الدموع يوم رحيلي إلى العراق ؛ والسلام عليهم وعليك
من الغريب الحزين

العروبة في مصر

محاضرة ألقاها المؤلف في نادي المثق

أيها السادة

منذ أيام ألقى محاضرة في نادي القلم العراقي عن المذاهب الأدبية في مصر، ارتجلتها ارتجالاً، لأن الوقت لم يتسع لتدوينها، وأنا كما تعلمون مشغول، وكان في النية أيضاً أن أرتجل هذه المحاضرة، وقد عرف ذلك صديق صاحب جريدة البلاد فأرسل أحد زملائه لتلخيصها، ولكنني رأيت بعد عصر اليوم أن الموضوع الذي أتكلم فيه موضوع دقيق، وأن من الواجب أن أدون محاضرتي وأن أقف عند الذي دوت، حتى لا توجد فرصة للتفسير والتأويل

وأسارع أيها السادة فأنص على أن محاضرتي لا صلة لها بالمعاني السياسية، فليس في بغداد مصرى يحق له أن يتكلم في السياسة غير سعادة الأستاذ عبدالرحمن بك عزام وزير مصر المفوض في العراق، وإنما أتكلم باسم الأدباء المصريين كلام الزميل الصادق الذي لا يعرف غير الحق.

وبعد هذا التحفظ أقول: إن صلوات مصر بالأمم العربية ترجع

في حقيقتها إلى عنصرين: عنصر السياسة وعنصر الاخوة، والسياسة لها وجهان الوجه الدولي والوجه الأدبي، وأعترف صراحة بأن الوجه الدولي من السياسة لا يربط مصر بالأمم العربية، فمصر لا تملك من الواجهة الدولية أن تجهز الجيوش لمناصرة الأمم العربية وهي كذلك لا تنتظر هذه المعونة من الأمم العربية، وكلكم يذكر أن البوارج الإنجليزية احتلت الجمارك مرة في عهد وزارة المغفور له سعد زغلول ومع ذلك لم يقل أحد في مصر إن الأمم العربية كان عليها أن تقف في صف مصر بما عندها من جيوش البر والبحر والهواء، فذلك أيها السادة أمل نرجو أن يحققه المستقبل، أما الآن فنحن وأتم نعرف ما يحيط بنا من المعضلات، ونرجو أن ينصرنا الله على الأعداء

أما الوجه الأدبي من السياسة فمصر تعرفه حق العرفان، وهل يصح في ذم أحد أننا في مصر ننظر إلى المفوضية العراقية أو الوكالة العربية كما ننظر مثلا إلى السفارة البريطانية أو السفارة الإيطالية؟ هيئات، إن هذا كلام لا يقوله إلا حاقدا أو جهول، اسألوا سفيركم في مصر يتحدثكم عما يلقاه من كرم المصريين، واسألوا سفير الحجاز والأفغان وإيران يتحدثوكم أنهم يعيشون في مصر عيش السعداء لأنهم بين إخوان يعرفون واجبات الإخاء ويفهمون قيمة العواطف العربية والإسلامية

بل اسألوا أبناءكم الذين يتعلمون في مصر، اسألوهم يحدثوكم أن الأساتذة في الجامعة المصرية والأزهر ودار العلوم يشددون عليهم في الامتحان ليثقوا بأنهم يصلحون لخدمة بلادهم في قوة وأمانة، بل اسألوا كل من يتصل بمصر في سبيل المنافع الاقتصادية من أهل سورية ولبنان وفلسطين وحلب واليمن والحجاز وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وجاوة والهند، اسألوا كل إنسان يتكلم اللغة العربية من الوافدين على مصر : كيف حاله في مصر ؟ وإني لو اتق بأن المنصفين منهم سيجيبونكم بأن مصر هي البلد الوحيد الذي يعرف قيمة الأخوة العربية والإسلامية .

أيها السادة

إن مصر هي أعظم موئل للعروبة، ومن واجب العربي الصادق أن يدعوا لله لسلامة تلك البلاد من كل عادية حتى تظل ينبوعا تتفجر منه المعارف العربية .

ومع أن مصر أعظم موئل للعروبة باعتراف الجميع فهناك شبهات يجب تبديدها في هذا المقام، هناك إشاعة تقول إن مصر فرعونية وتقول إن الذي أذاع هذه الفكرة هو كاتب مصري اسمه سلامة موسى، وأرجوكم أن تصدقوني أيها السادة إذا أكدت لكم

أن هذا الكلام اخترعه ناس في غير مصر وسمع به الأستاذ سلامة موسى كما سمعه غيره من المصريين ، ومن هذا ترون أن الدسياسة جاءتنا من الخارج ، جاءتنا من المستعمرين وأتباع المستعمرين ، وأنتم تعرفون جيداً أن المستعمرين قد ملأوا بدنائيرهم جيوب فريق بمن يكتبون باللغة العربية ، والمستعمرون يفهمون جيداً أن الأمم العربية تمنح مصر حق الزعامة الأدبية فهم يسلكون جميع المسالك ليسوءوا سمعة مصر بين الأمم العربية . وأجهل الناس يعرف أن العروبة إن انعدمت في مصر فلن تقوم لها قائمة إلا بعد أعوام طوال يوم يصبح العراق وفيه عشرون مليوناً من السكان وله ميزانية تبلغ مائة مليون والمصريون لا ينكرون أنهم ورثوا بلاد الفراعين وأنهم من أجل ذلك يسمون مصريين ، وهل يضير العروبة أن يتشبث المصريون ببلادهم وأن يبذلوا في سبيلها كل شيء لتبقى تلك البلاد ملكاً خاصاً للغة العربية والدين الإسلامي ؟

مالذي يضير العرب أيها السادة إذا رأونا نهتم بالآثار الفرعونية وكلكم يعرف أن مصر تفردت من بين الأمم بأثمن مجموعة من الآثار والفنون عرقها الإنسانية ؟ نحن في مصر نزور آثار الجيزة وسقارة والأقصر وأسوان لنؤمن بأن مصر في طبيعتها صالحة لقيام أعظم امبراطورية ، فهل يسوءكم أن نسمر أقدامنا في تلك الأرض وأن نجعلها إلى الأبد — بإذن الله — من أملاك العروبة ؟

حدثوني أيها السادة ماذا يسوءكم من تمجيدنا لنهر النيل ؟ نحن
نحبه لنحرص عليه ونموت في سبيله إن عدا عليه العادون ، فهل
يسوءكم أن يبقى النيل لامة عربية توحد باري الأرض والسموات ؟
نحن عرب ولكننا مع ذلك مصريون ، وأنتم عرب ولكنكم
مع ذلك عراقيون ، وسكان الجزيرة عرب ولكنهم مع ذلك
حجازيون أو يمنيون ، فأرجوكم أيها السادة أن تزونا الأمور
بموازينها ولا تظلمونا من غير موجب فإن الحب أساسه الإنصاف

وهناك شبهة أخرى هي كلية (الأدب المصرى) وقد بددت
هذه الشبهة حين تكلمت في نادى القلم العراقى ، فكلمة الأدب
المصرى فى اللغة العربية ترادف كلمة الأدب الأمريكى فى اللغة
الانجليزية وكلمة الأدب البلجيكى فى اللغة الفرنسية ، فالأدب
الامريكى هو أدب إنجليزى ولكن كتابه وشعره امرىكيون ،
والأدب البلجيكى هو أدب فرنسى ولكن كتابه وشعره
بلجيكىون ، وكذلك الأدب المصرى فهو أدب عربى ولكن كتابه
وشعره مصريون .

وقد سمعت أن الأستاذ الدكتور طه حسين اقترح إنشاء كرسى
للأدب المصرى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية فهل معنى هذا أن
الكرسى المنشود سيجلس عليه أستاذ لا يدرس غير (المواويل) التى

يتغنى بها المغنون في قهوات الحلبية القديمة؟ هيات، إنما هو كرسى
يهم من يجلس عليه بدرس الكتاب والشعراء والمؤلفين الذين
أنجبتهم الديار المصرية وهم يعدون بالمثات، ولهم فضل عظيم على
الثقافة العربية، وما أظنكم تبخلون علينا بإنفاق ألف دينار في كل سنة
لدرس الأدباء الذين نبغوا في مصر ونحن ننفق ألوف الدنانير في كل
أسبوع لدرس الأدباء الذين نبغوا في سائر الأقطار العربية .

أيها السادة

إسمعوا هذا الحديث :

منذ أيام جاء إلى دار المعلمين العالية فراش من كلية الحقوق
وترك لي نسخة من جريدة الرأي العام التي تصدر في بغداد فعرفت
أن أحد الموظفين هناك أرسلها إلي لغرض خاص فقلبت الجريدة
فرأيت فيها تصريحاً للأستاذ مصطفى عبدالرازق عن الوحدة العربية
ورأيت تحت ذلك التصريح عبارة مكتوبة بالحبر الأحمر هذا نصها
« ليتأمل الدكتور زكي مبارك »

وقد تأملت وتأملت ثم تأملت . فماذا في تلك العبارة؟ فيها أن
الأستاذ مصطفى عبدالرازق يقول إن مصر تقف من الوحدة
العربية موقف المشاهدة لا موقف الفاعلة .

وهو كذلك ، ولكنني عرفت من سياق العبارة أن الأستاذ مصطفى عبد الرازق ألقاها باللغة الفرنسية لأنها نشرت في جريدة إنجليزية أغنى أنه قرّر أن مصر ليس لها مع الأمم العربية موقف يسمى Action وهذه كلمة حق ، فالظروف لا تساعد مصر على تجييش الجيوش في سبيل الوحدة العربية ، وهذا إثم لا تحتمله مصر وحدها وإنما هي مصيبة دولية تشترك فيها جميع الأمم العربية .

ومع ذلك هل سكت المصريون على كلمة الأستاذ مصطفى عبد الرازق؟ لا ، فقد هجموا عليه وخطأوه بعبارات قوية نشرتها جريدة العقاب منذ أيام .

مع أن عبارة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ليس فيها عند التأمل ما يريب ، وأقول بصراحة إن مصطفى عبد الرازق من مفاخر العرب والمسلمين ، ولو كان في الأمم العربية عشرة من العلماء على نمط مصطفى عبد الرازق لكان العرب من أغنى الناس في عالم العقل والبيان .

أيها السادة

هل تبون أن أحدثكم عن مصر العربية؟ قولوا إنكم

تبون ذلك !!

إن مصر اليوم هي الشاهد على حيوية العرب : فالصحافة المصرية أقوى من الصحافة الفرنسية والصحافة الإيطالية والصحافة الألمانية وليس هذا بالقليل يا أدباء بغداد . في مصر اليوم مطابع لا تقل قوة عن مطابع باريس ولندن وروما وبرلين ، وهي مطابع عربية ، لا إنجليزية ولا إنجليزية ولا جرمانية ، في القاهرة معهد اسمه الجامعة المصرية ، وهو بعون الله ورعايته لا يقل قوة عن جامعة لندن أو جامعة باريس أو جامعة برلين .

إن متوسط ما تخرج مطابع القاهرة باللغة العربية اثنا عشر كتاباً في كل يوم بغض النظر عن مطابع بور سعيد والمنصورة وطنطا والاسكندرية وبلقاس وشبين وأسيوط ، وبغض النظر عن المطابع الخصوصية مطابع العلماء والأدباء .

إن مصر هي البلد الوحيد بين البلاد العربية ، البلد الوحيد الذي يعيش فيه حملة الأقلام عيش المياسير ، وقد جربت ذلك بنفسى فكنت أغرم عشرات من الدنانير في الأسبوع الواحد من قلبي ، ولى بيت في مصر الجديدة أنفقت عليه ألفى دينار كسبتها من سنّ القلم في عامين اثنين ، ولو تيسر هذا في العراق والحجاز وسورية لأصبح العرب سادة العلم والبيان

أيها السادة

أنا عربي أولاً ومصري ثانياً ، ولو شئت لقلت إن أبى من أصل

عربي صريح ، وأهل سنتريس يعرفون ذلك ، ولكنني أرفض
التودد المتكاف وأقول إني مصري . وما تسووني هذه النسبة ،
فالمصريون عرب في أقوالهم وأفعالهم وشمائلهم ودينهم ومذاهبهم ،
وأدعو الله عز شأنه أن يجعل مصر أبد الدهر من أملاك اللغة
العربية لغة القرآن .

أيها السادة

هل تؤذيكم هذه الصراحة ؟

اعذروني فأنا أتكلم في بغداد ، التي أعزت العقل والمنطق يوم
كان الناس يعيشون في دياجير الجهل والغفلة والحمق والغباء .
وأنا في الواقع تليد بغداد قبل أن أكون تليد القاهرة أو
باريس . فإن رابتكم صراحتي فلا تلويوني فاللوم على أسلافكم
الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق .

أيها السادة

إن مصر عربية في كل شيء ، عربية في لغتها ودينها وأخلاقها .
إن مصر عربية ولكنها لا تقول في كل لحظة إنها عربية لأن
الكريم لا يقول في كل لحظة إنه كريم ، ولو فعل ذلك لآضافه
الناس إلى أهل المن الممقوت .

إن أهل مصر كأهل الحجاز لا يقولون إنهم عرب ، لأن توضيح
الواضح من المشكلات

أيها السادة

اسمحوا لي أن أقول بصراحة إن التشكيك في عروبة مصر لا يقوم به إلا ناس يخدمون المستعمرين ويخدمون المبشرين ، والعراق لحسن الحظ منزّه عن هذه الأهواء ، إن مصر هي التي استطاعت أن تفرض على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية فتكثفت بها في امتحانات البكالوريا الفرنسية ، وهي التي استطاعت أن تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية دولية ، وهي التي استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الإسلامية بلا استثناء ، وذلك لونه من الحرية الفكرية كانت مصر أول من شرعه بين جميع الأمم الإسلامية

أيها السادة

إن مصر هي بلادكم وبلاد كل ناطق بالضاد من جميع الديانات ، إن مصر بلاد كل من ينطق باللغة العربية ولو تمذهب بالوثنية ، فمن العقوق أن تسمعوا فيها كلام الخونة من عبيد المستعمرين الذين يريدون أن يوهموكم أن مصر انسلخت من العروبة وأنها لا تعرف غير أصولها من الفراعين .

أيها العراقيون

أنتم الشعب الذي يعتمد عليه في حكومة العقل والمنطق ، وقد سمعتم أن مصر لا تعطف على الأحزان العربية وحدثكم المغرضون

أن مصر لم تحزن على نكبة فلسطين مثلاً ، فليقم من أعضاء نادى
المثنى جماعة للموازنة بين مانشرته الجرائد المصرية فى الانتصار
لقضية فلسطين وبين مانشرته الجرائد العربية ، وحينذاك تعرفون
أن المصريين كانوا أكثر الناس غيرة على تلك القضية ، قضية
العروبة وقضية الإسلام .

أيها السادة

فى مصر كثير من مظاهر العروبة ، بل كل ما فى مصر ينطق
بعروبتها كما قال الدكتور محجوب ثابت ، ولكن عيب مصر أنها
لا تقول فى كل لحظة إنها عربية . وأؤكد لكم وأنا صادق أن القاهرة
ليست اعز على من بغداد ، ولكنى مع ذلك أرجوكم أن تزوروا
القاهرة لتقفوا على ما فيها من الحيوية العربية التى تتمثل فى الأزهر
والجامعة المصرية والمجمع اللغوى والفرقة القومية التى تتجسم
فى وزارة المعارف المصرية

أيها السادة

إن المستعمرين وصنائعهم يريدون أن يوهموكم أن مصر تخلت
عن العروبة ويريدون أن يزهدوا العرب فى الثقافة المصرية ، لأنهم
يفهمون أن أدباء مصر فى هذه الأيام لا يقلون قوة وفخولة عن أدباء
انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، أدباء مصر هم اليوم رجال الفكر
والبيان ولو كره المستعمرون

أيها السادة

إن العروبة في مصر بخير وعافية ، ولا يعوزها إلا شيء واحد
هو أن يثق بها أبناء الأمم العربية ولا سيما أهل العراق . رعى الله
مصر ورعى العروبة وحفظ العراق

أمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا

خطاب المؤلف

في حفلة تكريمه في بغداد

أيها السادة

أقدم إليكم أصدق آيات الثناء، ثناء القلب لا ثناء اللسان، فقد حاولت أن أعد خطبة تناسب مقامكم المحمود، ولكنني لم أصل إلى بعض ما أريد، وكان ذلك حالي في جميع المرات التي شرفني فيها أحرار الرجال بحفلات التكريم، فلم يبق إلا أن أرجوكم قبول هذه الكلمات، وقد دوتها وأنا بين الحيرة والاستحياء.

لم يكن في مذاهب الأدبية ما يبعث على خلق الأنصار والأصدقاء فقد قضيت نحو عشرين سنة وأنا أحمل راية النضال، فلم يبق رجل معروف إلا وبينى وبينه أوتار وحقود، مع استثناء بعض المتفضلين بإقامة هذا الاحتفال.

فكيف اتفق أيها السادة أن تقام لي حفلات التكريم في القاهرة والاسكندرية وباريس وبغداد، وأن ألقى الكرامة في كل مكان، بالرغم مما اشتهرت به من رعونة القلم وشراسة اللسان؟ لهذه الظاهرة النفسية تأويل، فالناس يعرفون أني في جميع

الأحوال جندي من جنود الأدب ، وخدام من خدام العروبة ،
وحارس من حراس لغة القرآن .

فهم حين يسمعون اسم زكي مبارك لا يتصورون ذلك
الشخص الجاني الذي لا يفرق بين العدو والصديق ، ولا يعرف
كيف يلبس السدارة أو كيف يلبس الطربوش ، ويحمل القبعة على
نحو ما كان يحمل العمامة ، ولا يدرك الفرق بين الملابس العادية
والملابس الرسمية ، وإنما يذكرون حين يثار اسم زكي مبارك أن
لهم كنوزاً من الأدب الرفيع هو من حراسها الأمناء ، وأن لهم
طلائع من الآمال الكبار هو من دعائها الأوفياء ، وأن لهم تاريخاً
مجيداً هو أسيره ومجنون ليله .

أيها السادة

لقد لقيني أحد الأدباء في جريدة البلاد منذ أيام وقال : إن
كثيراً من أهل بغداد يقولون إن في شخصية زكي مبارك شيئاً يوجب
الحب ، فهل لك أن تدلنا على ذلك الشيء ؟

فأجبت : سألوها شاعركم العباس بن الأحنف الذي يقول :
لو أنّ القلوب تجازي القلوب لما كان يحفو حبيب حبيبا
فأنا أحبكم يا أهل بغداد ، وليس من المستغرب أن تحبوني من
حيث لا تعلمون سبب الحب .

وما أزعجني أنني أحببت بغداد والعراق حب المدلهين ، وإنما

أذكر أن قلبي خفق خفقة كاد يطفرف لها الدمع حين وقع بصري
على دجلة أول مرة ، وأذكر أني شربت ماء الفرات صرفاً ، شربته
بمزوجا بالطين ، فبدأ لي أشهى وأعذب من الرضاب المعسول ،
وأذكر أني ألقيت محاضرة بالاذاعة اللاسلكية فثارت من حولها
العواصف وتنكر لها فريق من الأدباء والعلماء فطربت وقلت :
الحمد لله الذي أحياني حتى جرى اسمي بالملام على السنة أهل العراق

* * *

ومن العدل أن أعترف بأن أهل بغداد جروا على فطرتهم
النبيلة فجزوني حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فلم يصح ما توقعت من
أن انتقالي من القاهرة إلى بغداد سيكون انتقالاً من نضال إلى نضال
فهل تسمحون بالإشارة إلى بعض ماجزتي بغداد ؟

لقد راعني أن أجد في دار المعلمين العالية شباناً نجباء يستمعون
دروسى ، وكأنهم صورة من صور العطف والذكاء ، وأعظم نعمة
في الدنيا أن يقف الرجل موقف المعلم لشبان مهذبين أذكياء ، وأنا
واثق أن لن يعاديني أحد من هؤلاء التسلاميذ ، ومطمئن إلى أني
لأعيش بينهم عيش الغريب بعد أن طالت شكواى من الغربية في
القاهرة وسنتريس .

وراعني أيها السادة أن يكون لي زميل كالدكتور عقراوى ،
زميل يحضر محاضراتي مع أهله ، ثم يختصمان في سيدبلي وهما على

المائدة ، فتنصر هي عند الغداء وينتصر هو عند العشاء .
وراعني أن أجد في دياركم رجالا من أهل العلم ، أمثال الأستاذ
طه الراوي والدكتور فاضل الجمالي ، رجالا يعرفون الأخوة الأدبية
فينزلون عن كل وحشة وينهبون عن قلبي متاعب الاغتراب .

وقد تفضلت الطبيعة العراقية فأتحفتني بأنفس ما تملكون وهو
ليل بغداد ، ولن أترك لكم هذا الليل ، وأصارحكم بأني سأنهبه ثم
أطويه في جيبى وأنقله إلى ضفاف النيل .

ولكن أى ليل ؟ إنه في هذه الأيام لا يعرف إنسانا سواي ، فإن
شعر أحدكم بأن ليليه مضيعة فليحقد على كيف شاء فأنا الذى أنهب
من عينيه سحر الليل ، ليل بغداد .

ولهذا الليل أيها السادة أحاديث ، فقد عرفت به كيف استطاع
علماء العراق أن يملأوا الدنيا علما وأدبا ، وكيف كان الرجل
يستطيع أن يؤلف مائة كتاب ويعلم ألوف التلاميذ ، ويساجل
النجوم بأشعار باقية على الزمان .

ليل بغداد هو الذى سيخلق زكى مبارك من جديد ، ليل بغداد
الطويل الذى يصل في بعض الأحيان إلى سبع وسبعين ساعة
وسبع دقائق ، ليل بغداد الذى حمل المكتبة العامة على رفع
شكواها إلى وزارة المعارف لتتقدها من الجاحظ الجديد الذى
اسمه زكى مبارك .

وما أنكر أيها السادة أنى عرفت فيما سلف ليلا أطول من ليل
بغداد ، وهو ليل باريس ، ولكن ليل باريس على طوله كان طبع
الصباح بفضل ما هنالك من ملاء وفتون ، أما ليل بغداد فلا يعرف
شيئا من ذلك ، هو ليل العلم ، وسيصيرنى وأسفاه من كبار العلماء
وخلاصة القول أنى سعيد فى بغداد ، ولا يضايقتنى إلا شىء
واحد : هو وجود جماعة من الاساتذة المصريين فى هذه البلاد ،
اساتذة ينافسونى أخطر منافسة بفضل ما رزقوا من غزارة العلم
وحصافة العقل ، ولكن يعزىنى أنكم لن تطالبونى بمثل ما يقدمون
من صالحات الأعمال وطيبات الجهود ، ففهم رجل سبقنى إلى الدنيا
بأكثر من خمسين سنة وهو الأستاذ محمود عزمى ، أطال الله حياته
وبارك فى عمره ، وبلغه ما يسمو إليه من كرائم الآمال

أيها السادة

هل لكم أن تسمحوا لى بالترويح عن نفسى قليلا ؟ لا بد
للصدور أن ينفث ولى أمل عزيز أخشى أن يخيب
لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال فى الدعوة إلى
إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعنى
على تحقيق ذلك الأمل النبيل ، وصارخى بعض الرجال بما يعترض
إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل

فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية وأصافح
يمنى أنصارها الأوفياء، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية
في كل يوم، والكلام عنها في كل مجتمع والالحاح بها على جميع
الوزراء، واعدلوا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة، وباسمها
الخالد تتعطر الأفواه في جامعات الشرق والغرب

إنّ الحجة في أيدينا أيها الزملاء، فعندنا نواة الجامعة العراقية،
عندنا النواة السليمة لأربع كليات، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية
بصفة رسمية، ولنبادر بخلق الصلات العلمية والادبية مع الجامعة
المصرية وجامعة باريس، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة
بمهرجان مشهود في آذار المقبل، شهر الأزهار والرياحين
أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالي في ظروف كثيرة، فشدوا من
عزائمكم لنصرته هذه المرة، وحققوا أشرف غاية لحملة الأعلام
وهي إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتموني بهذا الاحتفال الرائع، فهل تعرفون متى أردّ لكم
هذا الدين النبيل؟ سأردّه يوم يتقرر بفضلكم إنشاء الجامعة
العراقية، ويومئذ لا أكتفي في تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب
الشاي، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل.

النبي الصبور^(١)

كان أستاذنا سيد بن علي المرصفي رحمه الله مشهوراً بركة الدين ،
والشهرة بركة الدين بلية برزاً بها النوابع في الشرق ، وقد صحبت
ذلك الأستاذ سبع سنين ، وكنت في تلك السنين شاباً مستقيماً
الأخلاق ، وكنت أخاف أن يعيدني بركة الدين . فكنت
أحترس وأحترس ..

ولكن الذي وقع كان أعجب وأغرب ، فقد صحبت هذا الشيخ
وأنا مسلم ولم أفارقه إلا وأنا مؤمن ، فكيف أخذت الإيمان عن
ذلك الزنديق ؟

كان الشيخ لا يذكر النبي إلا بعبارة : «سيدنا رسول الله»
وكنت أظنه يتهمكم أو يتظرف ، لكثرة ما سمعت من اتهامه
برقة الدين .

ولكن هذه العبارة لم تكن مقصورة على الدرس : فقد كان
يقولها كلما ذكر اسم الرسول ، وكنت أسمعها منه في البيت وفي
الطريق وفي كل مكان ألقاه فيه .

وفي إحدى المرات التي كان يسخر فيها من شيوخ الأزهر

(١) كتبت هذه الكلمة لمجلة الديوان البغدادية

— وكان يسخر منهم في كل وقت — في إحدى تلك المرات هجمت عليه فقلت : ولكن أنت يا أستاذ سرقت من شيوخ الأزهر عبارة : «سيدنا رسول الله»

فقال : أنا لا أقول «سيدنا رسول الله» تقليداً للشايخ ، وإنما أقول ذلك عن ذوق وإحساس . فالنبي محمد هو في قلبي وعقلي «سيدنا رسول الله»

ومنذ تلك اللحظة بدأت أفهم كيف تلصق التهم بالزوايغ زوراً وبهتاناً .

أنا أبغض الاعلان عن إيماني بغضاً شديداً ، لأنى أخشى أن يحسب فريق من بنى آدم أنى أنزاف إليهم ، أخشى أن يحسب المتجرون بالدين أنى أحب أن أقاسمهم ما يربحون من خسران !
ولكن ماذا أصنع وصاحب هذه المجلة يخذعه حسن الظن فيثق بإيماني ويدعونى لكتابة كلمة عن سيدنا رسول الله بمناسبة المولد الشريف ؟

أعترف كارهاً بأنى مؤمن ، وفى سيدك يا رسول الله أسجل هذا الاعتراف

ولكن ماهى الشئال التى تصلى بسيدنا رسول الله ؟

إن هذا الرجل عظيم في كل نواحيه ، ولكن في شمائله ناحية منسية
هي الصبر الجميل .

وخلة الصبر في سيدنا رسول الله أنقذتني من الموت نحو عشرين
مرة فقد كانت تمر بي أزمت أعانى فيها من لؤم الناس ما يشوقني إلى
الموت . كنت أتسامي إلى الخير ويصدني عنه ما عند الناس من
عقوق . كنت أطمح إلى البر ويصرفني عنه ما عند الناس من جحود ،
كنت شيخاً كسائر المشايخ لا يقدم كلمة النصيح إلا لمن يقبل يمينه
كنت مخلوقاً صغيراً لا يتعب في سبيل الخير إلا إن ضمن الجزاء .

ثم هداني سيدنا رسول الله

نعم هداني سيدنا رسول الله

فبفضله عرفت أن الشر عنصر أصيل في حياة الإنسانية ، ولو لم
يكن الأمر كذلك لما جاز لهذا الروح الطاهر النبيل أن يقضى
حياته كلها في هموم وكروب وأحزان ؟
ومن أنا في جانب سيدنا رسول الله ؟

لقد كان يزرع البر ويحصد العقوق ، فما الذي يمنع من أن أتشبهه
به فأزرع البر لأحصد العقوق ؟

لقد جعل العرب أمة عزيزة بعد أن استذلهم الفرس والرومان
ومع ذلك اتهمه فريق منهم بالكذب والافتراء .

وأنا أحاول أن أغنى اللغة العربية بحيث ينسى أبناؤها ما يفتنهم

من أدب الإنجليز والفرنسيين والألمان والطلليان ، ومع ذلك
أجد من يمضغ لحمي بلا تورع ولا استحياء .

لقد صبر النبي على قومه ، فهل أصبر على قومي ؟

هنا أتشوف إلى التأسى بسيدنا رسول الله .

* * *

قلت في صدر هذه الكلمة إن صحبتي للشيخ المرصفي قوت إيماني
ولكن صوت الشيخ المرصفي الذي قرع أذني أول مرة سنة
١٩١٣ لا يزال يعاودني ، فما أدري كيف اتفق له وهو مؤمن أن
يتوجع وهو يذشد قول يحيى بن طالب :

يزهدني في كل خير صنعته

إلى الناس ما جربت من قلة الشكر

وأنا أحب أن أترك هذا الأدب لأتأدب بأخلاق سيدنا رسول
الله ، أحب أن أنخلق بأخلاق هذا الرجل ، فأخدم أعدائي ، أحب
أن أتطبع بطباع هذا الرجل فأواسي خصومي ، أحب أن أكون
كالشجرة يخبطها الناس بعنف لتلقى إليهم ثمارها ، ثم تعود فتورق
وتزهر وتثمر ليعود الأشقياء إلى خبطها من جديد .

* * *

ولكن كيف السبيل إلى الاقتداء بسيدنا رسول الله ؟

في مكتبتني بمصر الجديدة خمس نسخ من المصحف الشريف .

وكان معي في باريس نسخة من المصحف الشريف .
وقد أخطأت نحو نفسي أبشع خطأ حين قدمت بغداد وليس
معي نسخة من المصحف الشريف
ولكن لا بأس فقد استعرت نسخة من المصحف حين قهرتني
الهموم في بغداد ، وفي هذا المصحف أقرأ هذه الآية :

« إنا كفيناك المستهزئين »

فأعرف أن حمايتي في ضمان ربي

وأقرأ هذه الآية :

« ولا تك في ضيق مما يمكرون »

فأعرف أن من واجبي نحو نفسي أن أبتسم ، وربما كان هذا

من واجبي نحو ربي .

وأقرأ هذه الآية :

« فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .

فأفهم أن الحق سينتصر ولو بعد حين ، وأحفظ رزاتي وألزم

وقاري .

وما أقصد بغداد ولا أهل بغداد ، فليس للعراق من وجهة

العروبة وجود خاص ، وإنما هو عضو من ذلك الجسم الهائل

الذي تجتمع به الأمة العربية ، وما ألقاه من الشر في العراق قد

لا يصدر عن العراق ، فالأقطار العربية تتجاذب الخير والشر ،

والعرف والنكر والرشد والغنى ، والسهم الذى يصيبنى وأنا على
ضفاف دجلة قد يكون راميه صديقاً يقيم على ضفاف النيل .
سهم أصاب وراميه بذى سلم من العراق لقد أبعدت مرماك
وذو سلم قريب بعض القرب من العراق فكيف يتفق للقيم على
ضفاف النيل أن يصيب من فى العراق ؟
لقد ترقق وسائط الحرب ، فاحترس يا صاح ، ثم احترس يا صاح .

* * *

أيها القارئ :

هل عندك فكرة تخدم بها وطنك ؟

هل عندك رأى ترفع به أمتك ؟

هل أنت رجل فيه خصائص الرجال ؟

أيها القارئ :

حدثنى من أنت ؟ فإن كنت إنساناً تافهاً فلا خوف عليك ،

فأسعد المخلوقات هى الأنعام ، والجو لا يتسع حق الاتساع
لغير الذباب .

وإن كنت من أهل الرأى والأدب والبيان فاسمع نصيحتى .

إسمع نصيحتى بلا ثمن ، فأنا كالشمس التى توزع النور بالمجان .

إسمع يا غافل ، ثم اسمع يا غافل ، إسمع يا جهول ، ثم اسمع يا جهول ،

لن تصل إلى شيء إلا حين تصبر على لوم من تفكر في هدايتهم
كما صبر سيدنا رسول الله .

لن يصل العزاء إلى قلبك إلا حين تذكر تعزية الإله العظيم
لنبيه الكريم .

هل تعرف تلك التعزية ؟ هي هذه الآية الكريمة :
«لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين» .

مصادر الادب القديم

ومراجع العلم الحديث

حضرة الصديق العزيز الاستاذ سامى السكيالى

سأتمنى عما أرى فى إحياء الأدب القديم وما أرى فى نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية ، وهاتان مشكلتان حار فى حلها كثير من المفكرين ، وإنما وقعت تلك الحيرة لأنه لا بد للباحث من الرجوع إلى مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث

ويؤلمنى أن أصرح بأن العزائم تراخت فى هذه الأيام عن إحياء الأدب القديم ، ويكفى أن تذكروا ما صنعت مطبعة بولاق بالقاهرة لتعرفوا أنه لم يتفق لآية هيئة علمية أو أدبية أن تصنع ما صنعت تلك المطبعة فى بضع سنين ، ومن المحزن أن المؤلفين فى تاريخ الأدب للمدارس الثانوية يسكتون عن تاريخ تلك المطبعة وتراجم مصححيها سكوتاً تاماً ، ولو وفقهم الله إلى الحديث عنها لرجونا أن يخلق الشوق إلى إحياء الأدب القديم فى بعض النفوس

وما رأيك إذا حدثتك أن الجيل الذى ساف قام بأعباء ستعجز عنها سائر الاجيال ، إن لم يرفع الغبار عن بعض ما نعرف من القلوب ؟ لقد قام ذلك الجيل بطبع « تاج العروس » فهل تنتظر أن

يطبع ذلك المعجم المعجز مرة ثانية؟ لقد قام الجيل السالف بطبع شرح «الإحياء» فهل يخطر ببالك أن ذلك الشرح سيُطبع مرة ثانية؟ هيهات هيهات

إن معجم «لسان العرب» وهو أعظم معجم عرفته اللغة العربية طبعه فيما سلف رجل ثم كان جزاؤه أن يموت تحت أثقال الديون، فهل في أدباء هذا العصر من فكر في كتابة فصل ممتع، أو قصة شائقة، عن حياة ذلك الشهيد؟

وشرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة الذي نشرته مكتبة الحلبي فيما سلف، وكتاب «الأم» الذي ألفه البويطي ونسب خطأ إلى الشافعي ونشره الحسيني، وكتاب المخصص لابن سيده، أترى تلك المؤلفات تنشر مرة ثانية على أيدي هذا الجيل الكسلان؟! هناك فكرة ترمى إلى أن يقوم المجمع اللغوي في مصر بإحياء الأدب القديم، وهذه الفكرة لها خصوم ولها أنصار، فإن انتصرت يوماً فسيحيا الأمل في بعث الأدب، أما الجهود الحاضرة، جهود الأدباء الذين ينشرون ما يتقدرون على نشره من قديم المؤلفات، فهي جهود مشكورة ولكنها لن تصل بنا إلى ما نريد. وحسبك أن تذكر أن أدباء هذه الأيام لا ينشرون من المؤلفات القديمة إلا ما يعرفون أنه قريب من أذهان المتأدين لتعرف أن هذا النوع من النشر سيقف عند الكتب التي تكثر فيها الأشعار

والأسمار والأحاديث ، ثم يعجز عن طبع الكتب العلمية التي لا نجد جمهوراً كبيراً من القراء

وقد جربت هذا بنفسى فأحييت كتاب زهر الآداب وأحييت « الرسالة العذراء » أما زهر الآداب فقد راج وطبع مرتين ، وأما الرسالة العذراء فلا تزال نسخها مكدسة فى بيتى ، ولا أعرف أين أصرفها ، لأنها تبحث مسألة أدبية دقيقة لا يهتم بها غير الخواص ، والخواص فى الأمم العربية لا يحيا بهم كتاب ، لأنهم يدعون الإحاطة بكل شىء ، وأكثرهم يظن على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش وما جربته بنفسى جربه أكثر المعاصرين ، فهم يقفون فيما ينشرون عند الكتب التي يفهمها الجمهور ، ويحجمون عن نشر الكتب التي تنفع الخواص

وهل هناك أعجب من قصة السيد رشيد رضا مع كتاب دلائل الإعجاز ؟ لقد حدثنا فى مقدمة الطبعة الثانية أنه لولا عناية وزارة المعارف لظلت الطبعة الأولى مهجورة لا تعرف غير الصناديق ، وكذلك كان حال كتاب « أسرار البلاغة » الذي لم تنفذ طبعته الأولى ، مع أنه نشر منذ ثلاثين عاماً أو تزيد . . . فى صاحب مجلة الحديث تذكر أن الأدب القديم لن يظفر بالحياة إلا إن وجدت له هيئة حكومية تسترخص فى سبيله الألوف المؤلفة من الدنانير ، وتفرضه على الطلبة ، والأساتذة أيضاً ، إلى أن يخلق الذرق الأدبي

الذي يجب إلى الأفراد قيمة التضحية في هذه السبيل

وأما نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية فلي في شأنه اقتراح قديم أخذت به وزارة المعارف المصرية في عهد الوزير الأسبق محمد حلمي عيسى باشا وألفت لجنة لتنفيذه ، ثم سكتت عنه بعد أن فارقها ذلك الوزير . وخلاصة ما اقترحته على الوزارة أن تفرض على كل طالب من أعضاء البعثات أن يترجم إلى اللغة العربية كتابين من أمهات الكتب في العلم الذي يخصص فيه ، ثم لا تعد بعثته قد تمت إلا بعد أن يؤدي هذا الواجب ، أي لا يمنح ترقية أو علاوة بعد عودته إلا يوم يتضح أنه نقل إلى أمته شيئاً من العلم بترجمة كتابين عظيمين .

وكان من فروع هذا الاقتراح أن تقوم الوزارة بطبع تلك المترجمات ثم توزعها على المدرسين والموظفين والمتأديين بشمن مقبول ، وكان من رأي أن تخصص الحكومة من كل موظف عشرة قروش في كل شهر ، ثم تعطيه في مقابل ذلك نحو عشرة كتب في كل عام ، وبذلك تفرض الثقافة العلمية على جمهور الموظفين ، ثم تنتقل العدوى العلمية إلى أبنائهم وإخوتهم ومن يتصلون بهم من الشباب والكهول .

ولا أزال أعتقد أن هذا الاقتراح سهل التنفيذ، فهل يمكن
بعثه مرة ثانية بفضل نشره على صفحات الحديث ؟
أرجو إن راقكم هذا الرأي أن تكتبوا في تأييده مرة أو مرتين،
فإن الذكرى تنفع المؤمنين، والسلام.

الاسمار والاحاديث^(١)

في ليالى رمضان

أيها السادة

إن الشوق إلى السمر في رمضان هو شوق قضت به طبيعة الحياة لأن الناس يكادون يمسكون عن الكلام في أيام الصيام من فرط التعب والإعياء، فإذا جاء المغرب وأفطروا رجعت إليهم الحيوية، وتشوفوا إلى مظلول الأحاديث. والإنسان حيوان ناطق، كما تعرفون، ناطق بالفسكر وناطق باللسان، والكلام عند الإنسان هو مادته الأولى من اللهو واللعب وهو مسلاته وملهاته في أكثر الأحيان أضيفوا إلى هذا أن الناس يحتاجون في ليالى رمضان إلى انتظار السحور، وهم لا ينتظرونه ساكتين، وإنما يتعاونون على السهر بأطياب الاسمار والاحاديث

ومن الحق أن نذكر أن الكلام يستعمل أيضاً في تزجية أيام الصوم، والتاريخ يحدثنا أن علماء المسلمين كانوا يقطعون أخريات النهار بالجدل والمناظرة في الشؤون الدينية واللغوية، ومن شواهد ذلك ما حدثنا الصاحب بن عباد من أنه كان يرى العلماء يتجادلون

(١) أول محاضرة ألقاها المؤلف بالاذاعة العراقية

في قصر ابن العميد بعد العصر في رمضان ، فإذا اقترب المغرب انقلبوا إلى بيوتهم ، وكانت هذه الحال مماضيق ابن عباد ، فنذر إن أقبلت عليه الدنيا ليحجزن العلماء إلى ما بعد الفطور ، ثم قضى الحظ أن يكون وزيراً فكان العلماء يحضرون عنده بعد العصر في رمضان للجدل والمناظرة ، فإذا أذن المؤذن مُدَّت لهم الموائد فأكلوا وشربوا ثم قضوا السهرة إن شاءوا في السمر والحديث

ومن قبل ابن العميد وابن عباد كانت المساجد تمتلئ بالناس بعد العصر في رمضان ، وكان الواعظون والقصاص يلهون الناس عن متاعب الصوم بفضل ما ينثرون عليهم من العظات والأقاصيص . ولو راجعنا التاريخ لحدثننا عن شواهد ذلك من أخبار المساجد في البصرة والكوفة وبغداد

ولانزال هذه السنة متبعة في الديار المصرية . ورحمة الله على الشيخ محمد غريب الذي كان يلهينا ويشجعنا بشرح الأحاديث في مسجد سنتريس ، ورحمة الله على الشيخ الرفاعي الذي كان يأتي بالعجب وهو يلقي العظات بعد العصر في مسجد سيدنا الحسين

وكان لعلماء القاهرة سنة مرضية ، فقد كان منهم من يذهب إلى المسجد بعد السجور ثم يحدث الناس إلى صلاة الصبح ، ولهم في ذلك نواذر يضيق عن سردها هذا الحديث

ولا أستطيع أن أزعم أني قادر على وصف ما يقع في بغداد من

الاسمار والأحاديث في ليالى رمضان ، فإنى لم أشهد فيها شيئاً من هذا النوع ، ولا أزال بفضل انقطاعى للدرس وانعزالي عن الناس كالشاعر الذى يقول :

بأيها السائل عن منزلى نزلت في الخان على نفسى
أكل من خبزي ومن كسرتى حتى لقد أوجعنى ضرسي
فاسمحوالى أن أحدثكم عما يقع من ذلك في البلاد التى يرويهها
النيل ، وأكاد أجزم بأن جميع الناس في القرى المصرية يقطعون
أمسياتهم في تبادل الزيارات ، ولهم في ذلك طرائق لطيفة تتمثل في
الوفود التى تنتقل من بيت إلى بيت ومن دوار إلى دوار ، والدوار
في بلادنا هو المضافة الكبيرة التى يسمر فيها الأهل والأقربون
ويتلقون فيها الضيفان .

أما القاهرة فلها أحوال ، فقد كانت إلى نهاية الجليل الماضى تعرف
التزاور في البيوت ، ثم قلت هذه العادة الحسنة رويداً رويداً حتى
كادت تنقلص ، ولم يبق فيمن أعرف من ينتظر الناس بمنزله
في ليالى رمضان إلا العدد القليل

فمنذ خمسة عشر عاماً كان في القاهرة منزل الصوفانى بالحلمية
الجديدة ، وكانت لذلك المنزل تقاليد ، وإنما خصصت ذلك المنزل
بالذات لأن رمضانياته كان لها أثر في الحياة السياسية والاجتماعية
وفي هذه السنين لا أعرف في القاهرة منزلاً يحافظ على تلك

التقاليد غير منزل عبد الرازق وهو المنزل الذي يعمر اليوم
بالأخوين النبيلين على عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ، ففي ذلك
المنزل تلتقى الوفود في كل مساء ، وفيه تجرى أطيب الأسفار
وأظرف الأحاديث ، وفي ذلك المنزل تلقى من تشاء من الرجال
فتحدث الشيخ الزنكلوني ولطفى باشا السيد والدكتور منصور
فهمى والدكتور طه حسين .

وهناك منزل في حيّ السكرية هو منزل القاياتي ، وقد خلا من
الغطاريف البهاليل ، ولم يبق فيه من الخير إلا وجه الشاعر المطبوع
السيد حسن القاياتي . ومن طرازه منزل السيد عبد الحميد البكري
الذي كان مرجع الصوفية إلى عهد قريب والذي شب فيه صاحب
صهاريج اللؤلؤ ، نضر الله مثواه .

* * *

فإن سألتهم وأين يلتقى أدباء القاهرة في ليالي رمضان فإني أخبركم
بأن ذلك لا يقع إلا في المقاهي والأندية ؛ ولكل أديب مشهور
مقهى خاص ؛ فالشاعر محمد الهراوي ينتظر إخوانه في مقهى
لونا ببارك . واللغوي محمد وحيد الأيوبي ينتظرهم في مشرب السلام ،
والصحفيون يسلمون في بار اللواء . وكذلك تهجر البيوت وتوصل
المقاهي في ليالي رمضان .

ولكن من العدل أن ننص على أن تلك المقاهي سيكون لها

تأثير عميق في الأدب الحديث ، وهل يمكن تناسي صولات الجدل
في قهوات شارع عماد الدين ؟ هل يمكن أن تتناسى قهوة ريجينا
حيث يسمر الممثلون والفنانون والصحفون ؟ هل يمكن أن
تتناسى بار اللواء وفي أجوائه رنت أصوات محمد هلال ومصنور
فهى ومحجوب ثابت وحفنى محمود ومحمد خالد وأنطون الجميل
وداود بركات ؟

إن تلك المقاهى خليقة بأن تعدّ في طليعة الأسواق الأدبية التي
تذكر بالمربد وعكاظ ، وهى بفضل من تعرف من الكتاب
والخطباء والشعراء والفنانين والمفكرين خليقة بالبقاء ، ففيها
تجرى الطرائف من أطايب الاسمار والأحاديث ، وفيها تحيا فنون
الأدب الرفيع .

وما يصح أن توصف به مقاهى القاهرة ينطبق تمام الانطباق
على مقاهى الاسكندرية ، فهناك القهوة التجارية التي يسمر فيها
أدباء الثغر على ذلك الشاطئ الجميل .

ولاسمار الاسكندرية لون خاص ، فشعراء الاسكندرية هم
اليوم يتفردون بإحياء فن الدعابة الأدبية ، وهى دعابة طريفة يتفق
لها في أحيان قليلة أن تقارب الهجاء ، وليالى الاسكندرية لها في
أنفس القاهريين مكان ، ومنهم من يرحل إلى هناك ليقتضى ليلة أو
ليلتين في الاستماع إلى محاورات الأساتذة عميد اللطيف النشار

وعثمان حلمي وعلى البحر اوى و خليل شيبوب ولا سيما بعد أن
انتقل الدكتور أبوشادى إلى شاطئهم الساحر فأهدى إليه مادة نفيسة
من الجدل العنيف .

هنالك أيها السادة يقع الشعراء بعضهم في بعض ، ويتقارضون
الهجو في المحضر والمغيب بالسنة عذاب فصاح . ومن شمائل أولئك
الشعراء صدق العطف على أدباء القاهرة فهم يلقونهم بالترحيب
ويعتقونهم بأطياب السمك وأطياب الحديث .

ولا بد من الإشارة إلى أن لسماز القهوة التجارية في
الاسكندرية أشباها في القاهرة ، هم السمار الذين يعرفون لجنة
الترجمة والنشر والتأليف ، حيث تطيب النسكته على السنة أحمد أمين
وعبد الحميد العبادى ومحمد عوض ، وحيث ترهف الأذان من أمثال
الأسانذة أحمد زكى وأحمد حسن الزيات .

ولسماز الاسكندرية أشباه غير هؤلاء . وهم سكان البعكوكة
الأرضية بدار السكتب المصرية ، حيث يلتقى الأسانذة محمد المهر اوى
وأحمد رامى وأحمد الزين وعبد الله حبيب .

ولكن هذه البعكوكة نهارية ، فياليت شعرى كيف يصنعون
في رمضان !

أما الأندية الأدبية فهي مشورة في مختلف الحواضر المصرية ،

وأشهرها جمعيات الشبان المسلمين ، وأندية الموظفين ، وهي مختلفة الألوان فمنها ما يَخوض في شؤون المجتمع ، ومنها ما يَخوض في شؤون الأدب ومنها ما يشرح أصول الدين ، وفيها تيارات اجتماعية وسياسية يصعب الكلام عليها في هذا الحديث ، ويكفي أن نذكر أن حياتها الليلية تعتمد على السمر الطريف ، وتهتم في الأغلب بسماع المحاضرات أو الإقبال على ما ينشر المذيع من أغان وأحاديث .

* * *

بقي أن نشير إلى الجرائد الهزلية في مصر ، فلها لون طريف في أيام رمضان .

لقد كان من عادة الناس في مصر أن يختصوا هذا الشهر بنوع من الحلوى اسمه قمر الدين ، وهو دائماً مادة الفكاهة في الجرائد الهزلية ، وقد اتفق مرة أن أرسل أحد الموظفين هدية إلى حضرة صاحب العزة عوض بك إبراهيم وكيل وزارة المعارف ، فعدّها رشوة وأبلغ الأمر إلى النيابة ، فكتب الأستاذ حسين شفيق المصري يقول : إن هذه من أقوى دلائل النزاهة في عوض بك إبراهيم ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الهدية كانت في رمضان وأنها من قمر الدين !

ونشرت إحدى الجرائد عن رجل مشهور أنه تناول الغداء في القناطر الخيرية ، وكان ذلك في رمضان ، فكتب أحد الأدباء في

تأنيبه يقول : ألم تسمع أننا في رمضان ؟ ألم تسمع وحوى وحوى
أيوحه ؟ ألم يطبخوا في بيتكم قمر الدين ؟

ولسكن قمر الدين ، مع طلعتة البهية ، تقلصت دولته ، وحلت
محلها الكنافة ، على وجهها أزكى التحيات ، فمن شاء منكم أن يزور
مصر فليكن ذلك في رمضان ، ليمتع عينيه بمنظر الكنافة ؛ فلها وجه
خمرى جميل !

وقد يكون من الفكاهة أن أحدثكم أن الكنافة تقوم في مصر
بعمل قوميّ جليل ، وإخواننا المسيحيون يدعون كثيراً لتناول
الكنافة مع إخوانهم المسلمين في رمضان ، وأكثرهم يتوهم أن جنة
المسلمين ستكون مملوءة بالكنافة ، وأنا لذلك أرجو أن يهديهم الله
جميعاً للإسلام فيجتمعوا على الكنافة هنا وهناك .

سيداتي وسادتي

تلکم كلمة موجزة عن أسرار رمضان ، فإن راقبكم فيها ونعمت
وإن لم ترقم فاعذروني ، فقد فارقت في مصر أصدقاء أعزاء ، منهم
السيدة كنافه والسيد قمر الدين ، والمرء حين يبعد عن أعزائه تفارقه
بلاغة القلم وفصاحة اللسان !

من صديق الي صديق

أخي الأستاذ مدحت عاصم

أتذكر المثل القديم : واحدة بواحدة جزاء

أنت تذكر هذا المثل ولا ريب ، فلتعرف أني سأجزيك مفاجأة بمفاجأة ، وكلمة مفاجأة كلمة جافية ، ولكنهم اصطلحوا عليها لتؤدي معنى الكلمة الفرنسية (Surprise) تلك الكلمة اللطيفة التي كنت أجد فيها أطيب الجزاء على ما أقدم من الهدايا المعشوقاتي في باريس

والمفاجأة هي أن تكون أول قارئ لهذا الخطاب في جريدة الصباح ، لأن محطة الإذاعة هي أول من يقرأ جريدة الصباح ، وهل نسيت يا شيطان يوم كنتم ترسلون من يترقبها في ميدان الأزهار لتطلعوا قبل سائر الناس على ما يقال فيكم؟ وهل نسيت أنكم مع ذلك لم تنتفعوا أبداً بما يوجهه الناقدون إليكم؟ وهل نسيت أنكم هجرتوني هجراً غير جميل لأنني أغرمت بتعقيبكم في جريدة البلاغ؟

المفاجأة هي أن تقرأ خطاباً لم تكن تنتظره على صفحات الصباح وذلك هو الجزاء على المفاجأة التي روعتني بها في بغداد

وأشهد أني كنت أنزق كل خيال ، وأنشوف إلى كل وهم ،
وأنتظر كل مستحيل ، إلا أن أتلقى في بغداد خطاباً من الفنان
مدحت عاصم ، أخي وصديقي ومولاي

وإنما كان الأمر كذلك لأنني نفضت منك يدي منذ أعوام
طوال . واليوم من هجرك كأف سنة مما تعدون

نفضت يدي منك لأنك طغيت وتمردت ، ونسيت ماقضينا من
الأسفار في الليالي السود والبيض ، حين كان أهلك الأكرمون
لا يعرفون السبيل إلى قلبك المتمرد إلا بشفاعة الدكتور زكي مبارك
أشرف صديق عرفه أهلك فأجوبه ، واطمأنت إلى مروءته تلك
السيدة النبيلة وذلك السيد النبيل ، وأنت تعرف من أعني

وفي خطابك عبارات لا يقولها إلا رجل في مثل كرمك ونبلك
فاسمح لي أن أسجل بطريقة علنية أن روحى كان له تأثير قوى في
الفن القهار الذي تديعه أنامل الفنان مدحت عاصم ، فليس من
القليل أن يكون لروحي فضل على فنان مثلك ، وإني لأعرف أنني
أدخلت البهجة والأريحية على العصر الذي ظهرت فيه ؛ ولما كنتي لن
أجد من يذكر فضلي غير آحاد ، وأنت أولئك الآحاد

فهل أستطيع أن أطمئن إلى أنك لا تبدأ أحيانك بمحطة الإذاعة
قبيل منتصف الليل إلا لأن سهراتنا الوجدانية كانت لا تبدئ
إلا قبيل منتصف الليل ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أني أخطر ببالك حين تمزج
دموعك بالحنانك؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أني كنت مصدر الوحي لأكثر
ماتذيع من الألمان؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أننا سنسمر مرة واحدة بعد الألف
في ذلك المنزل الجميل؟

مدحت - أفي الحق أنك رجعت إلى منزل الأهل؟ أفي الحق
أنك شبعت من الشطط والجوح ورجعت إلى ذلك المنزل الجميل
الذي كانت تظلنا ظلماؤه في غفوات الليل؟

إنك تذكر في خطابك أنك رجعت إلى تلك الحديقة، فهل
هذا صحيح؟

وهل تذكر، يا جاحد، تلك الحديقة؟

هل تذكر كيف كنت أرجوك أن تطفئ الأنوار لتتمتع
بظلام الليل؟

لقد آن الأوان لأحدثك عن السبب، فقد كان يسرني أن تلعب
أنامك على العود في الظلمات لأخفي عنك دموعي، دموع الوجد
الذي يثيره فنك المطول.

ثم جدت أحداث وخطوب نسيتك فيها ونسيتني، إن كان
النسيان يجوز على قلب مثل قلبي، ولعل الأستاذ حسن السندوبي،
الأديب الساخر، لا يزال يذكر أنني أتعبت قدميه في ليلة شاتية

لنصل إلى منزلك ، وما وجدناك ، وقد ظل يسخر مني زمنا غير قليل ، ولعله لا يزال يسخر من سداجتي إلى اليوم !

مدحت ، لقد بدا لك أن تقارن بين فني وبين فنك ، قتي في البيان وفنك في الألحان ، وأنت ترى أنني اجترفت ما وقف في طريقى من حواجز وأسداد ؛ فاسمح لى أن أسجل أنني لم أنتصر وحدى ، وإنما انتصرت معك ، فأنت أيضا من المنتصرين ، على ماتدعيه لنفسك من الخمول ، وهل من القليل أن يبقى مكانك في محطة الإذاعة بضع سنين وهي أخطر وكر من أوكار الدسائس ؟ إن إخوانك - وأنا منهم - أحجموا عن مناصرتك فضيت تشق طريقك بيديك ، وسيذكر عالم الفن ، إن كانت له ذاكرة ، أنك كنت في طليعة النوابغ .

مدحت ، لك في عنقي ديون ، فقد أوحيت إلى قاي كثيرا من المعاني . ولكنى سأجزيك خير الجزاء حين أقدم إليك المذكرات الطريفة التي خطتها يمينك في التشوق إلى أخيك .
وبعد ، فهل أستطيع أن أسألك عن حال الصديق السخيف الذي يسمونه الموسيقار محمد عبد الوهاب ؟ هل أستطيع أن أسألك ما حاله في دنيا غرامه الأثيم ؟

لقد نسي هذا الصديق السخيف فضلى عليه ، ونسى موقفنا فوق بحيرة أنجان ، ونسى أيامنا في باريس وهو يخرج الوردة البيضاء ،

ونسى القصيدة التي نظمها فيه وأنا في القطار من باريس إلى ليون،
ويظن هذا الصديق السخيف أن كسب المال أفضل من كسب
القلوب ، تبت يداه ، ما أشقاه !

هل أستطيع أن أسأل عن صحة المغنية (حياة محمد) التي وعدتها
فأخلفتها وما وعدتني فأخلفتني؟ هل أستطيع أن أسأل عن رباعي
العقاد؟ هل أستطيع أن أسأل عن الفتاة التي تلقي محاضراتها عنكم
بصوت أرق من بغام الأطباء؟

مدحت ، حدثني عن لحيتك ، لعننا الله ، ألا تزال في صحبتك؟
والأستاذ سعيد بك لطفي كيف حاله؟ وعزيز رفعت ، وعلى خليل،
والصديق الغادر عبد الحميد الحديدي ، كيف حال هؤلاء الأعراب؟
وشارع علوي أين يقع؟ وبار اللواء أين يكون؟ وخلدون أين
يجلس؟ وحفني محمود أين يلعب؟ والشناوي أين يغرد؟ وجبريل
أين يمزح؟ وهيكل أين يؤمن؟ وطه حسين أين يشك ويرتاب؟؟
أراني اشتقت إليكم ، وأقسم ما قاذني الشوق إلا إلى ناس هم
مثال الغدر والجحود والعقوق .

صورة آمال....

صديق رئيس تحرير البلاد

تفضلتم فطلبت مني صورة العشماوى بك وصورة كريمته آمال
وأستطيع أن أمن عليكم فأقول إن وقتى لم يكن يتسع لطلب هاتين
الصورتين ، فإنى مشغول جداً ، ويكفى أن تعرفوا أنى أشغل
مطبعتين من كبريات المطابع فى بغداد ، ولكنى صحفى قديم ، صحفى
يعرف حقوق زملاء ، ويرى من واجبه أن يعينهم على حقوق
صاحبة الجلالة كلما دعاه الواجب . وأنا أقدم إليكم صورة العشماوى
بك ، أما كريمته آمال فقد رفضت إعطاء صورتها بقوة وعنف ،
ودعاها أبوها إلى مطاوعتى فلم تجب ، وتلطف فقال لها إن الدكتور
زكى مبارك مصرى كبير تجب طاعته فلم تطع ، وأصرت على أنها
فتاة لا ترضى عن نشر صورتها فى الجرائد ولو دعاها إلى ذلك
ألف رجل من أمثال الدكتور زكى مبارك ، فما رأيك يا صديقى
إذا قدمت إليك من تلك الفتاة صورة قلبية هى أدق وأصدق من
الصورة الشمسية ، لتعرف أن الأدباء لا يسلم من «خيرهم» مخلوق ؟
أنا أعرف أنها ستغتاظ ، ولكن ماذا يضيرنى من ذلك ؟ هل
تستطيع إفساد ما بينى وبين أبيها ؟ هيهات ! هل يضع الحظ السعيد

في امتلاك منطقة من قلبها الخفاق ، وكيف وهي لا تزال طفلة وأنا
أو من بأن المرأة لا تستطيع أن تنقل القلب من مكان إلى مكان إلا
بعد الثلاثين ؟ ،

هاك ، يا صديقي ، صورة الأنسة آمال :

فتاة غريرة بكلية الحقوق ، لها وجه أسمر يشهد بأن السمرة قد
تكون أكثر جاذبية من البياض ، ولها لسان عذب يرشحها لأن
تكون أفصح الفتيات ، ولها فم يضمن كنزاً ثميناً ، ففيه ثنايا أولوية
قليلة الأمثال ، وبالرغم مني أن أصرح بأني لا أملك التغزل بتلك الثنايا
اللؤلؤية ، لأن والد تلك الفتاة من أساتذتي ، وللأساتذة على
تلاميذهم حقوق ، وإن كنت لا أدري كيف يكون التغزل من
المحرمات .

والآنسة آمال على جانب عظيم من الذكاء ، وما يسرني أن
أشهد لها بذلك ، ولكنني مصور أمين .

وهي تجلس على المائدة في المكان الذي يقابل مكان أبيها فلا
تدري لمن الصدر : أهو الأستاذ العشماوي أم للآنسة آمال !
ولو كان أبوها من أهل الغطرسة لقلت إن المقادير تنقم منه
فتحكم في طفلة لا تملك غير صباحة الوجه وسلامة الذوق وقوة
الذكاء ، ولكنه رجل يمثل الأدب وطيبة القلب ، فكيف جاز أن
تتحكم فيه تلك الطفلة السمراء ؟ .

ومن خصائص تلك الفتاة أنها تحب أباه حباً شديداً ، ولكن محبتها إياه تتمثل في التمرد والعصيان ، فهل تدرك بفطرتها أنه كان من عبيد الجمال في صباه ؟ .

ولهذه الطفلة التي أبغضها غرام عجيب بتعقب آثار الكتاب والشعراء والمؤلفين ، وقد أرغمتني ساعها الله على أن أقدم إليها جميع الجرائد العراقية ، فتكلفت في ذلك ما تكلفت ، وكنت أحسب أنني سأشغلها يوماً أو يومين ثم هالني أن تستوعب ذلك المحصول كله في نصف ساعة ، وأن ترهقني في بقية السهرة بنقد صحافة العراق . والآنسة آمال نحيفة جداً ، وربما كان السبب في ذلك أنها قضت أربعاً وعشرين ساعة في طريقها من الشام إلى العراق فسرقت نحاقة الجسم من غزلان الصحراء .

والعجيب من أمر هذه الآنسة أن تكون من أعضاء المؤتمر الطبي ، فهل رأيتم أغرب من ذلك ؟ .
فإذا تريد أن تصنع ؟ هل تشترك في الطب للأكباد والقلوب ؟ .
أحب أن أعرف ماذا تصنع هذه الفتاة في المؤتمر الطبي وقد كوت كبدى ، كوته بالغيظ لا بالحب ، فلست من المجانين حتى تفتنني فتاة لا تملك غير قوة الذكاء وحلاوة الحديث ، وإن شهدت ملاحظتها بأنها ستكون من غرائب الجمال .

أما بعد فقد آذنتي تلك الآنسة أعنف إيذاء ، حين رفضت أن

تعطيني صورتها . فلتعرف الآن أنى أكرم منها وأسمح لأنى أقدم
إليها صورتها بلا ثمن ، وكل ما أرجوه أن تغتابنى فى حضرة أبيها ،
لأنى أحب أن أذكر عنده ولو بملام
آمال ، آمال .

لا تغضبى ولا تعبى ، فلن تفرغى من دروسك العالية فى كلية
الحقوق ولن تبلغى مبالغ النساء حتى يكون اسمى (بابا زكى) وأنا
منذ اليوم (بابا) له زوجة وخمسة أبناء .

فيا أيتها الفتاة الغالية ، ويا قرة العين لرجل هو أكرم أساتذتى وأعز
أصدقائى ، تذكرينى حين تعودين إلى الجامعة المصرية ، تذكرى أنى
أحب أن أقبل تلك الجدران ، وأنى أتشهى أن أحل عيني بتراب
الجيزة والزمالك ، تذكرى يا آمال أن الدمع يفيض من عيني كلما
تذكرت أن لى طفلة لها وجه مثل وجهك الجذاب ، ولها جبين
مثل جبينك المشرق ، وفى شمائلها عناد مثل عنادك المحبوب ، تذكرى
أيتها الفتاة أتى رأيت وجه مصر الغالية حين رأيت وجهك الغالى ،
تذكرى أتى عذرت أباك حين رأيت يعطيك طاعة المحب لمن يحب ،
فلى أبناء كنت عند هواهم فى جميع الأحوال .

اعذرينى أيتها الأنسة النبيلة إذا قدمت صورتك لجريدة عراقية
فمن الخير للمرء أو المرأة أن يذكر ولو بالشر فى أرض العراق
حفظك الله لو الديك ، ورعى إخوتك الأعزاء ، والسلام .

دروس الأدب

في المعاهد العالية

المعروف أن المعاهد العالية للتخصص : فهذا معهد يخرج الأطباء ، وذلك معهد يخرج الرياضيين والمهندسين ؛ وذلك معهد يخرج رجال الأدب أو رجال التشريع .

والتخصص من مزايا هذا الزمان ، ومن آفات هذا الزمان هو من المزايا لأنه يقصر طوائف من الناس على طوائف من العلوم ، فنعرف إلى من تتوجه ومع من تتحدث ، فيذهب من يشكو الرمد إلى طبيب العيون ، ويمضى مهيبض الساق إلى الجراح ، ويتوجه الممعود إلى الطبيب المختص بالأمراض الباطنية ، وكذلك يفعل من تخرجه معضلة هندسية ، أو مشكلة قانونية .

وهو من الآفات لأنه يورث الناس ضيق الذهن ، وفقر العقل ونمود الإحساس ، فالمهندس لا يرى من واجبه أبداً أن يفكر في تهذيب ذوقه بالنظر في بعض المؤلفات الأدبية أو الفنية ، والمشرع لا يرى من واجبه أبداً أن يحرص على تثقيف عقله بالنظر في بعض المصنفات الرياضية أو الطبية ، والأديب يرى أنه لم يخلق إلا لدرس آثار الشعراء والكتابات والوقوف على ألوان الأساليب .

وقد اتهم المتخصصون فرصة الغفلة الفاشية في هذا العهد فأعفوا
انفسهم من كل ما يعود بالنفع على الذهن والعقل والذرق ، فصار
الاديب يجالس الطبيب فلا يحس أنه يخاطب رجلا من أهل هذه
الأرض ، وإنما يخاطب مخلوقا من سكان المريخ ، وصار أستاذ
الادب يذكر على طلابه أن يوجهوا إليه سؤالا في مشكلة نحوية
أو صرفية ، لأنه فيما يزعم غير مسئول عن علوم المبرد والسكسائي
وسيبويه ، وإنما هو رجل تخصص في درس آثار الكتاب
والشعراء والخطباء ، وصار المحامي أو القاضي لا يسوءه أن يجهل
الأوليات من المسائل الأدبية أو العلمية .

* * *

ذلك تصوير لمزايا التخصص ومساويه ، وتصوير لأحوال
التخصصين في هذا الزمان .

وأقول بصراحة إنني تأثر على التخصص الذي يصل بأصحابه إلى
ذلك الحد من ضيق العقل ، وقد حملت على هذا الضرب من
التخصص أعنف الحرب ، وكلفت نفسي ما تطيق وفوق ما تطيق في
الطواف بعلوم كثيرة كان لها أثر ظاهر فيما أخرجت من المؤلفات
الأدبية والفلسفية ، وأحب أن يكون طلاب العلم والادب في هذا
الزمن من الثائرين على الإسراف في فهم التخصص ومن المقبلين
على المشاركة في جميع الفنون ، وإليهم يساق البيان :

كان أقطاب العلماء في الزمن القديم يجهلون التخصص ، أغنى
أنهم لهم يكونوا يقصدون إليه قصداً ، وإنما كانوا ينتمون إليه وفقاً
لوحى الفطرة والطبع ، فالعلماء الخالدون من أمثال أرسطاطاليس
وأفلاطون وابن سينا والفارابي وابن رشد والجاحظ وابن خلدون
والقلقشندي ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش ، هؤلاء العلماء في
التاريخ القديم والمتوسط والحديث لم يكونوا يعرفون التخصص ،
وإنما كانوا يفهمون أن من واجبهم أن يطلعوا على ما يمكن
الاطلاع عليه من المعارف الإنسانية .

ولا يجهل أحد أن أمثال أولئك العلماء كانوا على جانب عظيم
من التفوق والبصر بحقائق الحياة .

وقد أشرت إلى أنهم اتهموا إلى التخصص بوحى الفطرة والطبع
ولم يسمحوا لأذهانهم وعقولهم بأن تنصرف عمداً عما تتطلع إليه
الأذهان والعقول ، فكان لثقافتهم الواسعة أثر فيما تخصصوا فيه ،
وكان اطلاعهم الشامل يفتح لهم فيما تخصصوا فيه أبواباً للبراعة
والسبق والتفوق .

وهل يستطيع المتحذلقون من شبان اليوم أن يفقهوا كيف
كانت ثقافة ديكارت وباسكال ؟

وهل فيهم من يدرك كيف كانت ثقافة سبنسر أو كيف كانت
معارف أناتول فرانس ؟

وما أدعو إليه اليوم كنا حاولناه مرة في الجامعة المصرية ، ثم
أخفقنا بفضل الخذلقة التي تغلب على شبان هذه الأيام ، فقد كان
تقرر أن لا يدخل الطالب كلية الحقوق إلا بعد أن يمضى سنتين في
كلية الآداب ، وأن لا يدخل الطالب كلية الطب إلا بعد أن يمضى
سنة في كلية العلوم ، وسارت الجامعة المصرية على هذا النظام أعواماً
قليلة ، ظهر أثرها في طوائف من المحامين والأطباء . ثم أسرف الطلبة
في الصرخ فأعفتهم الجامعة من ذلك النظام المفيد ، ومن الواضح
أن ذلك النظام كان في جوهره حرباً على الإسراف في فهم
التخصص ، فقد كانت الجامعة تفهم أن طالب الحقوق لا يمكن أن
يربح في فهم أسرار القوانين إلا إن أمضى سنتين في كلية الآداب
يدرس فيهما علوم اللغة العربية وعلم النفس وعلم الأخلاق ويتعمق
بعض التعمق في اللغات الحية وفي الجغرافيا والتاريخ
وكانت الجامعة تفهم أن طالب الطب لا يعتمد عليه إلا إن
أمضى سنة في كلية العلوم يدرس فيها الطبيعة والكيمياء والرياضة
درس الفهم والتثبت ليسكون في المستقبل من الأطباء العلماء .

* * *

ونحن اليوم نحاول أن نضع للحياة العلمية في العراق أصولاً من
التقاليد الصالحات ، فهل ترون من الخير أن نحقق ما عجزت عن
تحقيقه الجامعة المصرية ؟

ما الذي يمنع من ذلك؟ أفى الحق أن وزارة المعارف العراقية
قد تلابن الطلبة كما صنعت وزارة المعارف المصرية؟

ولكن إلى أن يتحقق ذلك الغرض المنشود أرى أن يفرض
درس الأدب العربي على جميع الطلاب في المعاهد العالية، وإليكم
موجبات هذا الاقتراح

أولاً - نحن في العراق نحاول جهد الطاقة أن نعيد مجد
الأسلاف في حيواتهم العلمية والأدبية والفلسفية، و كان أسلافنا
جميعاً معروفين بالتفوق في اللغة العربية. فما كان فيهم طبيب ولا
مهندس ولا مشرع إلا وله آثار نظمية وثرية تشهد ببراعته في
الأدب والبيان.

ثانياً - نحن نحاول نقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية: وهذا
يوجب أن يكون الرياضيون والمهندسون والمشرعون والأطباء
قادرين أتم القدرة على التعبير باللغة العربية تعبيراً يذكّر بـ ابن سينا
وابن رشد وابن البيطار والغزالي والكمال بن الهمام وإمام الحرمين.

ثالثاً - سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مدرسين في
المدارس الثانوية والمعاهد العالية، وهؤلاء لا مفرّ لهم من أن
يشعروا تلاميذهم بأنهم يتكلمون لغتهم العلمية، كما يتكلم المدرسون
الأوروبيون لغتهم العلمية.

رابعاً - سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مسئولين عن تثقيف الجمهور ، وهذا الجمهور لغته العربية ، وهو في بعض أحواله يفهم لغته بأدق مما يفهمها المتحدثون من شبان هذا الزمان .

* * *

أما بعد فانه من العيب أن يقع ما عبتة مرة على أستاذ مصرى ألف كتابا في علم النفس فكانت مراجعه كلها إنجليزية ، ولم يشر مرة واحدة إلى رسائل إخوان الصفاء ، مع أن في تلك الرسائل كثيرا من أمهات المسائل في علم النفس وعلم الأخلاق .

ومن العيب أن يقع ما سمعت من أن مكتبة كلية الحقوق في بغداد ليس فيها نسخة من شرح فتح القدير على الهداية ، ومن العيب أن يستغرب بعض الطلبة في دار المعلمين العالية أن أكلفه درس مسألة فقهية ، مع أن الفقه جانب من الأدب يصور مشكلات المجتمع في الحواضر الإسلامية .

ومن هذا يرى القراء أن أفق الأدب أوسع مما يظنون ، وأنه واجب كل الوجوب في تثقيف جميع الطلاب .

الفن المصرى فى العراق

صديق

أقدم إليك أصدق التحيات ، وأذكر بالحمد الجزيل تلك التحية النبيلة يوم حضرت ومعك جميع الأسانذة المحررين بالصباح لتوديعي بمحطة القاهرة يوم الرحيل إلى العراق .

وبعد فقد كان فى النية أن أحدثكم عن معركة أدبية أثارها مجلة الصباح فى بيروت ولكنى اليوم أسارع فأحدثكم عن الفن المصرى فى العراق ، وأوجل الحديث عن تلك المعركة إلى حين .

وأرجو ألا تدهش حين ترانى أتحدث عن الفن المصرى بروح العطف ، فقد علمتني الغربة أشياء كثيرة ، أهمها التلطف فى الحديث عن المواطنين الأعزاء ، وهل تصدق أن اسم الدكتور طه حسين لايجرى على لسانى فى بغداد إلا معطراً بأطيب آيات الشاء ؟ هل تصدق أنى أقول فى بغداد إن الدكتور طه حسين أديب عظيم وإنه دان الأدب العربى أثقل الدين ؟

ذلك أدب تعلمته فى الاغتراب ، فقد رأيت أن الرجل الكريم لا يلقى به أن يذكر مواطنيه وهو غريب إلا بالخير ، ولا ينبغى له أن يتحدث عن قومه بغير الشاء .

وأعود فأقول : إن أغاني أم كلثوم هي اليوم أجمل زاد يتزود به
أهل الوجدان في العراق ، فحيثما حللت ، وحيثما تلفت ، سمعت
صوت أم كلثوم ، فهذه المطربة المصرية هي في هذه الأيام الريحانة
الندية التي تشتاقها الأرواح والقلوب في جميع أرجاء العراق .

وقد جلسنا نسمر منذ ليال مع الأستاذ فؤاد جميل سكرتير
الإذاعة بوزارة المعارف فقال :

سنفاجئكم بعد ليلتين بأعجوبة ترتاح لها النفوس والأذواق !
فقلت : وما عسى أن تكون تلك المفاجأة يا صاح ؟
فقال : ستكون السهرة كلها في إذاعة أغاني نشيد الأمل للآنسة
أم كلثوم .

وكان خبراً ساراً فرح به السامرون .

فإن سألتكم : وما هي الأغاني الكلتومية التي يطرب لها العراقيون
في هذه الأيام ؟

فإننا نجيب بأن لأم كلثوم صوتين يذاعان مرات كثيرة في كل
يوم ، أما الصوت الأول فهو الدور المحبوب :

«على بلد المحبوب وديني»

وهذا الدور صار من الأدوار الشعبية في العراق ، فهو على

السنة الفتيان والفتيات وعلى السنة الصناع والتلاميذ، وهو ملهامة الشباب والكهول في بغداد، فإذا رأيت ناساً متجمهرين أمام قهوة أو سينما أو مرقص فاعلم أنهم لم يتجمعوا هناك إلا لأن أم كلثوم تقول في صوت ناعم حزين :

يامسافر على بحر النيل أنا ليته في مصر خليل

من حبه ما بنام الليل

أما الصوت الثاني فهو دور «إفرح يا قلبي»

وأهل العراق يعجبون بهذه المعاني :

«أقطف معاه زهر الحياه مادام هو الك وافق هو اه»

وأنا أيضاً معجب بهذه المعاني ، ولكن أين الأحباب ؟ وأين

أصفياء الروح الحزين ؟

أنتقل بعد هذا إلى لون آخر من الفن المصرى وهو الفن السينمائي ، ففي هذه الأيام تعرض في سينما الحمراء رواية المجد الخالد وهو الفيلم الناطق الذى أخرجه الممثل يوسف وهبى ، فهل تصدقون أن هذا الشريط أسر مشاعر البغداديين ، وهل تصدقون أن فيهم من يقترح على الحكومة المصرية أن تخرج منه نسخة أوروبية على نفقاتها ثم تذيعه في العالمين ليرى أهل المشارق والمغرب كيف يؤمن الناس بالوطنية في أرض الفراعين ؟

وقد نشرت جريدة البلاد مقالا لكاتب اسمه إبراهيم المعروف

قال فيه :

« عرضت أمس هذه الرواية الطريفة ، السامية المعنى ، وبالرغم من سعة الصالة فقد غصت بالمتفرجين من كافة الطبقات ، فبلغ الازدحام أشده ، و كنت ترى الجماهير الغفيرة تزدهم على أبواب الحمراء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال . أما موضوع الرواية فلا أريد أن أتحدث عنه ، إذ يكفي أن تكون هذه الرواية من تأليف نابغة التمثيل العظيم الأستاذ يوسف وهبي ، ولا إخال أحداً يجهل هذه الشخصية الفذة التي تجتمع فيها كافة عناصر الفن والعبقرية الخالدة . . . فنشكر إدارة الحمراء كل الشكر لجلبها أمثال هذا الفيلم الرائع الذي يمكن الاستفادة منه لما فيه من العظات والعبرة والدروس الوطنية العالية » .

تلك كلمة قصيرة عن الفن المصرى فى العراق ، سنتبعها بأمثالها
كلما لاحت فرصة ، والسلام .

زكى مبارك في لبنان

صديق

تحيتي إليك وإلى شارع الهرم ومصر الجديدة والزمالك
وشارع فؤاد.

وبعد فقد كانت جريدة المكشوف نشرت كلمة طيبة تحت
عنوان «الدكتور زكى مبارك في طريقه إلى العراق» ثم لخصها
الكتاب المفضل الذي يحرر الصفحة الأدبية والاجتماعية في
الصباح، ولكن ظهر أن تاخيص تلك الكلمة لم يرض كاتبها
الأول فاندفع بهجم على الصباح وعلى الدكتور زكى مبارك في
جريدة المكشوف بأسلوب غير مقبول.

فاسمحوا لي وأنا محور هذا الجدل أن أزن المسألة بميزانها
الصحيح فأقول :

لم تكن ظروفى في مصر تشجعنى على السفر إلى العراق فقد
كنت شرعت فى طبع كتاب التصوف الإسلامى، ولكن أصدقائى
فى مصر خوفونى عواقب الرضى، وقالوا إن خصومك
سيزعمون أنك غير صادق فى الدعوة إلى الأخوة العربية، فهاج فى
نفسى غرام العروبة وأجبت الرغبة النبيلة التى أعلنتها الحكومة

العراقية ، ونظرت فرأيت زملائي من الأساتذة المصريين يهرون
الوصول إلى العراق من أقرب طريق فأيدت مرافقتهم وصممت على
المرور بالبقاع الكريمة : فلسطين وسورية ولبنان .

ولما نزلت بيروت قضى الحظ السعيد أن أرى أديبين فاضلين
هما روجي فيصل وأحمد شبلي ، فلقيت منهما كرماً لا يستغرب من
أهل لبنان ، ثم مضيت فسلمت على من استطعت التسليم عليه من
رجال القلم والبيان .

وما كدت أفضى أسبوعاً واحداً في بغداد حتى تلقيت نسخة
من جريدة المكشوف وفيها كلمة طيبة عن الدكتور زكي مبارك ،
وفي ذيلها عنوان الكاتب الأديب ، ومضت أسابيع وجاء عيد
الفطر فجاءتني تحية كريمة من ذلك الكاتب ، فأخذت أستعد لكتابة
خطاب أشكر له فيه ذلك الفضل الذي لا يستغرب من أهل لبنان .
وقبل أن أضع الخطاب في صندوق البريد تلقيت نسخة جديدة
من جريدة المكشوف فرأيت ذلك الكاتب نفسه يهجوني ويهجو
مجلة الصباح ، مع أنه تلقاني في بيروت على غير معرفة سابقة
بأحسن آيات الترحيب .

والآن أسأل نفسي : أفى الحق أن الذين يهجونني في لبنان هم
أنفسهم الذين أكرموني في لبنان؟ وهل فسدت الدنيا إلى هذا الحد
فينتقل المرء من الصداقة إلى العداوة في أسبوعين ؟

أفي الحق أن المودة في لبنان مودة عابرة كسحابة الصيف ؟ أفي
الحق أن الأديب الذي تلقاني مرحباً في جريدة المكشوف هو
نفسه الذي نشر الهجوم على زكي مبارك ومجلة الرسالة ومجلة
الصباح ؟

اسمع يا صديقي

إن هذه التقلبات تغزو قلوبنا بالحسرة على ما صارت إليه آداب
الناس في البلاد العربية ، ولكن لا تحزن ولا تجزع ، فأولئك الناس
لا يمثلون البلاد العربية ، وإنما يمثلون أشخاصهم الفاتية ، وقد
لقيت في بغداد رجلاً كادوا ينسوتني وطني وأهلي ، وذلك الكاتب
نفسه يعترف بأن الصباح له في بيروت قراء مدمنون ، والإدمان
على قراءة المجلات المصرية هو في ذاته تمجيد للبلاد المصرية .

اسمع يا صديقي

إن مصر تنفق ألوف الدنانير في كل أسبوع لنشر اللغة العربية
فهي تتحمل تضحيات في سبيل العروبة يعرفها كرام الرجال ، فلم
يبق إلا المغرم الهين وهو أن نحتمل الأذى في هذه السبيل .

وأنا بالرغم من كل ما حدث أذكر الذين لقيتهم في لبنان بكل
جميل ، رعاية لعواطف صادقة عانيت في سبيلها ما عانيت ، ورعاية
لإخوان أعزاء يسوءهم ألا أكون من المحبين لذلك البلد الجميل ،
والسلام عليهم وعليك من ضيف العراق (٧)

الجامعة العراقية

لقد آن للمفكرين في العراق أن يسألوا أنفسهم عما صنعوا في
سبيل الجامعة العراقية ، فإني أخشى أن يطول أمد الزيث
والتسويق فتمر أعوام وأعوام قبل أن يتحقق هذا المشروع الجليل
ولقد يكون عجباً أن يوجد ناس يحتاجون إلى من يقنعهم
بوجوب إنشاء جامعة في بغداد ، فهذا أمر كان يثير الجدل في مصر
منذ خمس وثلاثين سنة ، ومعاذ الأدب أن يثور الجدل حوله في
العراق بعد أن تمتع بالاستقلال

ولكن الأعبى أن لا تجد هذه الحقيقة على وضوحها من يتحمس
لها تحمسا قويا فينقلها من عالم الفكر إلى عالم الوجود
الأعجب هو أن يصبر ناس على حرمان بغداد من حظ أدبي تتمتع
به جميع العواصم في العصر الحديث .

قد تقولون إن الجامعة العراقية موجودة بالفعل ، بدليل ما في بغداد
من المعاهد العالية ، وأنا لا أنكر ذلك . ولكني أؤكد أن الصورة
التي أنشدها تختلف عن الصورة الموجودة أشد الاختلاف .
وإليك البيان :

عندنا مثلا دار المعلمين العالية ، وهي معهد عال بالتأكيد ، ولكن

شخصيتها ستقوى وتستفحل حين تصبح كلية من كليات الجامعة العراقية، وستصبح أيضاً في أمان من التقلبات، فلا تكون مرهونة بإعداد من نحتاج إلى إعدادهم من المدرسين فتفتح مرة وتغلق مرة وفقاً للظروف، وإنما تظل كلية ثابتة تجاهد في سبيل الآداب والعلوم والفنون.

وستغير أيضاً نفسيات الطلاب، فلن يكونوا كالطلبة الذين نعرف وتعرفون، لن يكون همهم أن يصاحبونا ثلاث سنين محدودة المواقيت ليظفروا بمناصب التدريس في المدارس الثانوية، ثم يذهب نشاطهم العقلي فلا يكون فيهم باحثون ومؤلفون.

نريد إنشاء الجامعة العراقية لتغيير هذه النفسيات، فقد أصبح من الواجب أن يفهم أبناؤنا أن التعليم العالي ترخص في سبيله السنون الطوال، أصبح من الواجب أن نفهم جميعاً أنه لا مفر من أن يكون عندنا مئات من الشبان المثقفين ثقافة عميقة بحيث نستطيع أن ننتفع وننفع بتبادل الأساتذة مع كبار الجامعات

في العراق اليوم عدد من الرجال الذين كثرنا بأنفسهم، ولكن هؤلاء في الأغلب يشغلون مناصب إدارية تحول بينهم وبين الانقطاع للتدريس والتأليف، وهم قد نشأوا في جيل غير هذا الجيل، نشأوا في زمان يعرف قيمة اللذة العقلية، ولن يسمح الدهر بوجود

نظائرهم مرة ثانية ، لأن المغانم المادية صارت أكبر ما يتطلع إليه
شبان هذا الزمان .

فلا بد من التفكير الجدى في تهيئة جو جديد تنفس فيه المطامع
العقلية والأدبية ، لا بد من فتح آفاق جديدة تنسم هواءها عزائم
الشبان الذين يسرهم أن يكونوا من أقطاب العلم والبيان .

إن العراق لا ينبغي له أن يصبر طويلاً على القناعة العقلية التي
يعيش في ظلها شبان هذه الأيام ، إن العراق سيتذكر دائماً أنه
كان في طليعة الأمم التي أحيت العلوم والآداب والفنون ، وسيطالب
أبناءه بأن يرفعوا رايته بين رايات الأمم التي تواجه العصر الحديث
بما هو أهله من القوة والطرافة في المذاهب والآراء .

ولكن كيف ننشئ الجامعة العراقية لنحسن إنشاء الجيل الجديد؟
يخيل إلى أننا لن نواجه المصاعب التي واجهتها مصر حين أنشأت
الجامعة المصرية ، فقد كان الجمهور في مصر سنة ١٩٠٦ ينقسم إلى
فريقين يقال لأحدهما أمة ولثانيهما حكومة ، وكانت حكومات تلك
العهود تراعى ذوق الاحتلال ، والاحتلال لم يكن يسره أن يكون
في مصر جامعة ، وكان يخشى أن تنشأ طوائف من المزودين بالثقافة
العالية ، وهذا الصنف من الشبان يكون شوكة تحز الاحتلال
وقد فطن الفريق الذي يمثل الأمة إلى هذه الحقيقة فأعلن بأسه من
الحكومة ، ودعا الجمهور إلى الاكتتاب العام لإنشاء جامعة مصرية ،

فلم تمض غير أشهر معدودات حتى صارت فكرة الجامعة المصرية حقيقة واقعية تلمسها الأيدي وتراها العيون .

وقد أتعب المحتلون أنفسهم في حرب الجامعة المصرية ، وتقولوا عليها الأقاويل ، ولكن الجامعة ظلت تكافح حتى انتصرت وعاد خصومها بغنيمة القنوط .

فهل حالنا اليوم في العراق كحال إخواننا المصريين في سنة ١٩٠٦ ؟ ليس في العراق اليوم فريق يقال له أمة وفريق يقال له حكومة ، وإنما هو كتلة واحدة بحيث يستوى الحاكم والمحكوم في التسابق إلى خدمة البلاد .

معنى هذا الكلام أيها القراء : أننا ننتظر أن تكون الحكومة هي القوة التي تنتظر منها المبادرة إلى إنشاء الجامعة العراقية ، وستكون الحكومة بمعونة الله عند ظنكم الجميل

ولكنني أرجو أن تسارع الأمة إلى معاونة الحكومة ، أرجو أن يكون للنواب والأعيان وكبار الملاك والتجار والموسرين يد مشكورة في تأسيس الجامعة العراقية ، أرجو أن يمد الجمهور يده الكريمة لينفخ في هذا المشروع روح الحياة فإنه يحتاج إلى كثير من الأموال

وإني لموقن بأن في أرجاء العراق نفوساً تتطلع إلى المجد ، وهذه فرصة نفيسة يجب اغتنامها ، فليس من القليل أن تسجل أسماء

المتبرعين في كتاب ذهبي يصبح على الزمن من أشرف وثائق التاريخ
والجمهور الذي أدعوه إلى الاكتتاب لإنشاء الجامعة العراقية
يدخل فيه الوزراء والموظفون ، لأنهم لا يمثلون الحكومة إلا في
دوائهم ومكاتبتهم ، وهم بعد ذلك من صميم الشعب الذي وثق فيهم
وأسند إليهم القيام بجلائل الأعمال
فما رأيكم فيما أقترح أيها الصحفيون ؟

ما رأيكم فيمن يدعوكم لنصرة الوطن الغالي ، الوطن الذي تعود
منكم البر والوفاء ، الوطن الذي يعرف أن الصحافة هي قلبه النابض
ولسانه المبين ؟

هل أرجو أن يكون للصحافة الفضل الأول في إنشاء الجامعة
العراقية ؟

هل أرجو أن تدعوا الجمهور إلى الاكتتاب العام بحيث تستطيع
الحكومة أن تبني للجامعة داراً عالية الشرفات تذكر بدار الجامعة
المصرية ؟

أيها الصحفيون الشرفاء

أنا لا أطلبكم بعمل مرهق ، وإنما أرجوكم أن تشغلوا أقلامكم
بهذه القضية شهرين اثنين ، فإن فعلتم - وستفعلون - فستضعون
الأساس للمنافسات العلمية والأدبية والتشريعية بين جامعة القاهرة

وجامعة بغداد ، وقد آن أن يعرف الجمهور أن المناقسة العلوية هي
السناد الوحيد الذي تنهض به المعارف العربية

أيها الزملاء

تذكروا أن الجامعات ليست من أعمال الحكومات وإنما هي من
أعمال الشعوب ، فادعوا قراءكم وجماهيركم إلى تقديم الهبات والأوقاف
لمشروع الجامعة العراقية ، حتى يقال إن الأمة سبقت الحكومة ، فإن
الحكومات لا تسبق الأمم إلا في عصور الضعف ، ومعاذ الله أن
يكون أهل العراق من الضعفاء

أيها الزملاء

أدعوكم إلى المبادرة لمناصرة هذا المشروع الجليل ، وأنشرف
بتقديم خمسة دنانير تكون فاتحة مباركة إن شاء الله لقوائم
الاكتتاب

أيها الزملاء

هناك تردد في إنشاء الجامعة ، لأن ناساً يقولون بوجوب التفكير
في تعميم التعليم الابتدائي قبل إنشاء الجامعة ، وأقول بصراحة إن
الأمم لا ترقى بفضل انعدام الأمية وشيوع القراءة والكتابة ، وإنما
ترقى الأمم حين توجد فيها صفوف متميزة تتفوق في العلوم والآداب
والفنون . وكيف يمكن أن يكون انعدام الأمية هو الشاهد على

تقدم الشعوب ونحن نعرف أن هناك ملايين يقرأون ويكتبون
ثم تمر الأعرام وهم غافلون لا يطلعون على شيء؟

إنما تنهض الشعوب حين يكون فيها مئات لا ملايين يسايرون
روح التقدم في الشرق والغرب ويقودون بلادهم إلى التفوق
والسبق في الميادين العلمية والاقتصادية والاجتماعية

إن الغرض من هذا الكتاب هو بناء دار الجامعة العراقية ،
ليشعر الشعب بأنه استطاع أن يقيم شاهداً على صلاحيته لحياة
الفكر والعبقرية، ويومئذ لا ترى الحكومة بدأماً استصدار مرسوم
ملكى بإنشاء الجامعة وتكوين ما يحتاج إليه العراق من مختلف الكليات

أيها الزملاء

إن العراق يفيض بالشعر، ولكن هناك قصيدة نحب أن نسمعها
في العراق، قصيدة كالتى سمعها أهل مصر منذ أكثر من ثلاثين عاماً،
حين تقدمت الأميرة فاطمة هانم إسماعيل نخلت جمع حلينها وقدمتها
هدية لبناء الجامعة المصرية، ومن المؤكد أنكم ستجدون في العراق
قصائد من هذا النوع، ستجدون نديلات يقدمن حلين لبناء
الجامعة العراقية، وستجدون من أعيان الألوية رجالاً كرماء
يزينون صدر بغداد بدار عظيمة تكون ملاذ العقول في عاصمة
الرشيد.

أخت بغداد والاستاذ محمود عزمي

صديقي

نشرت مجلة الدنيا كلمة طريفة عن إصابة الأستاذ محمود عزمي بأخت بغداد، وأخت بغداد الطريفة اللطيفة هي قرحة تترك بالجسم وسما طريفا لطيفا يتميز به أهل العراق .

وقد شاء صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي أن يداعبني في كلمته الطريفة فقال :

«وبقي دور صديقنا الدكتور زكي مبارك ، ولا بد أن يكون له نصيب إن شاء الله من « أخت بغداد » وأغلب ظني أن لدغته لن تكون إلا من أثنى ، لأنه شاعر وله شهرة في الغزل بالجنس اللطيف تحبب هذا الجنس فيه ولو كان من البعوض ، .

ولكن إصابة الأستاذ محمود عزمي بأخت بغداد لها تاريخ يستحق التسجيل . وإليك البيان :

كان طلبة كلية الحقوق في بغداد أقاموا حفلة تكريم للكشافة السورية ، وفي تلك الحفلة أقيمت خطبة ، فلما وقف الأستاذ عزمي ليلقي كلمة الختام نوه بخصائص الحفلة فقال : « وتمتاز هذه الحفلة

بأنها أول حفلة للشباب اندس فيها خطيب كهل هو الدكتور زكي مبارك . .

فتمتد عليه ، وانتظرت الفرصة للانتقام ، وأنا فيما يظهر رجل

حقود !!

وبعد أسابيع أقام لي أفاضل الأدباء في بغداد حفلة تكريم ،
وشاء كرم الأستاذ عزمي أن يشرفني بخطبة يلقيها في ذلك الاحتفال .
ورأيت الفرصة قد سنحت للانتقام منه بلباقة سحرية فقلت
مامعناه :

وأرجو أن يعذرني أهل العراق إذا عجزت عن الوصول إلى
قلوبهم على نحو ما صنع الأساتذة المصريون ، فهم أوفر مني علما
وأدبا ، وفيهم رجل سبقني إلى الدنيا بأكثر من خمسين عاما ، وهو
الأستاذ محمود عزمي . .

وفي اليوم التالي نشرت خطبتي بجريدة البلاد ، وصدق أهل
العراق أن الدكتور عزمي يكبرني بخمسين عاما ، ولم يروا في هذا
ما يوجب الاستغراب ، لأن الدكتور عزمي أشهر مني ، وأقدم مني ،
وأنا أستاذ وهو عميد .

وبعد أيام من ذلك التاريخ كنا مدعوين لتناول الشاي عند سعادة
الأستاذ ساطع الحصري وكان في المجلس معالي الأستاذ رستم
حيدر ، وجرت بيني وبين الأستاذ عزمي مناقشة قلت فيها بترفق :

من واجبي يا سعادة الأستاذ أن أتلف معك رعاية لسنك ١١ .
و كانت دعاية ثقيلة توجع منها معالي الأستاذ رستم حيدر ، لأنه
من سن الأستاذ عزمي .

* * *

ثم شاءت المقادير أن تلوح الفرصة التي ينتقم بها الأستاذ عزمي
فقد أصيبت رقبته بأخت بغداد ، وأخت بغداد مرض لا يصاب به
غالباً إلا الشبان ، فمضى يقول في الأندية والمجالس : إن إصابتي
بأخت بغداد هي الدليل على شبابي ، وما أظن الدكتور زكي
مبارك يصاب بها لأنه كهل .

واليوم أضع الأمر في نصابه فأقول :
إن الأستاذ عزمي يغالط ، ويغالط ، ثم يغالط .
هو يعرف أني أصبت بأخت بغداد منذ أول يوم تنسمت فيه
هواء بغداد ، فإن كان يجهل ذلك فليتكز أني ابتليت بهوى ليلى
المريضة في العراق .

شاعرية زكي مبارك

ياسيد فؤاد

ما هذا الذي تصنع ؟

إنى لأزال أبحث عن لحظة فراغ لأنقض تعليقاتك على مقالتي
الماضية ، وسترى كيف أرجع إليك رجعة السيل ، فإن عندي
كلمة قاسية لا يجرؤ على كتابتها رجل غيرى ولا يجرؤ على نشرها
رجل غيرك .

وأبادر الآن بهدم ما نشرتموه لأحد الأدباء من الاستخفاف
بشاعرية زكي مبارك . وما كان يهمنى أن أهدم ما بنى ذلك الأديب
فمثلى يجب أن تكون للناشئين أو هام وأحلام ، ولكنى خشيت أن
يصدق القراء كل ما ينشر في مجلة «المكشوف» وقد وقع ما خشيت
فنقلت ما نشرتم جريدة «الرأى العام» في بغداد .

والطريف في هذه القضية أن تنشروا أكثر من خمس مقالات في
الرد على الآنسة نجلا عبد المسيح لأنها وقعت في أكبر خطيئة حين
قررت أن رأيها في الدكتور زكي مبارك لا ينقض بسهولة !

وكان الظن بأدبكم أن لا تشجعوا القراء على مناوشة تلك الفتاة
فالدكتور زكي مبارك هو صاحب كتاب النثر الفنى الذى لم تعرف

مثله اللغة العربية ، لا في القديم ولا في الحديث ، ولا تؤاخذني ،
ياسيد فؤاد ، فلمست بالرجل المغرور ، وسيأتي يوم تنظر فيه كتاب
النثر الفني وتعرف أن الدكتور زكي مبارك دان اللغة العربية بذلك
الكتاب ، وعند الله جزائي .

لا تؤاخذني ، ياسيد فؤاد ، إني أشعر بالألم اللاذع حين يجيء
كاتب من كتابكم فيسميني «أمير الشعر والبيان» على طريق السخرية
ولو كنت سلكت المسالك التي تعرفون لكنت اليوم من أقطاب
الوزراء واسترحت من إمارة الشعر والبيان .

وأنا والله غير نادم على ما اخترت لنفسى من مذاهب الحياة ،
ولكننى أعانى مضاضة اللوعة كلما تذكرت أن جهودي في خدمة
الأدب العربي لم تجد من يحفظ الجليل .

أترك هذه الشجون وأدخل في لباب الموضوع فأقول :
إن الناقد اعترض على التسمية الفرنسية للديوان لأنى سميته
(Poèmes Erotiques) .

ولو كان درس علم البيان فى حدائته أو فى صباه لعرف كيف
يندرج الجزء فى الكل ، وأكتفى بهذه الإشارة راجياً أن يعود
«فيذاكر» علم البيان :

ثم وقف حضرته عند قول زكى مبارك :
أطوف بالحسن تصبيني بدائعه كما يطوف معنى القلب بالدمن

فلا تشير مغانيه ونضرته في ظل ذكراك غير الهم والحزن
فقال : إن الدمن هي المزابل .

وأنا ياسيد نواد لم أكن أعرف أن الدمنة هي المزبلة ، وهل
كانت كذلك في قول صاحب المعلقة المشهورة :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فلمتسلم

هل كانت الدمن هي المزابل في قول الشريف الرضى :

دع مزدموك بعدالبن للدمن غداً لدارهم واليوم للظعن

وهل كانت الدمن هي المزابل في قول أبي نواس :

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت وحسن رسوم

تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الإقواء ثوب نسيم

وهل كانت الدمنة هي المزبلة في قول ابن سنان الخفاجي :

خليلى قد عمّ الأسي وتقاسمت فزون البلى عشاق ليلي ودورها

فلا دار إلا دمنة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها

أنا ياسيدى شاعر ، رضيتم أم كرهتم ، والدمنة في كلام الشعراء

الحضريين والبدويين هي الدار العافية ، فاسألوا عن صنعة ذلك

الناقد لتعرفوا كيف جاز له أن يسمى الدمن مزابل . وما أحب

أن أزيد !

ثم ماذا ؟ ثم اعترض حضرته على قول زكى مبارك :

لولا مثالك في باريس المحم في طلعة البدر أو في نضرة الفنن

ما صافح النوم أجفاني ولا احتملت

جوانحي ما أثار البين من شجن

واستغرب أن يكون للعاشق عزاء في الأقمار والأفنان .

ويظهر أن هذا الأديب الناشئ لم يطلع على كتاب «مدامع

العشاق» ولو كان اطلع عليه لعرف أن الشعراء يتعلمون بالأوهام

وأن جحدراً يقول :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني

نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني

وعجب حضرته من أن أقول :

نسيت العهد واسترحتم من لوعة الحافظ الأمين

وقال : «لله ما أبشع هذه الميم في مخاطبة الحبيب !»

ولو كان حضرته اطلع على كتاب «مدامع العشاق» لرأى أن

هذه الميم تقبلها أبو صخر الهذلي وهو يخاطب محبوبته فيقول :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألتقي من الهم

ولو شئت لقدمت إليه ألف شاهد من هذا النوع .

ثم ماذا؟ ثم رمانى بالسرقه لأنى قلت :

أحبك يا ظلوم ولا أبالي أأكرم في غرامك أم أهان

فإن بخل الزمان بكم علينا فصبراً للذي صنع الزمان

ورأى أنى أخذت هذا المعنى من قول عنتره :

أحبك يا ظلوم فأنت منى مكان الروح من جسد الجبان
مع أن المعنى مختلف تمام الاختلاف ، وهل تكون السرقة
لأنى اشتركت مع عنتره في عبارة «أحبك يا ظلوم» ؟
إن كان هذا صحيحاً فما رأى هذا الناقد المبتدئ فيما قيل من أن
عند العرب أربعمائة قصيدة تبتدئ بعبارة «بانت سعاد» ؟
ثم عجب حضرته من أن أقول :

لقد أسرفت في حبي كذلك يفعل الصب
نعم عجب من أن يحاسب الشاعر نفسه على الإسراف في الحب
كأن الشاعر يحرم عليه أن يرجع على نفسه بعتاب أو ملام .
وتأذى حضرته من كلمة «كذلك» فهل تسمحون بأن أقترح
عليكم أن تبيعوا ما يملك هذا الناقد من حاسة الذرق ؟ إنه يملك
موهبة لو بعتموها لأغنتكم عن مصاييف لبنان !

ثم ماذا ؟ ثم أتعب نفسه في فهم هذه القطعة :

يا طفلة الحسناء والدره العصماء
ما طرفك النعسان وخدك الفتان
إلا بقايا الأم ذات اللثات الحام

* * *

أشبهتها في الدل وجفنها المعتل
وردفها الثقيل وخصرها النحيل

فاستوصفها الحبا واستودعها الربا
فقد تنهى العمرُ ونال منها الدهرُ

* * *

يا زهرة في العين ونعمة في الأذن
وظفلة في المنظر وغادة في المخبر
لا مستك الغرامُ فإنه ظلامُ

أعجب الناقد نفسه في فهم هذه القطعة ولم يفهمها ، وما أحسبه
سيفهمها إلا بعد سنين ، ولو كانت المصادر تحت يدي لأريته كيف
فهمها كبار النقاد من أمثال الأستاذ عبد الكريم الكرمي أديب
فلسطين .

وقد أراد حضرته أن يقارن بين هذه القطعة وبين قطعة قالها
شاعر لبناني في المهجر ، والموضوع مختلف ولكن الناقد لا يعرف ،
طفلة المهاجر اللبناني كانت بنت ثلاث سنين ، أما الطفلة التي قلت
فيها قصيدتي فكانت في سن حضرة الناقد حرسه الله ! فإن تفكيره
يشهد بأنه ابن عشر سنين !

وبعد فماذا تريد ، ياسيد فؤاد ؟
أنت بين أمرين : الأول أن تكون سيئ النية ، وهذا ما أستبعده
كل الاستبعاد .

والثاني أن تريد أن أكون محرراً في مجلة «المكشوف» بالمجان

وأنا والله مستعد لمعاونتك فقد شقيت بالقلم كما شقيت ، وأنا
شديد العطف على أصحاب الصحف والمجلات وأسماهم «شهداء
الأقلام» على وزن «شهداء الغرام» كتب الله لك السلامة والعافية
ونجاني من مغالطاتك !

وقد نسيت أن أنص على اسم الأديب الذي نقد ديواني في
«المكشوف» فلاذكر أن اسمه حلیم كنعان ولو كان جني على
نفسه كما جنيت على نفسي حين قضيت عشرين سنة في الحياة الجامعية
حتى ظفرت بإجازة الدكتوراه ثلاث مرات لسميته الدكتور
حلیم كنعان ، ولكنه سخر من أن أكون «دكتوراً» فليكن من
واجبي أن أدعو الله أن يرحمه ما عاش من خطر الألقاب فقد كانت
سبب بلائي .

والسلام عليكم ، وعلى بيروت أيضا !

قرأت ملاحظتكم على الكتاب الذي شرعت في تأليفه عن
(المجتمع العراقي) وابتسمت حين رأيتم تعجبون من يحكم على
الحياة العراقية بعد خمسة أشهر في بغداد .

ابتسمت لأنكم صدقتم من حكم على أدب زكي مبارك ، مع أنه
لم يصاحبه في بيروت غير لحظات قصيرة ضاعت بين التسليمات
والتحيات .

وقديماً قيل: واحدة بواحدة جزاء!

إذا كان الشاعر إلياس أبو شبكه عندكم فسلوا عليه .
وحدثني أحد أعضاء المؤتمر الطبي أن بعض المجلات في لبنان
تغتابني ، فإن كان ذلك صحيحاً فإني أعتمد على مروءتكم في إرسال
ما يكتب عني لأصحح ما فيه من أخطاء ، فقد أكون في ذات نفسي
برئياً مما يفترى الظالمون .

أراني الله وجوه أنصاري وخصومي بخير وعافية ، والسلام .

غريب الهوى في عيد القمر

أتذكر يا قلبي؟

أتذكر أن من الناس من يقول: (عيد الاضحى)، وأن منهم من يقول: (العيد الكبير)، وأن أهل سنتريس يقولون: (عيد القمر) كأنما عزّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد؟
ليت شعري أظلّ أهلي وأهلك يسمونه عيد القمر، أم تغيرت من بعدنا الأسماء؟

كان لي أهل، وكان لك أهل، يا قلبي.

أما أهلي فبخير، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديمهم من وجه أبي؛ وكان لك أهل يا قلبي، ولكن أخبارهم غابت عني منذ أزمان. فإن كانت عندك أخبار فحدثني عنهم، فما أحب لك أن تعيش في دنياك عيش الغريب!

لأنكم عني شيئاً يا قلبي، فما لك في الدنيا آس سواي. أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس في هذا المساء؟ فما لقيني أحد من أعضاء المؤتمر الطبي إلا سألتني عن صحة ليلى. وما أذكر أبداً أن أحداً سألتني عنك! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القاتل ويسكتوا عن فجيرة المقتول. والويل كل الويل للمغلوب.

إن اياي الأعياد ترجعني إليك يا قلبي .

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المؤلف أن يزور الناس المقابر وفي أيديهم المصابيح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة في حمل المصابيح في الليلة المقمرة ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الاموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً في هذه الليلة ، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التي دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فإني أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك ما يصنع البحر بما يدفن فيه من سرائر القلوب .

حدثني أين دفنت أحلامك ، فإني أعرف أنك قليل البخت في دنياك . ولو كان لك بخت لماجاز أن تبیت مشرد الأمانى في ليلة عيد قلبي ، قلبي !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبي !

أتذكر ما صنعتُ في سبيلك ؟

لقد فررت بك من سعير الحب في القاهرة ، ونقلتك إلى بغداد :

دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام ؟ أم كان اسمها من

أسماء الأضداد ؟

لقد تجهمت أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة ،
واستقبلتني بوجهه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت :
لابأس ، فهي همدنة يستجم فيها قلبي ، ليقوى على مناظلة العيون
حين يرجع إلى القاهرة : ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن
«عيون المها بين الرصافة والجسر» وقد انخدعت لك فتركتك ترود
مراتع الغزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أن بغداد لم يبق فيها
للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة ، وأسرتك عيون المها
بعد أسبوعين اثنين من قدومنا بغداد

قلبي !

لقد كان يعز علي أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن الفضيحة
لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترمى فتصيب ، ولكني ما كنت أحب
أن أحملك جريحاً محطماً إلى الأنامل الرقاق التي تعبت في تضييد
جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان يخطر بالبال أن
تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل
كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق

من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل
النهار بالليل في سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه
المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتقى الله في الناس ؟ من كان يظن
أن ينعدم كرم الضيافة في بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتياش قلب

غريب لا يملك من وسائل الدفاع غير الأبنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل في بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلب

ممزق لم تبق منه غير أطياف من الأشلاء

بغداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تغفُ عيناى . أ كذلك تكون ليالى

الاعياد ، يا بغداد ؟ ليتنى أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا

النوم من جفونى ! ليتنى أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فأتقم

منهم أشنع انتقام بتقيل جفونهم في غفوات الليل !

بغداد !

خذنى من نومى ماتشائين ، بل خذى من دمي ماتشائين ، فلن

أنسى ما حبيت تلك المؤامرة الوجدانية : مؤامرة العيون : عيون

المها ، على قتلى ؛ فإن من الشرف أن يكون المرء قتيلا للمها في

بغداد

إي والله ! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناى . فهل تعرف

الظباء التى كانت تعترض طريقى لتصرعنى أنتى لا أزال بين الأحياء ؟

أنا أدعوها إلى مناضلتى مرة ثانية ، وموعدنا بهو أمانة العاصمة
يوم الأربعاء

أحبابى فى مصر الجديدة والزمالك
ناموا هاتين وادعين ، وانهبوا ماشتم من أحلام الأمانى ،
فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق
أحبابى فى بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يعن أحدًا غيرى حين قال :
وكل محب قد سلا ، غير أتى غريب الهوى ، يا ويح كل غريب

الى ليلى المريضة فى الزمالك

سيدتى

أقدم إلى قلبك النيل أطيب التحيات وأشرف العواطف ،
وأشكر لك تلك الكلمة الرقيقة التى خطتها أمامك اللطاف على
صفحات الصباح . فقد شرحت بها صدرى وأقنعتنى بأن مصر
لا تزال بحمد الله معدن الذوق .

وهذه الغمزة موجهة إلى الشخص الذى تعرفين ، الشخص
الذى اسمه محمد ... والذى اطمأن إلى غيبتى عن مصر فأخذ يشطح
وينطح على هواه ، والذى اطمأن إلى أنى رجل تقتله الشواغل
العلمية فى بغداد بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه لو أراد ، فهو
يصول وحده ويجول

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا
ومن الغرائب أن يستعين بالداكتور سعيد عبده وأن يحتال فى
فى تأليب الأدباء على طبيب ليلى المريضة فى العراق .
ولو كان خصما واحداً لاتقوته ولكنه خصم وثان وثالث
ولكن لا بأس ، ففى يدي قلم أحد من السيف أودب به هؤلاء
«الخناسير» وسوف تعلن

وأعود إليك ياسيدي فأقول :

إن همك كله انصرف إلى إقناعي بأنك موجودة ، وأنتى زرتك
بالفعل مع محمد وسعيد ، ولكنك لم تذكرى العنوان لا عرف
بالضبط من تكونين ، فقد اشتغلت بطب القلوب سنين عدداً ،
وتشرفت بعيادة نحو سبعين مليحة من ملاح الزمالك ، ويسرنى أن
أسجل أنى كنت دائماً بلهما شافياً ، وأن البهجة كانت تحمل حيث
حللت ، وأن الأفراح كانت تقام فى الأفتدة والقلوب حيث توجهت
فيا سيدتى ، من أنت فى أولئك الملاح ؟ فقد تكونين أجمل من
عرفت ، وأشرف من عرفت ، وأكون نسيت .

وهل يستحيل النسيان على رجل مثلى ؟ لقد عشت دهري
أتقرب إلى الله بتدليل الملاح ، ولا أدرى ماذا أنفقت من مالى ومن
شبابى ، وكل ما أذكر من تفاصيل الحساب أنتى كنت قى كريمما
فلم أعرف الخيانة ولا الغدر ولا النيمة ، ولو شئت لقلت إنتى
لم أعص الله قط ، ولكن من يصدقنى ؟ وهل من معصية الله أن
تغنى بالوسامة والصباحة والجمال ؟

ومعاذ الأدب أن أقول إنتى رجل صالح ، فالرجل الصالح هو
الذى لا يؤذى أحداً أبداً ، وأنا قد آذيت الأدباء ، لعنة الله عليهم ،
ولكن يعزبنى أنتى راعيت الأدب مع الله فلم أقدم أية إساءة إلى
وجه جميل ، أما الأدباء فهم شياطين ودمهم مباح .

سيدتي

من أنت ؟ ذكريني فقد نسيت

أتكونين تلك الإنسانية التي جلست معي على الشاطئ في ليلة
مقمرة وأعلنت أنها لا تثق بأماتي ثم بكيت وانصرفت ؟ أتكونين
تلك الإنسانية التي عبرت معي النيل في زورق ولا متني على عدم
العناية بهندامى ؟

أتكونين تلك الإنسانية التي كانت تداعبني مداعبة ثقيلة فتثني على
الدكتور طه حسين ؟

أتكونين تلك الإنسانية التي كان وجهها يتدفق بالنور حين
تراني ، ثم ترفض أن أقبل يديها لتجرب كيف يكون أنس
الروح بالروح ؟

أتكونين تلك الإنسانية التي لطمتني بكتاب مدامع العشاق ثم
داسته بقدمها لأعرف أني عاشق خائن لا يفهم آداب المحبين ؟
أتكونين تلك الإنسانية التي علمت أني مدين فقدمت لي حلما
لأسددها ديونى ؟

أتكونين تلك الإنسانية الغادرة التي انتظرتها ساعة عند محطة
الحمات بمصر الجديدة لاتزود منها بنظرة قبل رحيلى إلى العراق
ولم تحضر ، واكتفت السفينة برقية تمنثني بها على الوصول سالما
إلى بغداد ؟

من أنت ياسيدتى ؟ من أنت ؟

ذكرينى فقد نسيت ، ولو شئت لقلت إننى رجل أراد أن يحرس

الجمال فأضاعه الجمال

وهنا أتقل من الرفق إلى العتاب

أفى الحق أنه يجوز لك أن تقولى إن ليلي المريضة فى العراق

امرأة أجنبية ، وأن غرامى بها إثارة الأجنيات على المصريات ؟

لا ، ياسيدتى ، فهذه نزعة خبيثة تنافى أدب العروبة ، فالمرأة

العراقية شقيقة المرأة المصرية ، وستمر أجيال وأجيال قبل أن تسدد

مصر ديونها للعراق

تعالى إلى بغداد أسبوعاً أو أسبوعين لتسمعى صوت مصر فى

العراق ، تعالى وانظرى كيف يكرمنا أهل هذه البلاد . تعالى

وانظرى كيف أحبس نفسى فى بيتى فراراً من الكرم والجود ،

فما دخلت مقهى ولا ملهى ولا مطعماً إلا وجدت حسابى مدفوعاً

بدون أن أعرف من الذى دفع ، حتى أصبحت لا أدرى أين أنوجه ،

والماء العذب يهجر للإفراط فى الخصر : كما يقول أبو العلاء .

لقد آن ياسيدتى أن تعرفى أن المرأة العراقية كلها روح ، كلها

قلب ، كلها فؤاد

المرأة العراقية هى كما نقول فى مصر «ربة بيت» وحنانها مصدر

البروة لزوجها وأبنائها ، والتبزج الممقوت لا يعرفه نساء العراق ،

وليس في بغداد شارع واحد تقبذل فيه المرأة ، كما يقع وأسفاه في
بعض شوارع القاهرة ، وإنما يعيش أهل بغداد متجملين ،
فلا ينقلهم الحب القاهر إلى الخروج على شريف الآداب
لانذكرى المرأة العراقية إلا بالخير ياسيدتي ، وتذكرى أن
للرأة العراقية أحساباً وأنساباً ، وأنها تكرم نفسها عن التبذل في
المشارب والملاعب والمراقص ، وتؤثر أن تظل دائماً مصباح
البيت .

سـيـدتي

قلت لك إنني انتقلت من الترفق إلى العتاب
فعلى أي قاعدة من قواعد الذوق جاز لك أن تقولى إنني فارقت
شبابي ؟

اسألى عن أهلى ياسيدتي لتعرفى أنى من قوم تشيب نواصيهم ولا
تشيب أبدانهم ولا قلوبهم
ومعاذ الآداب والذوق أن أنبهك إلى خطأ ستندمين عليه يوم
أعود

ولكن متى أعود؟

اشتقت إلى الضلال في الزمالك

اشتقت إلى المنزل الذى لم تسدل ستائره على قلب أشرف من قلبى
اشتقت إلى المنزل الذى كانت تحيىنى أحجاره حين أشرفه بقدى ،

اشتقت إلى الإنسانية الغالية التي كانت ترانى أعظم نعمة عرفها الوجود
اشتقت إلى الجدائل المعطرة التي أخذت منها « خصلتين » أدفع بهما
قسوة الوحشة في أيام الاغتراب

ولكن من صاحبة هذه الجدائل ؟
من هي ؟ من هي ؟

ان تعرفي ولن يعرف اللثام الذين يلاحقوننى على صفحات
الصباح .

ولو سألتى فاطر الأرض والسموات لانكرت وكتمت ،
فليس في الدنيا كلها غير عاشق واحد يكتبكم أسرار الملاح هو
صاحب النثر الفنى ، الرجل الذى تعرفين ويعرفون
ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم تقولين إننى عجزت عن مداواتك ، وعجز معى الدكتور سعيد
عبده والأستاذ محمد . . وإن شفاءك وقع على يدي الشاب الظريف .
وأنا لا أستبعد ذلك فالله عز شأنه قد يضع سره فى أضعف خلقه
وما يسوؤنى أن ينجح الشاب الظريف فهو تلميذى ، ولولم يكن
تلميذى لما أمكن أبداً أن يكون شاباً ظريفاً

ولكن كيف جاز لهذا الشاب الظريف أن يخرج على الأدب
فيداوى مريحة عليلة بدون أن يستأذنى ؟

وكيف جاز لك أيتها السيدة أن ترضى عن ثورة التلامذة على
أساتذتهم ؟ ألم يبالغ منشور وزارة المعارف ؟

سيدتى .

من أنت ؟ من أنت ؟ أحب أن أعرف من أنت لأنفض منك
يدى إلى الأبد . فقد كان الظن أن يكون الموت أحب إليك من
الخروج على الذوق . والذوق هو أئمن ماتملك المرأة . وهو عندنا
قبل المال وقبل الجمال

سيدتى

لقد سألتنى أن أحمل عنك التحية إلى ليلاى بالعراق . وأنا أعتذر
عن نقل هذه التحية . لأن ليلاى بالعراق ضحيت بعافيتها فى سبيلى
وأبت أن تظهر لأعضاء المؤتمر الطبى . وقررت أن الغرق فى دجلة
أحب إليها من الخروج على الأدب مع طبيبها الخاص

مولاتى

إن كان فى هذه الرسالة شىء يسوء فاعذرنى ، فقد ألفت الشطط
فى مخاطبة الملاح ، لأنى عشت مدلا بين الملاح . وأنا مع هذا أفهم
قيمة التضحية التى تقدمها سيدة حين تخاطب رجلا ، أنا أفهم جيدا
أنك صاحبة الفضل ، وأعرف أن المعصم الجميل لا يتحرك لكتابته
كلمة مثل كلمتك إلا وهو متفضل . ومثلى يحفظ الجميل ولا ينساه .
وكل ما أرجوه أن تصونى قلبك فلا يعرف أسرارہ شاب ظريف
ولاشاب سخيف وأرجو ألا تكويك التجارب فتذكرى نصيحتى
بعد الأوان ، والسلام

طبيب ليلى يوصى بنظارة طبية

للدكتور محمد صبحي بك

قالت جريدة العقاب البغدادية :

« من طريف ما يذكر في حفلة افتتاح المؤتمر الطبي العربي أن
الدكتور زكي مبارك الأديب العربي الكبير وأستاذ الأدب العربي
في دار المعلمين العالية حضر الافتتاح بصفته دكتور «أبدان»
للدكتور «آداب» وقد قال عن نفسه إنه حضر مداوة ليلى المريضة
في العراق .

والنكتة في الموضوع ليست بما ذكر أعلاه، وإنما هي في مركز
الدكتور في الحفلة : فقد شوهد وهو يرتدى السدرة العراقية
ويتقدم إلى الأطباء المصريين والسوريين مصافحاً إياهم ومضيفاً إلى
ذلك هذه العبارة :

باسم العراق أحبيكم .

وقد تقدم إلى أحد أصدقائه المعروفين من كبار أطباء مصر
وتلقاه بهذه العبارة الرقيقة فقال الطبيب : أنا الدكتور محمد صبحي .
فقال له الدكتور زكي مبارك : من أي بلد قدمت ؟ وفي أي فرع

تخصصت ؟

فأجاب : أنا مصرى أشغل بطب العيون ..

فقال له الدكتور زكى مبارك : هل تسمح لطبيب ليلى أن يشير
عليك بحمل نظارة طبية ؟

فتنبه الدكتور صبحى وتلقى صديقه الدكتور مبارك المخففى تحت
السدارة بالعناق والتقبيل .

وسرت هذه النكتة بين أعضاء المؤتمر فكانت حديثهم فى
الصباح والمساء .

حيران حيران

حضرة الأستاذ محرر مجلة الهداية الإسلامية .

أقدم إليك أطيب التحيات ، وأذكر أنك تفضلت فطلبت مني كلمة للعدد الخاص ، وكنت أنتظر أن تعفيني من هذا الواجب ، لأنك تعرف ما يثقل كاهلي من الشواغل الثقيل ، وكنت أنتظر أيضاً أن أعفي نفسي ، ولكنني رأيت لكم أصدقاء في الموصل يذكرونكم بالخير ، ويحبون أن يكون لي في مجلتكم مكان ، ومن هؤلاء الأصدقاء أخوكم الأستاذ بشير الصقال .

موضوع هذا المقال مأخوذ من أغنية عراقية تقول : حيران حيران !! وحيرتي مزعجة مضنية لأنني أحب أن أكون من المصلحين ، ولكنني لا أعرف أين أتوجه ، ولا أتبين ما يجب أن أصنع

ولم تكن حيرتي حيرة فردية ، وإنما هي حيرة إسلامية ، فالإسلام اليوم في غربة موحشة ؛ ولكنه مع ذلك في يقظة يحسب لها خصومه ألف حساب .

وإنما كان الأمر كذلك لأن المسلمين يملكون أخصب بقاع الأرض ، وهم يشرفون على أعظم البحار ، ويملكون نواصي

المشرق والمغرب ، ولو نفذوا عجاج الكسل عن رؤوسهم لسيطروا
على العالم من جديد

ولكن هناك أوهام فردية واجتماعية تشل أعضاء الأمم الإسلامية
ومن رأي أنه يجب الاهتمام بتبديد تلك الأوهام ، وأنا أعتقد أن
هناك دسيسة خطيرة جدا يراد بها تمزيق الأمم الإسلامية ، وهذه
الدسيسة لا يحبطها الإسراف في التغيى بالماضى ، وإنما يحبطها أن
تحارب بقوة وعنف ، وتقوم هذه الدسيسة على أساس القوميات
العربية أو الإسلامية ، فمن أوهام اليوم أو دسائس اليوم أن العروبة
شئ والإسلام شئ . فأين المصلح الجريء الذى يجهر بأن الإسلام
هو الذى أعز العرب وأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن بطلا
عربيا وإنما كان بطلا إسلاميا ؟

وقد جهرت بهذه الحقيقة مرات فى بغداد ، واحتملها منى
العراقيون لأنهم يعرفون أنى مخلص ، والعراقيون يحتملون كل
شئ من أهل الإخلاص

من رأي أيها الأخ أن الإسلام لا ينهض إلا بنهضة اللغة العربية
وأن من واجبنا أن ننشئ المدارس فى الهند والصين والافغان
وإيران وفى سائر البلاد التى يعيش فيها المسلمون لتقيم قواعد
الأخوة الإسلامية على أساس متين

من رأي أن يكون لنا « عصابة أمم » تفكر فى وصل الحاضر

بالماضى وتقنع الشرق بأنه ليس أقل حيوية من الغرب
من رأبى أن تكون لنا «عصبة صوفية» تؤمن بالله وحده
وتستعد للجهاد فى سبيل الله لا فى سبيل المنافع الدنيوية .
من رأبى أن تكون لنا «عصبة أدبية» تغنى اللغة العربية بالأدب
والبيان وتشعر شبابنا بأنهم يعيشون فى حماية لغة هى أغنى من
الانجليزية والفرنسية .

من رأبى أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين بتعليم أهل الشرق
أن الإسلام لم يكن دعوة قامت بالسيف كما يشيع المرجفون وإنما
هو هداية صريحة قامت لإنقاذ أمم العالم من الظلم والطغيان .
أبها الصديق : تذكر ثم تذكر

تذكر أن أمم الشرق لن تصبر طويلا على ما يريد لها الغرب .
إن الغرب يريد أن يظل الشرق حتمولا يزرعها كيف يشاء ، وقطعانا
يصرفها حيث يريد .

وللإسلام غاية واحدة : هى أن يكون المسلمون سادة أنفسهم .
وقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية .
فلنخدعه نحن بما عندنا من مدنية .
عنده نور الكهرباء ، وعندنا نور العدل .
عنده الزخرف ، وعندنا الحقائق .
عنده الاستعمار ، وعندنا الاستبدال .

نحن نريد أن نسيطر على ما نملك ، وما نحب أن نسيطر على
الغرب بغير الحق .

أيها الصديق

تذكر ثم تذكر :

تذكر أن الإسلام قوة وتذكر أن نابليون حاول أن يكون
امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين ، وتذكر أن غليوم الثاني
حاول أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين ، وتذكر
أن موسيليني يحاول اليوم أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة
المسلمين .

وما كان المسلمون من السوائيم المهملات حتى يفكر في رعايتهم
عاهل الفرنسييس أو الألمان أو الطليان
المسلمون قوة عاتية وسيعرفون كيف يؤدبون الطاغين
والمستبدين .

أيها الصديق

لقد تأملت في هندامك فرأيتك تلبس لباسا شرقيا تحته لباس
غربي ، فاعرف أن هذا اللباس الغربي هو الذي حرمانا من نعمة
الصلاة ، وسيأتي يوم نعرف فيه أن الملابس الشرقية القديمة هي
أصلح الملابس لأهل الشرق

أيها الصديق

لا تضق ذرعا بهذا الخطاب فقد كتبتك في ظلال الحيرة ،
والحيرة هي أول خطوة في سبيل اليقين
« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله
لعلكم تفلحون »

محمد العشماوي في بغداد

صديق رئيس تحرير البلاد

طلبت مني كلمة عن سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف المصرية ، وأجيب بأن احتياجكم إلى من يتحدثكم عنه ، مع معرفتكم بأكثر رجال مصر ، هو الصفة الأصيلة في صفات ذلك الرجل النبيل ، فهو رجل لا يجب أن يعرفه أحد من الناس . هو رجل لا يعرف غير العمل ، والمطمح الأعظم في نفسه أن يكون من النافعين لا من المشهورين

فإن لم يكن بد من ذكر شيء من تاريخه فإني أذكر أنه من قدماء الأساتذة بكلية الحقوق ، وهو يشغل منصبه في وزارة المعارف المصرية منذ سنين .

وإن لم يكن بد من ذكر بعض مذاهبه في الحياة فإني أذكر أنه رجل خالص خلوصاً تاماً من التعصب السياسي ، فهو صديق لجميع الأحزاب ، فلا يتولى وزارة المعارف وزير من أي حزب إلا عرف أن العشماوي رجل لا غنى عنه لأنه يخدم مصر ولا يخدم الأحزاب ومن الوجهة الأدبية والذوقية أذكر أن العشماوي أكبر نصير للآداب والفنون .

ومن الوجهة القومية أذكر أن العشماوى من أصدق أصدقاء
العروبة ، وهو يدعو إلى توحيد المناهج الدراسية فى الأقطار العربية
ومن الوجهة الاجتماعية هو خير الآباء ، ويمكن أن تنظروا
كيف يصحب ابنه وابنته فى جميع الرحلات لينعموا بعطفه الأبوى
الشريف

فإن سمعتم أن فى مصر قلقاً على مصير اللغة العربية فتذكروا أن
محمد العشماوى هو باعث ذلك القلق ، لأنه يبغض أشد البغض أن تقع
كلمة من العامية فى دفاتر التلاميذ

صديقى

لقد كنت أرجو أن تكون أيام هذا الرجل فى العراق فرصة
أودى له فيها خدمة يذكرنى بها حين أرجع إلى القاهرة ، ولكن
الحكومة العراقية انتهت منى انتهاباً ، وأقبل عليه فضلاء بغداد فغمروه
بالمأثور عنهم من الكرم واللطف ، بحيث لم يبق لمثلى فى خدمته مجال
و كنت أود أن أكتب له ترجمة مفصلة ، ولكنى أخشى أن
لا يرضيه ذلك ، فاكثفوا منى مشكورين بهذا القليل ، والسلام .

بين الآباء والابناء

- ١ -

قد يعتقد الكثيرون أنني عند ما أكتب عن أبي أو أنحدث عنه ، إنما أكتب ما أكتب وأقول ما أقول متأثراً بما بين البنوة والابوة من صلات. ولكنني في الواقع إذا كتبت اليوم عن أبي فإنما أكتب عن صدق ، فأنا الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث عن الدكتور زكي مبارك كرجل من رجال التربية والتعليم .

نشأ أبي نشأة ريفية في وسط عائلة قوية الجانب؛ لا تعرف غير القوة والجبروت؛ فاكتمسب صلابة الرأي، وقوة الإرادة، وبعد النظر، وسلامة الذوق... ثم تحول إلى المدنية الحديثة في إبان شبابه، فلم يتأثر إلا بأصولها الحقيقية، فجمع مع سلامة العقل، سلامة الجسم، وقوة الروح، وصفاء الضمير. فكان لذلك أثر كبير في تربيته وتعليمه، وقد راضنا أبي على القوة، فنشأنا بفضل الله أقوياء، وقد كتب عن ذلك يقول (١) «أتروتني أبكي على أطفالي؟ هيهات لقد ورثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة، وحين أفهمتهم أن العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء، فإن تسلحوا بالقوة فقد

(١) في مقاله المشهور الذي عنوانه (عند ما يوافيني الموت)

انتفعوا بما ورثتهم، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة، وأنا
منهم برىء

وقد عودت أطفالي أكل اللحم في كل يوم لينشأوا على قسوة
الحيوان المفترس، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا،
وللضعيف الضيم والهووان

وقد نشأت في قوم أقوياء، وكان أبي أشجع رجل رأته عيني، وكان
أجدادي وأعمامي من نماذج القوة والبطش، ولم يكن فيهم رجل
مظلوم، وإنما كانوا دائماً ظالمين، فإن شاء أبنائي أن يكونوا لأبيهم
وأجدادهم وأعمامهم، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء، وإن ضعفوا
فليذهبوا غير مأسوف عليهم... وفيهم بحمد الله فتيان يقرأون هذا
الكلام، فليعرفوا أن أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوى
النفس، وليتذكروا أن أباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو أشجع
الرجال

وقد يدهش الكثيرون إذا عرفوا أن أبي مع قوته وجبروته،
رجل كله كتلة من الإخلاص والوفاء والكرم، فطالما ظلمنا
بسحائب العطف وسقانا أكواب الشهد وغمرنا بكرمه وحنانه،
وأقسم صادقاً أن أبي لم يجرح إحساسى مرة واحدة في حياتي وإن
كنت مخطئاً، بل كان يعاملنا معاملة تدل على حسن التصرف وبعد
النظر فهو يدفعنا إلى بحر الحياة لنجرب حلوها ومرها، ثم يراقب

أعمالنا عن بعد ، فإن أخطأ أحدنا أعاده إلى الصواب بكل شفقة
ورأفة فإتلاه أنا لا أرضى لكم بغير التفوق المطاق لأن الرجل والمتسط
لا يستطيع العيش في العصر الحديث ، وكان لهذه التربية أثرها في
أنفسنا ، فأنا لا أذكر يوماً عبث فيه أخي الصغير في حضرة أبي مع
أن أبي يعامله معاملة كلها عطف وحب وإخلاص ، ويخيل إلى أن
هذه الطريقة من طرق التربية تبعث في نفس الطفل أصدق آيات
الإخلاص والولاء لأبيه ، وأروع صور الوفاء لوالديه ، وتعوده
الاعتماد على النفس والشعور بالشخصية .

وقد راضنا أبي كذلك على العمل وهو رجل عمل بمعنى الكلمة
فقد يقضى في أيام فراغه وفي إجازات الصيف ثلاثة أيام متواصلة
لا يغادر خلالها مكتبه بل يظل ساهراً ليصل الليل بالنهار في العمل
والتحصيل . ولعل القارئ يوافقني على ذلك إذا اطلع على كتاب
النثر الفني . ورجل هذه أخلاقه يبعث في روح أولاده حب المثابرة
والكفاح بكل تأكيد . وكان من جراء ذلك أن ورثت عنه هذه
العادة ، فلا أكون مبالغاً إذا قلت إنني كنت في التعليم الثانوي أقوم
بجانب دراستي المدرسية بالكتابة في الصحف ، ودراسة الهندسة
اللاسلكية والكهربائية والميكانيكية بجانب الشعر والقصص
والموسيقى .

وقد عودنا أبي الصبر ومواجهة الحقائق ، فهو رجل قلبها ييأس ،

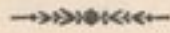
وإنما يواجه الحقائق بالحقائق فلا أنسى مطلقاً مساء يوم وفاة جدى
رحمه الله فقد عاد أبى من ستريس فى مساء ذلك اليوم يحمل الينا
الخبر المشئوم ويبدى أسفه بقوة جبارة تغلب بها على حزن نفسه ،
وكبت بها عواطفه

وقد سافر أبى إلى العراق ولا أنسى ساعة وداعه ، فقد وقفت
أبكى كالطفل بينما راح هو يتسم

وبعد فهذه صورة سريعة صادقة عن أبى رجل التربية ، فإنه
وحده أبعث بأصدق تحية .. وإليه أرفع آيات الحب والإخلاص .

ابنه الوفى

سليمان زكى مبارك



صديقى

لقد شاء لك وفاؤك أن تمتعنى بخطاب خاص تبدد به ما فى صدرى
من ظلمات ، و كأنك لم تسكتف بالافراح التى يذيعها الصباح يوم
وصوله إلى بغداد .

وقلت فى خطابك :

«أهنتك بأن لك خليفة فى الأدب والعلم والنوق والأسلوب

الإدراك هو سليمان زكى مبارك ،

فهل تدري أيها الصديق أن هذا الخطاب أزعجنى ؟

هل تعلم أنه ساءنى أن أعرف أنك ستنشر له كلمة عنى ؟

أنا أشهد غير مخدوع ولا مفتون أن هذا الشاب عنده بوارق من

الفكر والذكا.

ولكننى أنظر إلى مصيره نظر الخوف والجزع ، لأنه يسارع إلى

الشهرة كما يصنع أكثر الشبان فى هذا الجيل ، والشهرة المبكرة

تفتن الشبان أشنع الفتون ، وتصرفهم عن التخلق بأخلاق الأبطال .

فإن كنت فى ريب من ذلك فتذكر أن فى مصر شبانا تعجلوا

الوصول إلى الشهرة فوصلوا إليها قبل الأوان ، ولكنهم سيعيشون

أطفالا ويموتون أطفالا ، وسيكون مصيرهم مصير الصحفي الذى

اشتغل بالتحير فى الجرائد المصرية أربعين سنة ثم مات قبل أن

يشهد القراء بأنه صار من الكتاب !

وكان عندك فى جريدة «الصباح» محرر أنقذته أنا من هذا

المرض ، فقد كان أخرج ديوانا شعريا منذ سنين ، وطنطنت به

الجرائد والمجلات ، ولكننى أبيت أن أشير إليه فى مقالاتى بجريدة

البلاغ ، فلما عاتبنى قلت له : لن أعرفك إلا يوم تظفر بالدبوم من

كلية التجارة . ومن حقى أن أعتز بأنى أنقذت هذا الشاب من جنون

الشهرة فكانت النتيجة أن يظفر بدرجة عالية من درجاب الجامعة
المصرية

ولعل من واجبي أن أتجاهل مكاتته الأدبية إلى أن يصبح من
رجال الاقتصاد

لقد ذهب ابني سليمان منذ أعوام إلى جريدة البلاغ لينشر بعض
اختبارات في اللاسلوكي فرحبت به الجريدة ، ولكنني تدخلت
لوقف مقالاته ، فكيف جاز أن تشجعه في غيبي ؟ أنا يا صديقي
أبغض هذا النوع من التشجيع

إن هذا الشاب يريد أن يتشبه بأبيه ، ولكن في أي باب ؟ إنه يريد
أن ينشر مقالات وأقاصيص في الصحف والمجلات كما يصنع أبوه
فهو يعرف هذا الشاب المفتون أن أباه أحرز خمس شهادات
عالية أصغرها شهادة الليسانس في العلوم الفلسفية والأدبية ؟

وهل نسي هذا الشاب المفتون أنه رسب في البكالوريا وهو
يعيدها وقد يكون الجري وراء الشهرة الكاذبة سيئاً في أن يرسب
مرة ثانية ؟

قد يراجعني هذا الشاب فيقول : وأنت أيضاً يابنت رسبت في
امتحانات الليسانس مرتين !!

وهذا حق ، ولكن اللجنة التي أسقطتني مرتين في امتحانات

الليسانس كانت مؤلفة من اسماعيل رأفت ومنصور فهمي
وطه حسين

فمتى يكون من حظك أيها الشاب المفتون أن تسقط في امتحانات
الليسانس أمام لجنة مؤلفة من أمثال هؤلاء الرجال ؟
ومتى يكون حظك أن تظفر بإجازة الليسانس كما ظفر أبوك
وهي مذيلة بأسماء كهذه الأسماء ؟

إن هذا الشاب عمل بالمثل الذي يقول «غاب القط فالعب يافار» فهو
قد انتهز غيبتى بالعراق وأهمل دروسه ومضى يركض بين المطابع لينشر
كتاباً في اللاسللكي ، ولو كان من أصحاب القلوب لعرف أنى أقوم
مفزوعاً من نومى فى كل ليلته ، لأنى لا آوى إلى فراشى إلا وأنا
مشغول البال عليه ، فمن أى الصخور صيغ قلب هذا الشاب
المفتون ؟

صديقى

ما كنت أحب أن ينشر مثل هذا فى جريدتك لولا يقينى بأنه يحارب
نزعة خبيثة يعانىها الشبان فى هذه الأيام ، وقد يكون فى قرائك من
يعانى من الألم بعض ما أعانى ، فالذين فى مثل حالى يتمنون أن يكون
لهم أبناء نجباء وأنا أخشى أن يخوننى الحظ فيكون أبنائى غير نجباء
كنت أتمنى أن يصنع أبنائى بعض ما صنعت مع أبى ، فما أذكر
أن أبى بات ليلة وهو وورق الجفن بسببى ، وقد هتف باسمى مئات

المرات وهو على فراش الموت .

أما بعد فقد هذبت ألوف أمن التلاميذ ، وأدخلت النور على ملايين العقول في المشرقين والمغربين ، وأنا مع ذلك أتشهى أن يكون لى من صلبى ولد نجيب .

فإن صح رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك نعمة من الله

وإن خاب رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك أيضاً نعمة من الله

ألم يجرب الله إيمانى فابتلانى بأخطر الأرزاء والخطوب ؟
لقد طوّفت بالشرق والغرب فى الدفاع عن لغة القرآن
لقد ابتدعت مئات الأفاصيص لأحبيب الناس فى لغة القرآن
لقد تفرّدت بالزهد فى الوصولية لأقيم الشاهد على أنّ الواثق بربه لا يضيع

لقد وفيت لكل من عرفت لأخلق لوطنى أصدقاء ، فقد كنت
أسمع أن حب الوطن من الإيمان
لقد أدخلت البهجة على جميع ما عرفت من القلوب ، فكيف
يصل الحزن إلى قلبى عن طريق بعض الإخوان أو بعض الأبناء ؟
رباه !

أنت تعلم كيف خلقتنى ، وكيف سويتنى ، فاكتبنى عندك من الشهداء

الساعة صارت عشرة !

صديق ...

إن الساعة صارت عشرة .

ألا تصدق أن الساعة صارت عشرة ؟

إن كنت في ريب من ذلك فاسمع هذا الحديث :

كان سعادة وزير إيران المفوض في العراق تفضل فدعاني لحضور الاحتفال بعيد ميلاد صاحب الجلالة ملك إيران ، فقهرت نفسي على الخروج من عزلتي لأجيب هذه الدعوة الكريمة ، وقضيت هناك نحو ساعة أنست فيها بمحادثة فريق من كرام الرجال . وعند عودتي إلى المنزل رأيت رجلين ينتظرانني بالبواب : أحدهما صديق عزيز ، وثانيهما زائر كريم .

فالتفت إلى الصديق وقلت : من أنى بك ؟ ألم أقل لك أكثر من عشرين مرة إنني لأحب أن يزورني أحد ؟ ألم أنشر في الجرائد مرات ومرات أن وقتي لا يتسع للزيارات ؟

فتبسم الصديق وقال : لطفاً ، لطفاً ، فما جئت إلا بالرغم مني ، وصاحبني هذا قدم من الموصل ورجاني أن أدله على بيتك ليراك ودخلنا فجلسنا لحظة وأنا على جانب من سوء الخلق لأنني كنت

أحب أن أدخلوا إلى القلم والقرطاس ، ولكن الزائر الكريم ظنني
أمزح فاحتمل سوء خلقي ، ثم اقترح الصديق أن نخرج فنقضى
لحظة في أحد الأندية فاعتذرت ، فقال : راع حق الموصل . فقلت :
حياً وكرامة !

وخرجنا فجلسنا في أحد الفنادق نحو نصف ساعة ثم استأذنت .

وسأل الرفيقان : متى نلتقي ؟ فقلت : بعد شهر !

فقال الزائر الكريم : إني لن أقتضى غير أسبوع واحد في بغداد

فقلت : سأزورك في الموصل !

فقال : أراك تهرب مني !

فقلت : لا أهرب ولكنني مشغول

وبعد ثلاث ليال سمعت طارقاً يناديني ، فنظرت فإذا هو أديب

الموصل ، فاستقبلته وأنا متضجر متأنف ، ولكنه ظنني أمزح ،

كأنه استكثر أن ألقى الضيف بالتضجر والتأنف ، فتشجعت وقلت :

إني أحرم نفسي من إخواني في العراق وأعتكف في المنزل لأنهم

كتاب عبقرية الشريف الرضي .

فقال ولكن نحن على موعد مع الصديق (ع) .

فقلت : ما أظننا على موعد .

فقال : هو ينتظرك .

فقلت : هذا بعيد .

فقال: ولكن لا بدّ على أى حال من الخروج للسهر فى هذه الليلة .
فقلت : هذا مستحيل ، لأن كتابى أعزّ علىّ منك .
فابتسم وقال : ولكن الليلة عيد ميلاد صاحب الجلالة ملك العراق .
فقلت : أحسنت إذ نهيتى إلى ذلك ، فمن الذوق أن أشارككم فى
الأفراح ، ولكن اسمع يا صديقى : نحن فى الساعة السابعة وقد
شرعت فى كتابة بحث مهم جداً ، ويؤذنى أن أخرج الآن ، فارجع
إلىّ فى الساعة العاشرة ، وسأكون فى صحبتك إلى نصف الليل .
فقال : وأنا أقترح أن نخرج الآن ثم تعود فى الساعة العاشرة
لتخلو إلى عمك ما طاب لك .

فقلت : هذا حل موفق

وقدمت إليه جملة من المجلات المصرية ليتلها بها حتى أستعدّ
للخروج

خرجت فى صحبة الزائر الكريم وأنا متضجر متأفف ، ولم يكن
الأمر على نفسى إلا حين خطر بالبال أن بكائى سيطول على الصحة
التي أنفق منها بلا حساب فى سبيل الأدب ، فأنا أشتغل فى كل
يوم أكثر من سبع عشرة ساعة ، وجبال الكحل تفنيها
المراد ، وهيات أن تبقى صحتى مع هذا الكدح المخيف ،
وأخشى إلا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعنى الناس إلى قبرى ،

فذاكرة بنى آدم ضعيفة جداً ، وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم ، أما الذي يخدمهم ويشقى في سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفي كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف .
عفا الله عنكم يا بنى آدم وعفا عنى !

خرجنا فمضينا إلى منزل الصديق فرأيناه يسمر مع زوجته ، ولم يكن ينتظرنا كما زعم صاحبي ، ولكنه مع ذلك جرى على الفطرة العراقية فاستقبلنا أكرم استقبال وتلطفت الزوجة الكريمة فأحضرت فناجين القهوة والشاي ، وبعض الطيبات من الفاكهة والحلواء

أما صاحب الموصلى فأخذ يتلهى بالخطاب الموجه إلى ليلى المريضة في الزمالك على صفحات الصباح ، وأما الصديق البغدادي فشاركني في متابعة الأغاني التي يجلجل بها المذياع ، ودار صوت من أصوات أم كلثوم فكادت أبكي ، ثم ابتسمت فجأة حين تذكرت أنه لا بد من انتهاء قبلة أو قبلتين من أم كلثوم يوم أعود ، وهل تستطيع أم كلثوم أن تفر من يدي ؟ هيهات هيهات !
وانقطعت الأغاني وشرع طبيب يتكلم عن العناية بصحة الطفل فقام صاحب البيت وأغلق المذياع بعنف .

فقلت : ما هذا الحق ؟

فقال في ألم موجه : إن هذا الطبيب هو الذي قتل طفلي

ومدّ يده إلى الحائط فأنزل لوحة فيها صورة طفل يشبه أدونيس
ابن أفروديت

وجريت على عادتي في درس الوجوه والعقول والقلوب ،
فرايت الزوجة تتطلع إلى صورة الطفل وهي في مثل حال الغيبة
المروعة التي اختطف الأسد رشأها منذ لحظة أو لحظتين .

ثم تغير حالي أشدّ التغير ، وغلبني الحزن ، وتذكرت الدواء
الناجع الذي ينقذني من أحزاني ، وهو دواء مركب من ثلاثة
عناصر هي الكتاب والقلم والقرطاس

فجريت إلى معطفي ألبسه لأخرج ، فنظرت الزوجة نظرة تلتطف
وقالت : هذا منزلك يادكتور ، فما الذي أزعجك ؟

ثم وقف في وجهي صاحب البيت وهو يقول : لن تخرج ،
لن تخرج

ورأيت موقفي صار سخيماً جداً فقلت : اسمع يا صديقي ، أنا أخشى
أن تكون دسيسة من دسائس الدكتور طه حسين !

فضحك وقال : وهل للدكتور طه حسين دسائس !

فقلت : هو يحاول منذ سنين أن يخلق لي صداقات كريمة تصدني
عن متابعة الإنتاج الأدبي ، وأُفشى أن يكون كرمك من عقابيل
تلك الدسائس .

وكانت فكاهة غمرت المجلس بالضحك وساعدتني على الخلاص

* * *

وفي السيارة تحدث الرفيق الموصلى فقال : يظهر أنك مصمم على
العودة إلى منزلك .

— نعم ، وهل في هذا شك ؟

— ولكن الساعة العاشرة لم تحن ، وأنت وعدت بأن نظل معاً

إلى الساعة العاشرة

— أعفني يا صديقي ، فأنا أشغل مطبعتين في بغداد ، وسيطرقون

بابي مع الشروق ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول

— تذكر أنني راحل إلى الموصل

— ألم أقل إنني سأزورك في الموصل ؟

— أنا لأضمن ذلك ، وتكفيني ساعة واحدة في صحبتك ، من

التاسعة إلى العاشرة .

— ألم تسمع حكاية العالم مع الأمير ؟

— وكيف كان ذلك ؟

— زعموا أن عالماً دخل على أحد الأمراء فدعاه الأمير إلى

المنادمة ، فقال العالم : إنما وصلت إلى مولاي بالعقل ، فأنا أكره

ما يذهب العقل ، وأنا يا صديقي لم أصل إلى مسامع أهل العراق إلا

بالمحافظة على الوقت ، فأنا أكره ما يضيع الوقت ، ولولا هذه المزينة

لما أمكن أن أكون من كبار المؤلفين
— هي ساعة واحدة تكرم بها أديباً يعشق أدبك ثم تعود فتخلو
إلى قلبك كيف شئت

* * *

وكانت لحظة دار فيها رأسى فتذكرت ما كتبت عن أدب
الأخوة في كتاب التصوف الإسلامى ، وتذكرت الحكيم الذى
قال «إذا قلت لصاحبك : هلم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فليس بصاحب»
فقلت : لك يا صديقى ما تشاء ؛ على شرط واحد

— ما هو ؟

— أن نفرق فى الساعة العاشرة

— وهو كذلك . ولك الفضل

دخلنا فى فندق .. فلم نر فيه مكاناً خالياً فذهبنا إلى فندق .. فرأيناه

أشبه بسفينة نوح

فمضينا إلى فندق .. فرأيتنه لا يلىق برجل يشتغل بالتدريس ،

والمدرس مسئول عن كرامته ولا يلىق به أبداً أن يدخل مكاناً

تحيط به شبهات

واعترض رفيفى فقال : هذه ليلة أنس يباح فيها ما لا يباح

فقلت : هي ليلة عيد فى قصر جلالة الملك ، ولكن يغلب على

ظنى أن الملوك لا يعرفون الأعياد ، ومن يدريك فلعلّ جلالة الملك

في هذه اللحظة مشغول بتدبير بعض الشؤون

فتضجر رفيقي وقال : ولكن الملك يسره أن يفرح الشعب في

ليلة عيد

فقلت : ولكن يسره أيضاً أن يعرف أن شعبه لا ينسى كرامته

في ليالي الأعياد

— سمعت أن الملك فؤاد كان يترك ضيوفه أحراراً في سهرات

قصر عابدين ويكتفي هو بشراب الليمون

— ولو أنهم تأدبوا بأدبه فاكتفوا بشراب الليمون لكانوا إلى

قلبه أحب وأقرب

— أنت رجل مزعج يا دكتور !

— لست بمزعج ، وإنما أحب أن أرجع إلى قلبي وكتابي

* * *

وانتهى بنا المطاف إلى فندق يغلب عليه التجميل ، إن كان للتجميل

مكان بين أكواب الصهباء

جلس رفيقي وجلست بالقرب من جماعة يسكرون ويعربدون

جلست وأنا متهيب ، وجلس رفيقي وهو متهيب

أما أنا فتهيبت لأن هذه الجماعة تعرفني وربما كان أحدهم أباً أو

عما أو خالا لأحد تلاميذي ، وأنا مسئول عن كرامتي أمام هؤلاء
الناس .

وأما رفيقي قهيب لأن هذه الجماعة بها ثلاثة هو لهم رئيس
وأخذت أدرس الوجوه والشمال والتحصن لأصحح أغلاطي في
فهم الأدب العربي ، وهنا أصرح بأن الدراسات الفلسفية لا تطيب
لي إلا في مدينتي اثنتين : باريس وبغداد

أما باريس فأمرها معروف ، لأن جميع الوجوه هناك كانت
مألوفة لدي ، لأنني رأيت صورها في مؤلفات المبدعين من أقطاب
الأدب الفرنسي ، وأما بغداد فإني أرى فيها صور الرجال الذين أولعت
بدراسة آثارهم العلية والأدبية والفلسفية منذ أعوام طوال

أما القاهرة فليس فيها وجه رأيت صورته في كتاب ، لأن أدباء
القاهرة فلاسفة عظام لا تراهم إلا في مكانين : بغداد في العصر
العباسي ؛ وباريس في العصر المنصرم ، أو طلائع العصر الحديث ،
وربما تطرف فريق منهم فحدثونا عن أدب اليونان والرومان !
ثم يقول الرفيق الموصلی : الساعة صارت عشرة يادكتور ١١

فأخرج ساعتی من جیبی فإذا هي ١١

فأقول : بقي وقت ... ثم أعود إلى درس الوجوه من جديد
هذا هو الشعب العراقي ، الشعب الطروب الذي لا يشغله الجد

عن اللعب ، ولا يصرفه اللعب عن الجد

هذا هو الشعب الذي طال عهده بكفاح الأيام والخطوب ثم
بقيت عنده ذخيرة من الابتسام
ثم أخذ السامرون يغنون ، والعراقي إذا طرب غنى فأجاد الغناء
ولم تقع في أغانيهم كلمة بذينة ، ولم تنفرج شفاههم عن كلمة فيها
رائحة الفحش ، ولم يتوهم أحد أن المجلس قد يقع فيه ما ينافي الذوق ؛
هذا هو الشعب العراقي ، وتلك شمائله وسجاياه
فإن وقع منه ما يؤذيك فتذكر أن مياه الأنهار قد تقع فيها أحيانا
أقذاء ، وتذكر أن البدر لا يخلو من كلف ، وتذكر أن الأزهار قد
تحيط بها أشواك ، ثم تذكر أن الحياة فيها الشهد والصاب

يقع هذا ورفيقي متجمل متهيب ، ولكنه يخرج فجأة عن وقاره
ويغنى :

فيك ناس بالليل يشكو لك مواجعهم
بالله ياليل ما تبقاش تواجعهم
أجريت بالليل على الخدين مدامعهم
باتوا حيارى بطول الليل سهرانين

ياخوفي بالليل من طول المدى معهم
فأخرج علبة السجائر وأكتب فوقها هذا الموالم ، ثم أتذكر أني
كنت سمعته من رجل جالس متربع فوق جسر أبو العلاء منذ سنين ،

وكانى سمعته بالأمس فقد كان المغنى « ابن بلد » وكانت سيماء تشهد بأنه ذاق طعم الصببايا فى بولاق ، وأنه اكتوى بنيران العشق ، وقاسى لواعج الأشواق ، ثم يثب الخيال إلى آفاق بعيدة جداً ، فينتقل من بغداد إلى بولاق ومن بولاق إلى باريس ، فأتذكر أنى كنت أعطف أشد العطف على الدكتور الديوانى مدير البعثة المصرية فى باريس لسبب واحد هو أنه من مواليد بولاق ، بولاق العظيمة التى صنعت المدافع لتحارب بونا بارت ، والتى سمعت على جسرهما فى ليلة صيف :

لك ناس ياليل ييشكولك مواجمعهم

وقد تفضلت على الدكتور الديوانى فقصصت عليه هذا الحديث

فى سهرة من سهرات باريس فى سنة ١٩٢٨

ثم يقع ما هو أعجب : ذلك بأن أحد المعربين يحسب الرفيق الموصلى فى مصر يا ، لأنه يغنى موالا مصرياً ، فيقبل عليه ويقول : نحن فى العراق أربعة ملايين وعندنا قوة جوية ، وأنتم فى مصر ثمانية عشر مليوناً ولا تملكون قوة جوية تناسب عظمة مصر .

فأعرف أن أهل العراق لا يفكرون فى غير الحرب والقتال .

ويضحك رفيقى ويقول : ألا ترى كيف رأى العراقيون مصر يا ؟

فأجيب : والأغرب أن يروا سكان مصر ثمانية عشر مليوناً .

ويتدخل ذلك المعربد فيقول : إن سكان مصر في الواقع يبلغون
خمسة وعشرين مليوناً .

فأقول : أفصح يا أخا العراق
فيقول : إنما أعني سكان مصر والسودان .
آه آه آه

إن جنود العراق يذكروننا بالسودان ، ولكن أين من يسمع ؟
•••

ثم يقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يا دكتور
فأخرج ساعتى من جيبى فإذا هى ١٢
فأقول : بقى وقت

فأقول : مطابع بغداد تنتظرك
فأقول : أنا لها ، أنا لها ، لأنى أستثقل النوم فى الليل ، وهل
جئت إلى بغداد لأعرف فيها طعم النوم فى الليل ؟
ثم نخرج لنعود إلى منازلنا ، فيقترح الرفيق الموصلى أن نطوف
ببعض الملاحى

، فأقول لا بأس ، فهذه ليلة عيد ؛ وما أقل الأعياد فى حياتى !
وفى ملهى لا أسميه أرى صديقاً عذب الروح وفى يده كأس
ويدعونى إلى منادمته فأرفض لأنى سكرت من كأس أحزاني ،
ثم تقبل فتاة نديّة الجسم كأنها من دمياط فتدعونى إلى الرقص

فأرفض أن أرقص ، لأنى راقصت أشجانى

ويقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يادكتور
فأخرج ساعتى من جيبى فإذاهى الثالثة بعد نصف الليل ، فأصرخ :

نعم ، الساعة صارت عشرة !

صحيح ، الساعة صارت عشرة !

مؤكد ، مؤكدا ، الساعة صارت عشرة !

ثم نخرج ؛ ويجرى هذا الحوار فى الطريق :

— هل أستطيع أن أخبر أهل الموصل أنى قد قضيت نحو تسع

ساعات فى صحبة الدكتور زكى مبارك ؟

— حدث أهل الموصل عنى بما شئت فهم إخوان أعزاء

— ولايكن أدباء الموصل سيسألون عن أسباب النجاح الذى

ظفر به الدكتور زكى مبارك فى حياته الأدبية

— قل لهم إن زكى مبارك نجح فى حياته الأدبية لأنه رجل

يؤمن بأن رزقه بيد الله لا بيد الناس

— ثم ؟

— ونجح فى حياته الأدبية لأنه يعشق الصدق ، ويبغض الرياء

— ثم ؟

— لأنه يبذل دمه فى سبيل الوفاء

— ثم؟

— لأنه لم يقدم أية إساءة إلى أي مخلوق، وكان أصدقاؤه يكتبون له بأيديهم صحيفة الاتهام.

— ثم؟

— لأنه أحب كل بلد عاش فيه : فعشق سنتريس والقاهرة وباريس وبغداد.

— ثم؟

— قل لأهل الموصل إن زكي مبارك نجح في حياته الأديبة لأن اسمه زكي مبارك

ليلي المريضة في العراق

ليست مصرية وإنما هي عراقية

صديقي ...

لعلك تعرف أن من حقى أن أعتب عليك فللصداقة حقوق ،
ومثلك من يراعى شروط الوفاء

من هذا الكاتب الذى اسمه (محمد) والذى وجد من كرمكم
مايسمح له بأن ينشر فى الصباح أنى أجترئ على الحقيقة وأن ليلي
المريضة فى العراق ليست عراقية وإنما هي مصرية ؟

إنك يا صديقى تعرف أنى لست من كتاب الأفاضل حتى يتهمنى
هذا الكاتب بأنى أكتب قصة غرامية ، وتعرف أنى ما فكرت يوماً
فى أن أزاحم محمود تيمور أو توفيق الحكيم ، وإنما أنا طبيب أضعاه
الأدب فلم يبق أمامه إلا أن يقضى بقية عمره فى خدمة الحقائق
وأسارع فأقرر أن نتائج أبحاثى عن ليلي المريضة فى العراق كانت
من أصلح ما ينشر فى الصباح ، ولكننى خشيت أن تظنوها قصة
فقدمتها إلى الرسالة لأن صديقنا الزيات عاش مدة فى بغداد وعرف
أشياء من أخبار ليلي المريضة فى العراق

وقد حققت الأيام ما توقعته وسمحتم لأحد محررى الصباح أن

يشير الظنون حول ليلاى ، شفاها الله

على أننى أرى من الإنصاف أن أنص على أن صديقكم (محمد) كان
أكرم من صديقكم (خلدون) الذى يكتب فى جريدة الأهرام
ويسمر مع (الشناوى) فى بار اللواء

فصديقكم (محمد) يرتاب فى غراميات زكى مبارك لأن الذى يؤلف
كتاب النثر الفنى لا يتسع وقته للغراميات ، وأنا والله أخشى أن
يجيء ناس فيزعموا أن كتاب النثر الفنى من تأليف الدكتور طه
حسين ، وإن يكون هذا غريباً ، فقد نشرت عدة مجلات أن كتاب
(الأخلاق عند الغزالي) من تأليف الدكتور منصور فهمى ، وقد
يقول ناس فيما بعد إن كتاب (التصوف الإسلامى) من تأليف
الاستاذ مصطفى عبدالرازق ، فالذى صنعه صديقكم (محمد) كان من
الكرم والنبيل ، أكرمه الله ورعاه

ولكن تعالوا فانظروا ماذا صنع الاستاذ خلدون :

قدمت إليه نسخة من كتاب (ذكريات باريس) وهو كتاب
تعرفون قيمته الأدبية والاجتماعية ، وتعرفون أنه كان الطليعة
للمؤلفات التى نشرت بعد ذلك عن باريس ولندن وبرلين

فهل تذكرون ما صنع ذلك الصديق ؟ هل تظنون أنه أدى
واجب النقد الأدبى نحو كتاب كان ولا يزال أجمل ما خط كاتب
فى وصف باريس ؟

لم يصنع شيئاً من ذلك وإنما قال إن ذلك الكتاب يشهد بأن
زكى مبارك كانت له غراميات في باريس ، و زكى مبارك دميم
الوجه فلا يعقل أن تكون له غراميات

وأنا يا صديقي أعترف بأني لست مخلوقاً جميلاً ، وإن كانت ليلى
ترانى أجمل لإنسان ، ولكنى أنكر أن يكون وجهى دميماً جداً ،
إنما الوجه الديميم جداً هو وجه الأستاذ خلدون الذى يعدّ بحق
جاحظ هذا الزمان

وقد فكرت مرات فى أن أقترح على نقابة الصحافة - وكانت
موجودة يومئذ - أن تشتري وجهاً للأستاذ خلدون ، ثم عدلت عن
هذه الفكرة ، لأن صديقى وصديقكم خلدون يتلألاً وجهه
بالجاذبية ، وإن زعم ناس أن دمامة وجهه لاتطاق ، والعياذ بالله
ليس لي غراميات ، لأنى ألفت كتاب النثر الفنى ، كذلك يقول
الأستاذ محمد

ليس لي غراميات ، لأنى دميم الوجه ، كذلك يقول الأستاذ
خلدون .

وأنا والله راض بحكم هذين الصديقين .

ولكن ماذا صنعتكم فى إنصافى ؟

أنا بشهادتكم جميعاً من كبار المؤلفين ، وبشهادتكم جميعاً
لا أصلح للغراميات

فما الذى يمنع وهذه حالى من أن أكون مدير الجامعة المصرية
أو شيخ الأزهر الشريف

إن مقامى فى التأليف أعظم من مقام لطفى باشا والشيخ المراغى
فليس لأحدهما كتاب يشبه كتاب النثر الفنى ، وطفى باشا أجمل
منى ، على أرجح الأقوال ، أما الشيخ المراغى فله ابتسامة عذبة
تحدث عنها مرات فى مقالاتى بجريدة البلاغ .

حدثونى ماذا صنعتم فى إنصافى ، أيها الجاحدون !
أتحسبون أنى أقبل العيش فى الدنيا بلا غرام وبلا مجد ؟ هيهات ،
هيهات !

أما أعرف السبب فيما يغىظ بعض الناس من غرامياتى .
هم يروتنى أبتدع فناً جديداً فى اللغة العربية ، ويرون أنى انتهيت
منهم جماهير القراء ، ويعرفون أنى الكاتب الوحيد الذى يتلقى من
قرائه نحو سبعين رسالة فى كل أسبوع ، فهم يقولون بلسان الواعظ
الكذاب : احترس يا دكتور زكى فأنت تسوى سمعتك بهذه
الغراميات ، وأنت تضيع المستقبل الذى ينتظرك فى وزارة المعارف .
وكننت والله مستعداً لقبول هذه النصائح الغالية ، ولكن هل
أنصفى هؤلاء الناصحون وقد كنت بلا جدال أعظم المؤلفين فى
علم الأخلاق ؟ .

أحب أن أعرف من هم الناس الذين يستحقون أن أصطنع فى

معاملتهم هذا هو الرياء ؟ .

لقد أفنعتني عقيدتي بأن رزقي عند ربي ، وما أذكر أبداً أن الله عز شأنه عاقبني بالجوع ، فلتكن حياتي هي الشاهد على أن الأرزاق بيد الله لا بيد الناس .

وما أزعج أمتي أتقى الاتقياء ، فعلم ذلك عند ربي ، وإنما أستطيع أن أؤكد أنني أقوى ديناً وأصح عقيدة من بعض الذين تسنموا أعلى المناصب بفضل الرياء .

وأعود إلى صميم الموضوع فأقول :

إن الكاتب الذي أراد أن يشكك القراء في حقيقة ليلى زعم أن
(الاسطوانة) التي تصدح

يقولون ليلى في العراق مريضة

فياليتني كنت الطيب المداويا

زعم هذا الكاتب أن هذه أنشودة تغنيها مطربة ، لا أكثر ولا أقل ، كذلك والله قال ، وما أفترى عليه ، فمن كان في ريب من ذلك فليراجع العدد (٥٩٢) من جريدة الصباح

فما رأيه إذا أحاطه على ما سيشر في مجلة الرسالة من أخبار ليلى ؟ إنه إن أطاعني وقرأ تلك السلسلة فسيعرف أن السيدة نادرة لم تغن تلك الأنشودة بلا سبب ، ولولا الخوف من تبديد أسلوب القصة في مجلة الرسالة لهجات بنشر الحقيقة على صفحات الصباح ، وذلك

ما لا يرضيك ياسيد مصطفى ، وأنت من أعرف الناس بحقوق
الزملاء .

ثم ما ذا؟ ثم ما ذا؟

ثم يصرح صاحبكم بأن ليلاى مصرية لاعراقية وأنها تقيم بالزمالك
أهلا وسهلا ، وهل أنكر أن هناك ليلى تنتم بالزمالك وأن يبنى
ويدينها أشياء؟

هذا حق ، ولكن صاحبكم يفترى ولا مؤاخذة حين يزعم أنه
زارها معى بصحبة الدكتور سعيد عبده ، فمتى كانت هذه الزيارة؟
إننى لا أذكر أبداً أنه صحبني إلى ليلى المريضة فى الزمالك ، وإنما أذكر
أنه كان فى معيتى هو وسعيد عبده حين ذهبت لزيارة ليلى المريضة
فى مصر الجديدة ، وكان الذى دعانا لزيارتها أمير الشعراء شوقى
طيب الله ثراه .

صديقى

معذرة إليك إذا أطلت القول فقد ثارت شجرتى .

كان شوقى رحمه الله أراد أن يعرف بعض المستور من خلائق
النساء فدعا ثلاثة لزيارة ليلى . وأنا ولهم وثانهم محمد وثالثهم سعيد ،
وكنت يومئذ شيخا معمما ، شيخا ضئيلا دميما لا يقام له ميزان ،
وكان محمد وسعيد من أجمل الشبان فى القاهرة ، على ماضيهما السلام ،
فلما دخلنا على ليلى لم تأنس بوجه غير وجهى ، فهل كانت تنافق؟

ذلك ما زعمه صديقنا محمد وأخونا سعيد .

أما شوقي رحمه الله فصرح بأن عندي مزايًا تفنن النساء ، وتفضل
رحمه الله فأعطاني ثلاثين جنيتها أستعين بها على طبع كتاب (حب ابن
أبي ربيعة) ولولا تلك المنحة لعجزت عن إخراج ذلك الكتاب
الطريف الذي طبع ثلاث مرات .

يالوعة القلب !

وياغضبة الله على الأديب الذي أثار هذه الذكريات !

فقد كانت تلك السيدة تحب وتعشق

كانت تحب أبناءها وتعشق زوجها

وكان زوجها من الغادرين ، وأبناؤها من أهل العقوق

وكنت أستطيع أن أمزج هواها بهواي ، وأنا رجل قاتل النظرات ،

ولا أذكر أبدأ أني رميت سهمًا فطاش ، ولكن في صدري بقايا

من المروءة ورثتها عن أبي وجدى

وكذلك رأيت أن أترك تلك السيدة لزوجها وأبنائها ، ولكنها

— واحر قلباه — ماتت بعد ذلك بعامين اثنين

فإن سمعتم أن في مصر الجديدة شارعاً لا أمر به في الليالي المقمرة

فاعلموا أنه الشارع الذي كانت تقيم فيه تلك السيدة الحسنة ، على

روحها أطيب الرحمات

لا تذكروني أيها الأصدقاء بما عانيت في حياتي من لواذع

الوجدان ، وانسوني قليلاً لأنسى أحزاني ، فقد طال ما قاسيت من

شقاء الروح وعذاب الفؤاد

الى ليلى المريضة في الزمالك

سيدتى

أشكر لك مرة ثانية ما تفضلت به من الكلمات الطيبات التي
عطرت بها صفحات الصباح .

وليتك تعرفين كيف تقع كلماتك على قلبي ، إنها يا مولاتي تفعل
به ما يفعل الندى بالزهر الظمان ؛ وهو قلب مفطور مجروح ، عافاك
الله مما يعانى ا .

ليتك تعرفين كيف أتنسم العافية كلما قرأت كلمة لسيدة لها قلب
مثل قلبك ، فما تمثلت القلم في أناملك اللطاف وأنت تصوئينه إلى
صدرى إلا طار صوابى وانتشيت .

وليتك تعرفين مرة ثالثة أنتى لا أملك في مجازاتك على ما تبدين
من رفق ولطف غير الاعتراف بأنى المذنب ، وأن إليك غفران
الذنوب .

سيدتى

أتأذنين للعبد المذنب أن يحاسب سيدته الكريمة بعض الحساب؟
إن أذنت فأنا أسأل : كيف جاز لك أن تدافعى عن الأستاذ محمد؟
ألم تقرئى ما كتب فى الصباح؟ ألم تنظري كيف أهان الحب فجعله
ضرباً من اللهو والمجون؟

أنا ياسيدتي لا أجهل فضل هذا الصديق ، ولن أنسى مروءته
ما حيت ، ولكنني أراه في حاجة إلى تقويم و تثقيف ، وسأدخل في
دمه شيئاً من الحديد ، وسيدكرني بالخير يوم يعرف أني أنشأته
خلقاً جديداً .

ما هذا ؟ أراني أخطو إلى مكاشفته بما في نفسي ، لا ، اسمح لي
أن أحبس قلبي ، فعندي صواعق سأصعبها فوق رأسه إن حدثته
النفس بمصاولتي ، وأرجوك أن تأذني بطرده نهائياً من جنة الحب ،
فلا يعود إليها إلا إن تاب وأناب ، ولست باليائس من أن يتوب
وينيب ، فعطفك عليه خليك بأن يغمر قلبه في كوثر الصفاء .

لا تؤاخذيني ياسيدتي ، فقد امتلأ قلبي بالحمد على هذا الصديق ،
لا تؤاخذيني فقد كنت أظن أنني رفعت قدر الحب بعد أن شغلت
قلبي وقلبي بالحديث عنه عشرين عاماً أو تزيد ، ثم عرفت وأسفاه
أن في مصر كاتباً اسمه الأستاذ محمد يستييح لنفسه أن يقول إنه زار
معشوقة الدكتور زكي مبارك وإنما أطلعتة على الخطابات المعطرة
التي يرسلها من بغداد .

ألم تقرئي هذا الكلام ياسيدتي ؟ ألم تعجبي من الجرأة التي زينت
له أن يكتب خطاباً على لساني ليزعم أنه خطاب كتبه في بغداد إلى
ليلاي في الزمالك ؟

أرجو أن تعرفي أن هذا المزاح لا يضايقتني لأنه لا يفضحني أمام

أحد ، فكل كاتب يمكن أن تزور باسمه رسائل الحب ، إلا زكى مبارك ، لأن لي أنفاسا حرارا يعرف الناس بها أدبي ، ولا يستطيع الأستاذ محمد ولا ألف من أمثاله أن يلفقوا على حسابي ما يشتهون . ولكن لا بأس ، فهذا صديق يثق بالسلامة من شر غضبي ، ولو كنت في القاهرة لأدبته بيدي ، فإن سمعت في الصيف المقبل أنني قتلت رجلا فسيكون ذلك الأفاك الأثيم .

أما الدكتور سعيد عبده فلا يهمني من أمره غير الاطمئنان على صحته الغالية ، فقد رأيت يتوكأ على عصا ، والدنيا سخيفة كل السخف حين تسمح بأن يتوكأ الدكتور سعيد عبده على عصا ، ذلك الفتى البسام الذي جاد قلبه بأجود الرسائل وأطيب الأفاصيص .

ثم ماذا ياسيدتي ؟

ثم تدليني على منزلك في الزمالك فتقولين :

« فاذا سرت يمينا ثم شمالا تجد بيتي في واجهتك ينهض على أعمدة من البلور وتصعد إليه على درجات من المرمر ، فإذا سرت في أبهائه فانت مسحور مأخوذ مهور الأنفاس »

الله ، الله !

هذا صحيح ، وإني لأتذكر أني زرتك ياسيدتي في ذلك البيت ، ولكنني أنكر أني أسير يمينا ثم شمالا ، فقد كنت أسير إليه شمالا ثم يمينا ، ولكن قولك أصدق ، فقد أكون نسيت لطول العهد ، ولكثرة

ما يحمل القلب من هموم وأحزان ، عافاك الله مما أعانى .

ثم تقولين :

« طالما تركت لك يدي لتقبلها ، وهذا لم يمنع من أن تأنس
روحي إلى روحك »

فأنت تشهدين بأنى قبلت يدك الكريمة وأن روحك أنست

بروحي .

فهل تعرفين معنى ذلك ؟

معناه يامولاتى أنى ظفرت منك بعطيف من الحنان ، وهذا يزيد
فى وقدة الشوق ، فما وردت مورداً من موارد الحب لإطال وجدى
به وشوقى إليه ، ولا رشفت ثغراً إلا ببقى عطره فى فى ، ولا
استروحت ظلاً من ظلال الحسن إلا ببقى روحه فى فؤادى ، ولا
رفعت بصرى إلى وجه مشرق إلا ببقى ضياؤه زاداً شهياً تقناته عيناي ،
ولا لعبت أمانلى فى الجدائل المعطرة إلا ببقيت صورة هذا العيب
الظريف مدار أوهامى وأحلامى .

سيدتى

إن خطابك لا يخلو من مزاح .

ولكن هل يؤذنى هذا المزاح ؟ وكيف وهو يشهد بأنك كتبت
ما كتبت وأنت تبسمين ، ولو كانت البسمات بما تدفع فيه كرائم
الأمر اللبعت عقلى لأشترى لك بسمه أو بسمتين ، أنا المحب الصادق

الذي يبذل الدمع والدم في سبيل الملاح .. وهل أبقى لي الهوى عقلا
يشترى أو يباع؟
سيدتى

كيف أنت الآن؟ ألا يزال وجهك الجميل يشع بذلك النور الوهاج؟
كيف أنت بين وسائد الدمقس والحريير؟ كيف أنت فوق تلك
الأريكة التي تختال حين تحوى جسمك الفينان؟
ثم تقولين ياسيدتى إنك ما أعطيت ميعاداً لأحد، وإنك إنما
تخرجين وحدك لتنسم الهواء العليل، ولتشرفى على الدنيا الصاخبة
من وراء حجاب

وهو كذلك، ولكن ما رأيك إذا حملنى الطيش فقلت إننى قادر
على الظفر منك بألف ميعاد وميعاد؟ لا تعجبي ياسيدتى، فسيأتى يوم
يشتاقي فيه قلبك النديل إلى صحبة قلب نديل. سيأتى يوم تعرفين فيه
أن شمائلك العالية في ظمأ إلى شمائل عالية، سيأتى يوم تعرفين فيه أن
الكبرياء على رجل مثل لا ترضاه حرائر القلوب

لقد صرحت بأنك تشتاقين أحياناً إلى رؤية الدنيا الصاخبة، إن
صح ذلك فسيحملك الشوق إلى رؤية قلبي، ففيه يا مولاتى مواكب
للأفراح والأحزان فى قلبي يا مولاتى نعيم وجحيم، وفيه وديان
وأنهار وبحار وجبال، وفيه الشهد والصاب، والهدى والضلال
فى قلبي يا مولاتى ما يشوق الأعين وما يفزع القلوب، والفرجة

على قلبي يدخل إليها الملاح بالمجان ، وهو قلب خطر هرب من شره
الكرام السكاتبون ؛ فتعالى أنت للتفرج عليه : فالمرأة أجراء من
الملائكة وأجراء من الشياطين !

أما الشاب الظريف الذي تزعمين أنه شفاك فأنا أسمح له بأن
يقطف من روضك ما يشاء ؛ لأنني أعرف أنه لا يزحزحني عن
مكاني ، وأفهم أنه في حاجة إلى رعايتي ، ويسرني يامولاني أن يكتبوي
بنار الحب كما اكتويت ، ليصير فيما بعد من كبار الرجال
أما غيرتك من المرأة العراقية فسأعود إليها في غير هذا الخطاب
والسلام

الادب والاخلاق

حضرة الأستاذ محرر المكشوف

تحيتي إليك وإلى زملائك الاعزاء

وبعد : فإنني أصارحك بأني لم أرض عما نشرته وه عنى في مجلتكم
ولكن لكم في بغداد أصدقاء يؤكدون أنكم لا تريدون غير إيقاظ
الحياة الأدبية . فإن كان ذلك ما ترمون إليه فعلى الرحب والسعة ،
واشتموني كيف شئتم ، فأنا أو من بأن كل سطر يقرأ هو سهم موجه
إلى صدر الجهل .

ولكم أيضاً أصدقاء في بغداد يؤكدون أنكم تحترهون حرية
الرأى ، فإن صح هذا فأنا أشكوكم إليكم . ولعلكم تفضلون بنشر
هذا الخطاب ، ثم تعلقون عليه بما توجب أخلاق الرجال .

أولاً - صدقتم من يزعم لكم أنى قلت إن الأديب فى حياته العامة
يعامل الناس بالنلون والتقلب ، ولوراعيتهم أصول النقد لعرفتم أنه من
المستحيل أن يصدر عنى هذا الكلام .

ثانياً - سمحتم لأحد الشبان أن يحرص على أهل العراق فيقول
إن الدكتور زكى مبارك يزعم أنه الطبيب الوحيد الذى يقدر على
مداواة لىلى المريضة فى العراق ، مع أن فى العراق كثيراً من

الأطباء النطاسيين ، وسيغار أهل العراق على كرامتهم فيحاسبون
الدكتور مبارك أشد الحساب !

ولم تكتفوا بهذا ، بل نقلتم الدسيمة الخسيسة التي نشرها سعيد
الريان في مجلة الرسالة ، إذ يزعم في سخفه أني أنكر خصومتى للرافعي
لأتقرب إلى أهل العراق . وأنا موقن بأن الأستاذ الزيات لم يراجع
تلك الكلمة ، فمرت مرور الباطل على مساعديه .

وأحب أن يعلم من في مصر ومن في لبنان أني لا أتودد إلى أهل
العراق ، وإنما أحمد الله عز شأنه على أن شرفني بخدمة الأدب العربي
في العراق ، وأحب أن تعرفوا جميعا أن زكي مبارك لا يخاف إلا ربه
ولا يؤذيه أن تحاربه جميع الجرائد والمجلات في سائر الأقطار
العربية .

ثالثاً -- عجبت من أن أرد عليكم في مجلة الصباح لأنها في رأيكم
مجلة المطربين والمطربات . وأحب أن أقول لكم بعبارة صريحة
مكشوفة إنني أعرف صاحب مجلة الصباح منذ ثمانية عشر عاما ،
فلم أعرف فيه غير الأدب والصدق والوفاء ، وأعرف المحررين في
مجلة الصباح معرفة تكفي للثقة بأماتهم ونزاهتهم . ومن أجل ذلك
أكتب في مجلة الصباح من حين إلى حين ، بل أرى من الواجب أن
أساهم في تحريرها كلها ساعدت الظروف .

ومن التحكم أيها السيد أن تطلبوا مني أن أرى الدنيا بعيونكم ،

ومن التحكم أن تقولوا إن المجلات التي تمثل مصر هي الرسالة
والمقتطف والهلل ، فهذه حقاً مجلات جيدة ، ولكن في مصر
عشرات من المجلات تصور جوانب كثيرة من المجتمع ، ولا يمكن
الغض من قيمتها الأدبية إلا إذا أنكرنا الحقائق على نحو ما تفعلون
في بعض الأحيان .

رابعاً -- زعمتم أني أكدت أن المودة في لبنان مودة عابرة كسحابة
الصيف ، وهذا منكم تحريف لكلامي ، وهو تحريف لا يقع فيه
رجل سليم الطوية .

ويهمني والله أن أسألكم : كيف جاز لرجل مثلي أن يقضى في
مدينتكم ليلة واحدة ولا يسلم من الأقاويل والأراجيف بالرغم من
حرصه الشديد على التعرف إلى من فيها من الأدباء ، مع أني صحبت
جماعة من أدباء تونس سنين عديدة ولم تمسني منهم كلمة سوء ، ومع
أنني أقمت في بغداد أشهراً وأنا أصاول وأجادل كل يوم ولم أسمع
من العراقيين كلمة ينفر منها الذوق .

خامساً -- زعمتم أني أقيس الأدب بمقياس الصداقة ، ونسيتم
جهودى في تحرير الأدب من النزعات الشخصية ونسيتم أني أول
من رفع أعلام النقد الأدبي في العصر الحديث .

سادساً -- أكدتم لقرائكم أنكم تفرقون بين الأدب والصداقة
وأنى سأجد فيكم دائماً أصدقاء أوفياء يعربون عن عواطفهم الخالصة

بالأعمال لا بالأقوال . فأين مصداق ماتقولون وقد حملتموني على
الندم إذ تعرفت إليكم ، وسليت عليكم ؟ ألا ترون أنه كان الأتفع أن
أمرّ بمدينة بيروت فلا أرى غير الجدران ؟ ولكن ما قيمة الجدران
بدون الرجال ؟ وهل كانت بيروت أجمل مدينة حتى نضيع الوقت
بالمرور عليها ؟ إن يوماً واحداً في الإسكندرية أجمل من قضاء
الدهر كله في بيروت ، فأعزّوا مدينتكم بحسن الأدب ، يا أدباء
لبنان ، والسلام .

الشهرة مرض مزعج !

صديق

رسالتى فى هذه المرة قصيرة جداً ، وهى فى التألم من مرض الشهرة ، ذلك الداء العضال الذى لا يرجى منه شفاء .

الشهرة مرض مزعج ، ولا يعزىنى إلا شىء واحد ، هو أنى لم أسع أبداً إلى الشهرة ، وأنت تعرف أخلاقى : أنت تعرف أنى لم أنفق فى حياتى درهماً واحداً فى سبيل الشهرة كما يفعل من يشتهرون الشهرة بوسائل مختلفات !

ولكن هذه الشهرة الجذابة التى يبذل فى سبيلها الناس ما يبذلون أصبحت تزعجنى وتعطل أعمالى ، بحيث أصبحت وأمى لا أفصح بيتى لطارق وإن طال وقوفه بالباب ، وما أكثر من يطرقون بابى ثم يياسون !

وفى مساء هذا اليوم وقع حادث طريف هو من جنائبات الشهرة فقد دخلت المنزل الذى أقيم فيه فرأيت جماعة من السكان ينتظرونى ، أندرى لماذا؟ ليقولوا فى صوت واحد :

يحيا شارع فؤاد ! تحيا الزمالك ! تحيا سنترىس ! تحيا الرسالة !
يحيا الصباح !

وقد ظننتهم سكارى فدخلت وأغلقت الباب بالمفتاح ، وشرعت
في أعمالى التى مستعرف بعض شواهدها يوم ألقاك ، وظلوا هم
يهتفون حتى يسوا من خروجى إليهم ، و كنت على الرغم من
أشغالى أسمع فلا أراهم ينطقون بغير الجميل ، وهل ينطق العراق
بغير الجميل ؟

والآن وقد فرغت من أعمالى فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل
أسمع فلا أسمع شيئاً ، فأفهم أن جيرانى ناموا وعلى شفاههم يحيا
شارع فؤاد ، تحيا الزمالك ، تحيا سنتريس ، تحيا الرسالة ،
يحيا الصباح !

ثم أتذكر أن فى مصر ناساً ينامون ملء الجفون ولا يخطر ببالهم
أن فى العراق رجلاً مصرياً يشقى ويكدح ليجعل لمصر صوتاً
فى العراق

متى تسكرون لتقولوا كلمة الحق ، كما سكر جيرانى فقالوا
كلمة الحق ؟

سهرات المسيو دى كومنين

مضت أعوام وأعوام وأنا لا أعرف التسويد ولا التبييض ،
فكيف اتفق أن أكتب هذه الكلمة خمس مرات ، وأتردد في نشرها
أكثر من عشرين مرة ؟؟

لقد مزقت ما كتبت ، وعدت إلى فطرتي في الإنشاء ، عدت إلى
الفطرة السليمة النقية التي صقلتها باريس ، على أيامها أزكى التحيات
وأنا أكتب هذه الكلمة طوعاً ولأواصر المتينة التي تجمع بيني
وبين المسيو دى كومنين ، فإن رضى عنها فذلك ما أرجوه ، وإن
غضب فليست أول مرة أحتاج فيها ذلك القلب النبيل .
ومن هو المسيو دى كومنين ؟

كان التعارف في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨ بعد عودتي من باريس
للمرة الثانية ، وكان الذي تفضل بالثناء علىّ عند مدير الليسيه رجلان
من أساتذتي ، هما المسيو باباني والدكتور ضيف ، وكان المسيو
دى كومنين في ذلك العهد مراقباً عاماً لمعهد الليسيه .

ولم يمض أسبوع واحد حتى أصبحنا صديقين ، وهي صداقة
لا أعرف كيف صرت لها أهلاً ، فقد غمرني هذا الرجل بأفانين

من العطف ما أحسبه تفضل بها على أحد سواي ، ومضت المودة
تكبر وتعظم وتضخم حتى صار من حقي أن أدخل بيته حين أشاء
ولو بعد نصف الليل .

ولم تقف الصداقة عند هذا الحد ، بل مضى الرجل إلى أهلي في
سنتريس فصادقهم وأحبهم ، وتعلق بهم وتعلقوا به أشد التعلق ،
فكان يسأل عنهم ويسألون عنه في كل حين .

واشتدت الصداقة بينه وبين أبي فكانا يتعانقان عند اللقاء ، ويأنس
كلاهما بصاحبه أنساً شديداً ، مع أن أبي كان يجهل الفرنسية ،
والمسيو دي كومنين يجهل العربية .

ولما مات أبي رحمه الله عزاني المسيو دي كومنين ببرقية مطولة
جداً ، ثم تجشم الانتقال إلى سنتريس ليعزى أهلي .
وأرجع إلى سهراتنا فأقول :

كان التكليف ارتفع بيني وبين هذا الرجل العظيم ، فكنيت أمضى
إليه قبيل العشاء ، وكان لي دائماً على مائدته مكان محفوظ ، وكان
للحديث شجون وشجون ، فمكننا نتكلم في كل فن ، كنا نتكلم في
الفلسفة وفي الأدب وفي التشريع ، وما أذكر أبدأ أن هذا الرجل ضاق
علمه أو خياله عن شيء ، ومن المؤكد أن هذا الرجل له تأثير شديد في
حياتي الأدبية : فعن طريقه تعلمت ما فاتني أن أنقله في السوربون .
كانت سهراتنا أول الأمر في منزله بشارع خلفاء ، ثم صارت

في منزله بشارع قصر العيني ، ثم صارت بمنزله في عمارة الليسيه ،
وكنت أنا قطب الدائرة في تلك السهرات ، ولا أدري كيف اتفق
ذلك ، فما أعرف أبدأ أن المسيو دي كومنين أحب إنساناً في مصر
كما أحبني ، ولا أعرف أبدأ أن المسيو دي كومنين اشتاق إلى صديق
حين يغيب كما كان يشتاق إلىّ حين أغيب

وفي تلك السهرات كان يتوافد إلى المنزل عشرات من أقطاب
الرجال فيسمرون كيف شاءوا ثم يخرجون ، وأبقي أنا ، أبقي إلى
أن يفوتني المترو ، فينزل معي المسيو دي كومنين ويصحبني بسيارته
الأمينة إلى منزلي بمصر الجديدة .

وقد طالت صحبتنا وطالت ، وعرف المسيو دي كومنين ما ظهر
وما خفي من شؤوني فكان يصادق من أصادق وبعادي من أعادي ،
وقد مرت بي ظروف حرجة جداً لم أجد فيها من يواسيني غير ذلك
الصديق العظيم .

وفي أحد الأمسية كنت في مجلس أنس مع جماعة من الأصدقاء
في صيف سنة ١٩٣١ ولكن المجلس تكدر عليّ بلا سبب أعرفه
فقضيت السهرة وأنا حزين ، وفي الصباح عرفت السبب فقد ذهبت
إلى المسيو دي كومنين فوجدته في صورة أخطر وأفتك من صورة
الأسد الغضبان ، ورأيته قد كتب إلىّ خطاباً سوده وبيضه نحو عشر

مرات ، وعند العتاب عرفت أن جماعة من زملاء زاروه في المساء وترجموا له كلمة نشرتها في جريدة البلاغ وفيها أن الفرنسي متحول متقلب لأن جو فرنسا متحول متقلب ، وأنه كما يجب عليك في يوم الصحو أن تحمل مطريتك لئلا تمطر السماء على غير موعد فكذلك يجب أن تحترس من الفرنسي البسام لئلا يثور على غير موعد .

فقلت : وما الذي يزعجك من هذا التصوير الطريف يامسيو دي كومنين ؟

فقال : التصوير لم يزعجني وهو يدل على ذكاء ، ولكن الذي أزعجني ألا تحب فرنسا من أجل صديقك المسيو دي كومنين كما أحب مصر من أجل صديقي زكي مبارك .

وكان أعظم درس تلقيته في حياتي فصرت لا أرى البلاد إلا في صورة من أعرف فيها من الأصدقاء .



وبعد سنين من هذه المودة الغالية دخلت منزلي فعلمت أن المسيو دي كومنين طلبني بالتليفون أكثر من عشرين مرة فضيت إليه مسرعا فقابلني باسماً وهو يقول : تعال ، تعال ، تعال عندي خبر مهم جداً ، جداً ، عندي خبر يشرح صدرك . فقلت : هات ما عندك . فقال : يجب أن تعرف أن لمصر ملكاً عظيماً .

وكان ذلك في اليوم الذي تشرف فيه المسيو دي كومنين
بإعطاء أول درس في الأدب الفرنسي لحاضرة صاحب الجمالة
الملك فاروق

وبعد أشهر افتتح معهد اللبسيه بمصر ، وعين المسيو دي كومنين
مديراً لذلك المعهد ، فابتسم وقال : أصبحت جارك يادكتور مبارك
وبعد أيام طلبتني حكومة العراق فتذكرت نصيبي من سهرات
المسيو دي كومنين ، ذكرت نصيبي من تلك السهرات في حسرة
ولوعة ، ففضيت إليه وأنا أرجو أن يصدر أمره العالى بمنعى من
السفر إلى العراق ، ولكن الرجل أخلف ظني ، فقد قال : إن سفرك
إلى العراق واجب يادكتور مبارك ، لأنك شغلت نفسك أعواما
طويلة بأدباء العراق ، ورؤية تلك البلاد تعود عليك بأعظم النفع ،
ولو أنك فكرت في السفر إلى فرنسا لمنعتك لأنك عرفت
فرنسا وعرفتك

ثم دعاني المسيو دي كومنين إلى وليمة عشاء قبل الفراق
ويا لها من سهرة وياله من عشاء !!
لم يكن عند المسيو دي كومنين غير جملة واحدة يرددها وهو
محزون :

«لقد فرحت باننقالى إلى مصر الجديدة لا كون بجوار الدكتور مبارك وما كنت أعلم أن الأقدار ستحكم بفراق الدكتور مبارك» وفي اليوم التالى نشر الجورنال ديجيت أنى مسافر إلى العراق فلم يبق فرنسى يعرفنى بالقاهرة إلا وهو يسأل بالتليفون كيف أسافر وأترك المسيو دى كومنين

وكانت أبلغ تحية المسيو كازاتى الذى لم يرنى غير مرة واحدة وأنا اليوم أعسد الأيام والليالى لأعرف متى ألقى المسيو دى كومنين

فما هذا الضعف النبيل الذى يربطنى بأصدقائى إلى هذا الحد ؟
ما هذه العواطف التى تقض مضجعى وتشرد نومي ؟
سنلتقى بإذن الله يامسيو دى كومنين

سأعود إلى المنزل الذى تشهد أحجاره وأشجاره بأننى أكرم صاحب وأشرف صديق

سأعود إلى الصديق الذى لم يكن يثق بأحد سواى
سأعود إلى الصديق الذى عميت عينيه عن عيوبى فكنت عنده
أعظم الرجال

سأعود بإذن الله إلى الرجل الذى يتحلى بأخلاق الملوك وكان
أجداده من الملوك

سأعود أذناى إلى الأنعام الفرنسية التى يجود بها ذلك
القم المعسول .

مسيحود لساني إلى الانطلاق بلغة أناطول فرانس في حضرة

المسيو دي كومنين

سأسهر مع المسيو دي كومنين في سنتريس ، وليكن كيف وقد
مات أبي؟ إن موتك يا أبتاه حرمني لذة الشوق إلى الأعياد
والأفراح ، فاشهد عند ربك أتى من الأوفياء .

غرام «مى» بالرافعى

قالت مجلة المكشوف :

كان الدكتور زكى مبارك قد صرح لاحد الادياء في بغداد أن لا صحة البتة لما زعمه الاستاذ محمد سعيد العريان من غرام الرافعى بمى . وكان من المنتظر أن يؤيد الدكتور مبارك تصريحه هذا بوقائع صريحة تنفي هذا الغرام الذى شككنا فيه منذ اللحظة الاولى لاسباب لا مجال للتبسط فيها الآن .

ولكن الدكتور مبارك آثر البقاء على الحياد فى هذه المعركة ، مع أنه اعتاد خوض معارك أقل شأنًا من هذه . ولم كان خروجه عن هذا الحياد مفيداً لو عرف ! .

إلا أننا قرأنا فى عدد الرسالة ، الاخير كلمة للدكتور مبارك حول ما ينشره الاستاذ العريان عن خصومات الرافعى استطراد فيها الكاتب إلى ذكره فلانة ، - أى مى - فقال : « وقد آذاني ما كتبه (والضمير عائد إلى الاستاذ العريان) عن فلانة ، التى جلست معى جنباً إلى جنب أربع سنين فى الجامعة المصرية ، وعرفت من شؤونها ما لا يعرف . »

ووقف الدكتور مبارك عند هذا الحد من كلامه عن « مى » ، وعلاقة الرافعى الغرامية بها . فهل يعنى ذلك أن الاستاذ العريان تخيل هذه العلاقة ، أم يعنى أن هذه العلاقة قامت بين الرافعى ومى على غير الشكل الذى يصفها فيه الاستاذ العريان ؟ .

أما الاوساط الأدبية التى تتبعت فصول الاستاذ العريان فتطالب الدكتور مبارك بإفصاح عن فكره ، لأن ما كتبه حول هذه المسألة غامض ، ولا يفيد شيئاً . ولعله يغتم هذه الفرصة لبسط ما يعرفه من شؤون « مى » ، فيلقى نوراً جديداً على هذه الناحية الطريفة فى شخصيتها الأدبية .

حضرة الأستاذ محرر المكشوف .

أقدم إليك أصدق الشوق إلى لقائك ، فإن اللحظات التي قضيتها
عندك لم تكن كافية للتعرف إلى أدبك ولطفك ، وأعتذر عن
الجواب الذي يفصل ما أجملته في الكلمة التي نشرتها بمجلة «الرسالة»
عن غرام مي بالرافعي ، وهو الغرام الذي تخيله أو ادعاه حضرة
الأستاذ سعيد العريان .

وأنت تعرف أني لا أبالي المعارك القلبية ، ولكن موقفي في هذه
المسألة دقيق ، لأنني قد أتهم الرافعي ، رحمه الله ، بالتزيد وسوء
الأدب ، إن صحت رواية العريان ، وكان للرافعي أن يحب من يشاء ،
ولكن القول بأن مي أحبته وأغرمت به وتهافتت عليه ، كلام لا يقول
به إلا إنسان مخبول .

بقي الكلام عن سرائر مي وكانت لها سرائر من الحب الدفين ،
فهل ترى من الذوق ، ياسيد فؤاد ، أن نفصح عن هذه السرائر تلبية
لما سميت أنت رغبة الأوساط الأدبية ؟ .

لقد حدثتمونا أن مي لا تزال صحيحة ، فلتعرف في صحتها المنشودة
أن في الدنيا أصدقاء نبلاء يبغضون اللغو والفضول .

اعذرني أيها الصديق ، إذا طويت ما أعرف من شؤون الآنسة مي
وقد صحبتها أربع سنين في الجامعة المصرية يوم كانت أطيب من
العطر ، وأرق من الأملود المطلول .

و غضبة الله على الأدب و الأدباء إذا استطاعت الألسنة أن تمضغ
ذلك العرض النبيل ! .

أيها الزميل

أرجو أن تذكر أن الذي كتب ذلك الكلام هو أديب عريان ،
و بعض أهل العري لا يستحون ! .

هذا ، و لا يفوتني أن أشكر من أنطقوني بما لم أقل يوم مررت
على بيروت ، و كان اختراعهم فرصة لمناوشة الأقلام على صفحات
« المكشوف » ، فقدماً قيل :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلحت

جعل الله بلادكم من حصون اللغة العربية أبد الآبدين .

و تقبل تحية المشتاق إليك و إلى إخوانك المحررين في مجلة

« المكشوف » .

غزال يترنح في شوارع بغداد

صديقي

هاك القصة الآتية :

استأنفت أعمالي بالأمس في الساعة الخامسة بعد الظهر ، وما زلت أدرس وأراجع حتى رأيتني في الساعة الثانية بعد نصف الليل فهالني الأمر ، لأنني قضيت تسع ساعات في نفس واحد ، وأسرعت فأويت إلى فراشي ، ولكنني استيقظت قبل الشروق ، فعدت إلى العمل من جديد ، وظللت كذلك حتى الظهر ، فلم يكن بد من الطواف على شاطئ دجلة لأريح أعصابي ، فكانت تمر السيارات فيسلم عليّ راكبوها بدون أن أعرفهم فأقول في نفسي : هؤلاء أهل ليلي المريضة في العراق !

وفي رجوعي إلى البيت رأيت رجلا يقود غزالا في شارع الرشيد ، اغزالا وحشيا من سكان الصحراء ، فاستوقفت الرجل وقلت يا عمي ، بكم تبيع هذا الغزال؟ فقال : تريد كلمة واحدة؟ فقلت : نعم ! فقال : ثمنه ثلث دينار . فاستصغرت الثمن وتجاهلت كلمته ثم قلت : ثمنه دينار؟ فقال : نعم . ثمنه دينار . فمددت يدي إلى الغزال لأرى عينيه فقد طال عهدي بعيون الظباء ، ولكن الغزال كان يرتعد من الخوف ! وهي أول مرة تخافني فيها الظباء !

ولم تمض لحظة حتى اجتمع من حولنا الناس ، وكان في نيتي أن
أشترى ذلك الغزال ، ثم تذكرت أن الظباء تأكل حب القلوب ،
وتذكرت أن قلبي لم تبق منه بقية يعيش منها الظباء
ولاحظ الرجل ترددي فقال : إن هذا الغزال لا يشرد أبداً ،
فهو يترك في حوش البيت بلا خوف

وعندئذ وجدت الفرصة للتخلص فوضعت فمي على أذن الرجل
وقلت (أنا أعرف يا عمي أنك مستعد لبيع هذا الغزال بثلاث دينار ،
وهذا المبلغ لا يضايقني ، ولكنني أحب لك الخير وأرجو أن تبيعه
لغيري بدينارين ؛ أنت قلت إنه غزال لا يشرد ، لتجذب إليه
الراغبين ، والأصلح لك يا عمي أن تقول إنه غزال شرود لترتفع
قيمته في أعين الراغبين)

وما كدت أنفحه بهذه النصيحة حتى مضى وهو يصيح : غزال
شرود لا يقيم على عهد ، ثمنه عشرون ديناراً فقط ، فأين من يعرف
قيمة الظبي الشرود !!

أسئلة أدبية

موجهة إلى أستاذ الأدب العربي في دار المعلمين العالية بالعراق

الأستاذ الدكتور زكي مبارك

نرجو من الأستاذ الدكتور زكي مبارك التفضل بالإجابة على

الأسئلة التالية :

١ - من هو الشاعر الذي تعتقدون بحق وإخلاص أنه أشعر

شعراء العربية في الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

٢ - من هو الأديب الذي تعتقدون بحق وإخلاص أنه

أحسن أدباء العربية في الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

٣ - ما هي الأسباب الرئيسية التي أخرجت النهضة الأدبية في

العراق ، ثم ما هي الأسباب التي تساعد على النهضة الأدبية في

العراق ؟ .

٤ - مارأيكم الصريح في الصحافة العراقية اليومية والأسبوعية

وهل تقوم بتأدية رسالتها ، وما هو السبيل إلى رقيها ؟ ؟

جريدة الهدف

لكل سؤال يابئين جواب

حضرة الأستاذ محرر الهدف

قرأت أسئلتك . وهي حيلة صحفية لطيفة . ولكن يظهر أنك تريد أن تجرني إلى ضروب من الجدل تنفع جريدتك وتضيع وقتي ، كما يصنع معي الصحفيون المصريون ، أراني الله وجوههم بخير وعافية .

فما رأيك إذا أجبتهك إجابة قاطعة تضيع فيها حيلتك هذه المرة ؟

السؤال الأول : من هو الشاعر الذي تعتقدون بحق وإخلاص أنه أشعر شعراء العربية في الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

وأجيب بأن هذا السؤال يشهد بأن فيكم رجعة إلى العقيدة التي كاد يتفرد بها الشرق وهي عقيدة التوحيد ، فالشركيون كانوا أول من آمن بالوحدانية ، وحدانية الله ، حتى قال القائلون إن مصر سبقت أمم الشرق إلى التوحيد بفضل الملك الشاعر أختاتون .

وأنا بحمد الله أو من بأن الله منزه عن الشرك . ولكي أكره أن أكون «موحداً» في الآداب والفنون ، فلا يسوغ في ذهني أن

يقال : من هو أشعر شعراء العربية ؟ ومن هو أعظم كتاب العربية ؟
ومن هو أفصح خطباء العربية ؟

وقد اتفق لي من قبل أن أحارب مجلة الحديث الحلية حين
زعمت وزعم بعض قرائها أن الدكتور طه حسين أكبر أديب ،
فقلت إن الدكتور طه أشهر أديب وليس أكبر أديب .

وكننا في مصر نجعل شوقي أمير الشعراء ؛ ولكنكم لو رجعتم
إلى الجرائد والمجلات لرأيتم مئات المقالات في الثورة على ذلك
اللقب مع ما تعرفون ويعرف العرب جميعاً من عظمة شوقي .

والرأى عندي أن يقوم فريق من الناقدین بالبحث عن الشعراء
المغمورين فقد تكون فيهم مواهب يقتلها الخمول ، وقد اقترحت
مائة مرة ومرة أن يؤلف كتاب يجمع الأطايب من الشعر
الحديث في جميع الأقطار العربية على نحو ما صنع الثعالبي في القرن
الرابع ، ولكن يمنع من ذلك أن العصر الحاضر ليس فيه رجل
واحد يملك من الإخلاص ما كان يملك الثعالبي ، فأهل هذا العصر
يغاب عليهم الحمق ولا يحب أحدهم خيراً لأخيه ، ولا ينبغ النابغ
في زماننا إلا إن كان فيه من الحيوبة ما يرغم حاسديه على أن يخلوا
له الطريق .

وقد اتفق مرة للدكتور عبد الوهاب عزام أن يثنى على الرافي

في مجلة الرسالة ثناء مستطاباً ثم حدثني بعد ذلك أنه لقي مرة العتب
من بعض الأصدقاء

فعل
السياسة
بأكبر
الخط

ولما مات شوقي رثاه صاحب البلاغ بكلمة طيبة ، ولكنه
وجد من يعترض بأن شوقي لم يكن من الوفديين ، ومعنى ذلك أن
الخصومة السياسية قد تنقلت إلى خصومة أدبية .

هذا اقتراح أذعته في مصر ثم ضاع ، فهل ترون من الخير أن
أقدمه إلى أدباء العراق ؟

ويسرني أن أعلن بلا مواربة وبلا تكلف أن الله نجاني من هذا
المرض البغيض : فما أذكر أبدأ أني جمحت الحق ، وربما كنت
أشجع أهل هذا العصر لأنني أنصف أعدائي ، في زمن يضنّ فيه
الأصدقاء بالإنصاف

وخلاصة القول أني أنكر التوحيد في الآداب والفنون ، وذمى
يسيع الحكم بأن أبا تمام في بابة أشعر من البحترى في بابة ،
والبحترى في بابة أشعر من أبي تمام في بابة ، والمتنبى أشعر من
الشريف الرضى ، والشريف الرضى أشعر من المتنبى ، وشوقي
أعظم من حافظ ، وحافظ أعظم من شوقي ، والرصافي أعظم من
الزهاوى ، والزهاوى أعظم من الرصافي ، وزكى مبارك في بابة
أعظم من الجميع .

وهذا الكلام يحتاج إلى توضيح ، وقد بينته في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

السؤال الثاني . من هو الأديب الذي تعتقدون بحق وإخلاص أنه أحسن أدباء العربية في الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟
وأقول مرة ثانية إن فيكم رجعة إلى عقيدة التوحيد ، مع أن الشرك أنضل في هذا المجال ، ولكن لا بأس من الإشارة إلى أن الأدباء المصريين في الوقت الحاضر يتساهون جميعاً إلى هذا اللقب الطريف . وسيموت منهم ناس قبل الأوان بفضل الكدح ، وأخشى أني أقول مثلاً إن خصوصتي مع الدكتور طه حسين ستعصف عمري ، لأنني أحاول طرده وولفاته من الأسواق لتحل محلهما وولفاتي ، ولأغتصب مادعاة لنفسه من زعامة الأدب العربي ، وستنقل جرائد مصر هذه الكلمة وسيبيت الدكتور طه مؤرقاً لأنه سيتذكر أنه لم يؤف كتاباً في قوة كتاب النثر الفني ومن شواهد هذا النضال تلك الحمى المخيطة التي ترونها في أدباء مصر ، وإلا فما الذي يوجب أن نرى اسم العقاد واسم المازني في جميع الجرائد والمجلات ؟
وما الذي يوجب أن يصبح هيكل أعشى لا يكاد يبصر بفضل سهر الليل ؟

وما الذى يوجب أن تهجم الشيخوخة على الأستاذ أحمد أمين ؟
ولأى سبب يدوى غصن الأستاذ محمد عبد الله عنان حتى كاد
يضاف إلى الفانين ؟

إن الأدباء المصريين مجانين ، وهم سيقتلون أنفسهم ، وسيقتلوننى
معهم ، لاعفا الله عنهم ، ولا حشرهم إلا فى زمرة السفهاء .
على أن المصائب لا تخلو من منافع ، فهذه المنافسة التى ستصرعنا
جميعاً هى التى جعلت هذا العصر أعظم عصور اللغة العربية ، هى التى
جعلت المطابع المصرية تخرج فى كل عام نحو أربعة آلاف كتاب
وهى التى جعلت الأديب العربى يستطيع أن يجد فى كل يوم كتاباً
جديداً يقرؤه بلذة وشوق ، والنى جعلته يعجز عن متابعة ما ينشر
فى الصحف والمجلات . وهذا أمل كنت دعوت إليه منذ سنين
فتحقق بأقوى وأعنف مما كنت أريد

* * *

أترانى أخلفت ظنك فى الجواب الأول والجواب الثانى ؟
لا بأس فقد تجد شيئاً فى الجواب الثالث أو الرابع
تسأل عن الأسباب الرئيسية التى أخرجت النهضة الأدبية
فى العراق ؟

وهعنى هذا أنك تقول بتأخر النهضة الأدبية عندكم ، فاسمح لى
بتسجيل هذا القول ، فإنه مهم جداً ، وهو يشهد بأن النهضة الأدبية

موجودة بالفعل ، وعدم الرضا عما تملك يشهد بأنك أهل لاكثر مما تملك ، وأنا أحتفظ بأرائي في نهضة العراق إلى الوقت الذي أتخلل فيه من التشرف بخدمة العراق ، فقد يقال إنني ضيف يحدوه حسن الأدب على الرضا عن كل ما في البيت ، مع أن الواقع أن في العراق نهضة أدبية تستحق الاهتمام والتشجيع ، وليت الزمن يسمح بتسجيل آثارها بعد حين ، على أنه لا مفر من الاعتراف بأن النهضة الأدبية الحاضرة أقل مما ينتظره الأدب من العراق والأسباب الرئيسية كثيرة ، أهمها ما يأتي :

أولاً - كان التعليم في العراق باللغة التركية إلى عهد قريب ، وكان من أثر ذلك أن أصبح أكثر الرجال المثقفين لا يملكون القدرة على الإنشاء والتأليف باللغة العربية كما يملكون ذلك باللغة التركية ، فهم في أنفسهم أدباء ومفكرون ، ولكنهم يعجزون عن تغذية النهضة الأدبية ، وهذا العائق لن يدوم لأن الجيل الحديث يتعلم باللغة العربية

ثانياً - شغلكم النضال السياسي عن الأدب فضعف النشر والتأليف

ثالثاً - وزارة المعارف عندكم مشغولة بإعداد المدرسين ، وبمنعنى الذوق من التصريح بأنها مصروفة عن إعداد الأدباء والمؤلفين ، ولعلها تعدل منهاجها بما يجمع بين المزييتين

أما الوسائل التي تعين على تقوية النهضة الأدبية في العراق
فكثيرة وميسورة

ويحسن النص بوضوح على وجوب الإكثار من البعثات إلى
القاهرة فإن القاهرة تؤدي في العصر الحديث ما كانت تؤديه بغداد
في العصر العباسي ، وهذه البعثات المنشودة يجب أن تكون تحت
رعاية رجل مسئول ، فالقاهرة مدينة كبيرة ، وفيها عيوب المدائن
الكبيرة ، والمحاسن الحقيقية في القاهرة تحتاج إلى دليل . ولو
استطاع الشاب العراقي أن يعيش في القاهرة عيش الموفقين لكان
في مقدوره أن ينفع وطنه أجزل النفع حين يعود

فما الذي يمنع من أن يكون لكم في القاهرة دائرة تسمى البعثة العراقية
ما الذي يمنع أن يكون لكم في القاهرة خمسون أو ستون
يتخصصون في الدراسات الأدبية ليعودوا فينشئوا في بغداد
مدرسة مثل دار العلوم أو معهداً مثل كلية الآداب ؟

إن هذه البعثات التي أنشدها ستنتفع العراق من ناحيتين

ستنتفع من الوجهة الأدبية ، وستنتفع من الوجهة العمرانية .

أما الوجهة الأدبية فظاهرة ، وهي كفييلة بأن تخلق التنافس الأدبي

بين القاهرة وبغداد . وأنا أتطلع إلى اليوم الذي يقع فيه هذا
التنافس لتزداد القاهرة حياة إلى حياة .

أما الوجهة العمرانية فتحتاج إلى شرح :

ويان ذلك أن القاهرة في هذا العصر أصبحت مدينة هائلة جدا

ولا يعرف قيمتها إلا من يراها رأى العين ، وفيها ضواح لا تعرف أمثالها باريس ، والشاب العراقي حين يعيش في القاهرة ويرى الزمالك والجيزة والمعادي وحلوان ومصر الجديدة وحدائق القبة سيدكر ولا ريب أن من واجبه أن يفنى عمره في تجميل بغداد ، ولا بد للعراق من شبان يؤذيهم أن تظل بغداد على ما هي عليه ، ولا مؤاخذه ياسيدي ، فأنا متألم لحال بغداد ، ولو كان يسدي شيء من الأمر لأريتكم كيف يكون تخطيط عاصمة الرشيد .
هذه وسيلة .

أما الوسيلة الثانية فأيجاد الجوائز الأدبية ، ومن الممكن تخصيص ألف دينار في كل سنة توزع منها الجوائز على المتفوقين في اللغة العربية ، ولو صنعتم ذلك لضمنتم الظفر بطلائع الحياة الأدبية ، وأظنني ضمننت لكم جائزة النحو في البصرة : فقد ألقيت فيها محاضرة ثم اقترحت على سعادة المتصرف وسعادة مدير المعارف هناك إنشاء جائزة نحوية ، فإن من العيب أن لا يتفوق أهل البصرة في النحو ، وكان أهلها أسانذة الناس في هذا الباب ، ضمننت لكم هذه الجائزة لأن من العسير أن يخذلني سعادة متصرف البصرة ، أو سعادة مدير المعارف بالبصرة ، وهما قد وعدا بتحقيق هذا الاقتراح أمام جمهور يعد بالمئات ، وسأنتظر شرف الإنجاز في وعود الرجال قد تقولون : وهل في مصر جوائز أدبية ؟

وأجيب بأن في مصر جوائز عظيمة جداً ، وهي خذلان الأدباء ،
ولعنة الله على الزمن الذي يضطرنى إلى اغتياب مصر في العراق .
أستغفر الله فقد تلتقيت اليوم خطاباً من كلية الآداب بالجامعة
المصرية هذا نصه :

« حضرة الدكتور زكي مبارك

لمناسبة مباشرة حضرة صاحب الجلالة مولانا فاروق الأول
سلطته الدستورية وما قررته دار الكتب المصرية من منح هدايا
لأوائل الناجحين في الدراسات النهائية للجامعة المصرية ترجو
الكلية الطالب إفادتها عن اسم وعنوان من يوكله بمصر في استلام
الكتب الموضحة بعاليه الخاصة به بأقرب فرصة لإرسالها إليه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

ثم إمضاء حضرة سكرتير كلية الآداب .

والخطاب لطيف ، لأنه وثيقة رسمية تشهد بأنى كنت من
أوائل الناجحين في الدراسات النهائية للجامعة المصرية ،

ولكن أتعرفون ماهى هذه الجائزة ؟ هى نسخة من ديوان مهيار
ونسخة من ديوان صردر ، ولكم أن تتصوروا مبلغ فرحى بهذه الجائزة
حين تعرفون أن لى أبحاثاً عن أشعار هذين الشعارين عرفها قراء مؤلفاتى
منذ أكثر من عشرين سنة ، فلم يبق إلا أن يمنحونى نسخة من كتاب

القراءة الرشيدة !!

ولو كانت الجامعة المصرية تعرف السبيل إلى تشجيع أبنائها
لسألتني عن كتاب التصوف الإسلامي ، وهو كتاب مخطوط يقع
في أكثر من ألف صفحة أنقله معي من أرض إلى أرض إلى أن
يسمع بأخباره رجل منصف فيتطوع بطبعه لوجه الله والآداب
قبل أن أموت ، ولدت حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول
يسمع هذا الصوت ، فمن الموجه أن يموت كتابي عن التصوف
الإسلامي وفي مصر ملك يسره أن يشجع كبار المؤلفين ، وقد
أصبحت مؤلفاً كبيراً من حيث لا أحسب ولا أريد .

والاستنجاد بالملوك لا يغض من كرامة الرجال

ليس في مصر جوائز أدبية ، فليشرع العراق هذه الشريعة
وليكن أول قطر عربي يمنح الجوائز للمتفوقين في اللغة العربية .

فإن كان هذا الكلام يؤذي مصر فلتكذبني ولتذكر متى
استطاعت ولو مرة واحدة أن تشجع التأليف بعد شهامة الخديو
اسماعيل .

إنما يعيش الأدباء المصريون في حماية أرقامهم ، ولم يستطع
أديب مصري أن يشرب فنجاناً من القهوة المرة باسم الأدب ، إلا
إن رعاه رجل عظيم كالذي وقع للمنفلوطي مع سعد زغلول .

أما الوسيلة الثالثة فهي إنشاء الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

ولو شئت لرددت اسمها ألف مرة ، وستعرفون ما أصنع بعد
أن أرحل عن العراق : فسأكتب في جرائد مصر أن العراقيين
لا يراعون حقوق بغداد ، سأغتابكم بإذن الله أعنف اغتياب ، وسأقول
إن العراقيين يؤجلون إنشاء الجامعة إلى أن يقضوا على الأمية ،
مع أن القضاء على الأمية قضاء مطلقاً سيملا العراق بالعاطلين
وسيجرم العراق من السواعد الشداد ، سواعد الفلاحين الذين
يتقربون إلى الله بالجهل . والذين يسمع الله أصواتهم قبل أن يسمع
أصوات العلماء ، سأكتب في جرائد مصر وسأقول في الأندية
المصرية إن أهل العراق يجهلون الحقيقة الواضحة ، الحقيقة التي تقرر
أن النهضة العلمية والأدبية يقوم بها مئات ولا يقوم بها ملايين ،
وهل ارتفعت الأمية في عهد الرشيد أو عهد المأمون ومن إليهم
من الخلفاء ؟

اسمع هذه الكلمة أيها الأخ العزيز : إن مصر في هذا العصر

تسيطر بالعلم والأدب على جميع الأقطار العربية

فهل تظن أنها تملك هذه السيطرة لأن فيها ستة عشر مليوناً

يقرأون ويكتبون ؟ هيهات

ففي مصر خمسون رجلاً فقط من بين هذه الملايين ، وهؤلاء

الخمسون هم الذين يرفعون اسم مصر في الميادين الأدبية والعلمية
والتشريعية والاقتصادية

ولو جاء رجل مجرم وشنق هؤلاء الخمسين لأصبح القطر المصري
في صفوف الجهلاء. ولتوضيح ذلك أقول:

إن لواء المنوفية في مصر كادت تنعدم فيه الأمية، وهناك قرية
فيها نحو عشرة آلاف ليس فيهم أمى واحد، ومع ذلك لم ينبغ
فيها نبوغاً ظاهراً غير رجلين اثنين

ما أحب أن أسترسل في الشواهد، وإنما أحب أن أقرر بصراحة
أن إنشاء الجامعة العراقية أصبح واجباً كل الوجوب، وكنت فكرت
في الخروج إلى الميدان لهذه الفكرة الشريفة، ثم رأيت أنني لا أعرف
من أخاطب، وإلى من أتوجه، لأنني مع الأسف غريب، وإن كان
قلبي يتحدثني بأنني لست في هذا البلد من الغرباء.

وهذه أول مرة ألقى فيها سهمي، وأطوى لوائي، فألى شبان
العراق وكهوله، وإلى أدبائه ونوابه وأعيانه، إليهم جميعاً أكل هذه
الأمانة الغالية وهي فكرة الجامعة العراقية. ويجب أن تحترسوا
فسيقول قوم إن أهل العراق ينسون حقوق بغداد
وسأنظر وينظر العالم ما تصنعون

أما الوسيلة الرابعة فهي اطلاعكم على الجديد في عالم النشر
والترجمة والتأليف

والظاهر أن سوق الوراقين، وهو ما تسمونه سوق السراى،
لا يؤدي واجبه تأدية صحيحة، وأخشى أن أقول إنه لا يتصل بالقاهرة
أتم اتصال، أو هو لا يتقبل من الكتب إلا ما يعرض عليه، فليس
عنده سياسة مرسومة، لأنه يجهل أصول الاقتصاد، فالشباب العراقي
قد يتشوق إلى كتاب جديد ثم لا يجده في سوق السراى، وحين
يتنبه هذا السوق إلى الكتاب المطلوب تكون حماسة الشاب فترت
وتضيع فرصة الاطلاع، وقد لاحظت أن بعض المؤلفات المهمة
يجعلها شبان العراق بفضل تكاسل الوراقين

وربما كان من الخير أن أقترح إنشاء جائزة تسمى جائزة
الوراقين تمنح لأكبر وراق تحسن سمعته في معاملة المكاتب العربية
ويصل شبان العراق بما ينشر في سائر الحواضر العربية؛ ولا ينبغي
أن نطلب معونة الحكومة في جميع الشؤون فيكفي أن تكون
هذه الجائزة شهادة تمنحها جماعة أدبية مكرمة من المؤلفين
والصحفيين.

هذه أيها الأخ أهم الوسائل لتقوية النهضة الأدبية في العراق

بقي السؤال الرابع وهو الخاص بما أراه في الصحافة اليومية

والأسبوعية التي تصدر عن العراق

فما رأيك إذا هربت من جواب هذا السؤال ؟

أنا لا أخاف من الجهر بكلمة الحق ، ولكنني أعرف أن الصراحة في هذا الموطن لها عواقب ، وقد أعرض الصحفيين العراقيين إلى موقف شائك : فقد تغضبهم صراحتي فيهمجون على رجل لا يملك وسائل الدفاع .

والحق الذي يعرفه الجميع أنني رجل مشاغب ؛ وليكنني أعجز عن الشغب في العراق ، لأن الحكومة المصرية بالمرصاد : وقد يسوءها أن أشتبك في معركة أدبية فتطلبني بالبرق لا بالبريد ومن المؤكد عندي أن الصحفيين العراقيين تأبى شهامتهم أن يهجموا على رجل أعزل ، ولكن من المؤكد أيضاً أنه لا يلبقني أن أستغل شهامتهم فأهجم عليهم ثم أحتمي بحقوق الضيافة ، فليكن عندكم أتم جواب هذا السؤال

وأنتهز هذه الفرصة فأقرر أن مشاغباتي لم تخرج من حدود مصر ، لأن أدباء مصر يحتمل بعضهم شر بعض ، أما الأدباء غير المصريين فكنت أتلفظ معهم في جميع الأحوال ، وكانت حجتي في ذلك أن ما أفسدته السياسة يجب أن يصلحه الأدب ، ونحن لانحمل القلم لننزق الأواصر بين الشعوب العربية ؛ وإنما نحمل القلم لنصلح ما بين القلوب

وأتهز هذه الفرصة أيضا فأقدم أصدق آيات الشفاء إلى من
أكرهوني في العراق؛ راجياً أن لا يمر أحد منهم بمصر بدون أن
يراني، فساكون بإذن الله من صور العراق في مصر، كما كنت من
صور مصر في العراق.

وأتهز هذه الفرصة مرة ثالثة فأقدم التحية إلى من داعبوني في
الجراند والمجلات، فهذه المداعبات هي شاهد المودة والإخلاص،
وسأجزئهم على مودتهم الغالية فأذكرهم بالخير عند مصدر الوحي،
في حضرة ليلي المريضة بالعراق شفاها الله وشفاني، وشفى من أجلها
ومن أجل جميع الملاح وجميع المفكرين.

أيها الصحفيون العراقيون

اشتموني مرة أو مرتين لأصدق أن أهل العراق ناس كسائر
الناس يحسنون ويسيتون، فقد كادكم ينسيني أهلي وأبنائي،
وما يجوز في شريعتكم أن ينسى الرجل حقوق الأهل والأبناء.

حقائق وأباطيل

- ١ -

وعدت ليلى ثم أخلفت
فهل تعلمين يا ليلى عواقب ما تصنعين ؟
تذكرى يا ليلى أن النظام هو سر هذا الوجود .
فلو أخلف النيل لهلك المصريون ، ولو أخلفت دجلة أو الفرات
هلك العراقيون .

تذكرى يا ليلى أن الإخلاف هو سبب الموت ، فلو عرفت
الأعضاء معنى النظام لكان الموت من المستحيلات .
لو عرف الإنسان متى يأكل ومتى يشرب ومتى يستريح لعاش
على الأقل مثل ما عاش نوح ، وكان عمره أطول من صدودك ،
أيتها الحسناء الظلوم .

ليلى

كان إخلافك جريمة ، والمجرم الأعظم هو من يثق بعهود الملاح .

- ٢ -

لى صديق عزيز جداً شاء له هواه أن يقول إنه وصل يوم كان
فى سن العشرين إلى مالم أصل إليه بعد أن جاوزت الأربعين .

وهذا صحيح فما استطعت في سن العشرين ولا الثلاثين ولا
الأربعين أن أقول لأحد أصدقائي ، إني أفضل منك .
وما أنكر أنى قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب
أعدائي ، ولا عيب في ذلك فالجروح قصاص ، ولكنى مع أصدقائي
مثال الأدب والوفاء .

فإن كان لأصدقائي شيء من النفع حين يزعمون أنهم أفضل منى
فهنيئاً مريئاً ، وإن كنت أتهمهم بالبخل ، إى والله أتهمهم بالبخل ،
فالحكم بأنهم أفضل منى مزية كنت أحب أن أسبقهم إليها ، ولكن
لا بأس فأنا أحب أن يكون لهم فضل السبق في كل نضال .
عفا الله عنك يا صديقى وحفظك ورعاك .

ليتنى أعرف من الشاعر الذى يقول :
سيد كرنى الناسون يوم تشوكهم
شماىل من بعض الخلائق سود
سيد كرنى الناسون حين تروعهم
صنائع من ذكرى هواى شهود
فوالله ما أسلمت عهدى لغدره
ولا شاب نفسى فى الغرام جحود
ولا شهد الناسون منى جناية
على الحب إلا أن يقال شهيد

- ٤ -

أنا أزن الذوق بميزان الذهب ، ولكن مع من ؟ مع صديق
يكيّل الذوق بمكيال ١

- ٥ -

لطمّنتي ليلي بالأمس فغفرت و صفحت : لأن كفها لين ، ولأن
وجهها جميل

- ٦ -

تمرت ليلي وتمردت ، فقلت : اصنعى ماشاء لك الدلال بالثيمة
فأنا آخر من يغفر الذنوب لأهل الجلال

- ٧ -

عجبت ليلي من أن أخلق لها المحاسن وهي في غاية من الشراسة
وسوء الأدب ، وأنا أعجب مما تعجب منه ليلي ، وإلا فكيف اتفق
أن أخلق لها المحاسن وهي تتخلق لمحبوبها العيوب ؟

- ٨ -

أحسنّتُ وأساءتُ ليلي ، وهي مع ذلك ترجو أن أستغفر لئمن
بالغفران ١

- ٩ -

إن ليلي تجهل السبب فيما أُسبغ عليها من رفق وعطف
والظاهر أنها كالكريم الذي تجهل يسراه ما أعطت يمينه
فاعرفي يا ليلي أني لا أتصدق عليك بالرفق والعطف ، وإنما أقضى

الديون الثقال ، فقد قضيت في حماك لحظات كانت أطيب من
الامن بعد الخوف ، وأنضر من النعيم بعد الشقاء

- ١٠ -

سألني تلاميذي : من أشعر الناس ؟ فأجبت هو الذي يقول :
لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

- ١١ -

أطلعتني ليل على مقال نشرته إحدى المجلات المصرية وفيه ألفاظ
غلاظ فابتسمت متكرهاً وقلت :
« جرح الأجابة عندي غير ذي ألم » - وهم والله أحباب !

- ١٢ -

السيارات العمومية في بغداد ضيقة جداً ، وردية جداً ،
والصعود إليها متعب ، والنزول منها متعب .
كنت في إحدى هذه السيارات في يوم غزير المطر كثير الأوحال
فتقدمت سيدة لتركب ، سيدة لها وجه رائع ، وجسم فينان ،
وكان صعودها إلى السيارة لا يتم بسهولة إلا إذا مددت يدي
فعاوتها على الصعود ، وما كان في ذلك بأس ، ولسكني خشيت أن
أمد إليها يدي فيتغامر الركاب ، وفيهم كسائر الناس طيب وخبث .
وقضى الوحل والمطر أن تزلق قدم تلك السيدة وأن تفوتها
السيارة .

قلت في نفسي : إن الناس يمن بعضهم على بعض فيقول قائلهم :
لقد ضحيت براحتي ومالي في سبيل كيت وكيت .
فما الذي كان يمنع من أن أبتدع فناً جديداً من التضحية ، هو
التضحية بالسمعة في سبيل الخير ؟
ليتني فعلت وأنقذت تلك السيدة من الزلق في الوحل .

تقول ليلى إنها ستتعقبنى وأنا في مصر كما تعقبنى اصدقائي وأنا
في العراق .
تأدبني يا بلي فاقه من ورائكم محيط .

ما كنت أحسب أن الليل يعقبه نهار ، وأن النهار يعقبه ليل ، وأن
المرء ينتقل من الشباب إلى المشيب ، وما كنت أظن أن المقادير
ستحكم بأن أعاني ضجر السهاد في باريس وفي بغداد ، وما كنت
توهم أن الأتدار سترغمني على مداراة أحبابي ، وما كنت أتوقع
أن أسمع كلمة تؤذيني من صديق يابن له الدهر فيقضى الأصائل
والعشيات في شارع فؤاد .

وما كان يخطر بالبال أني أسقى الناس الشهد ليسقوني الصاب .
ذلك حظي من أهلي وأحبابي وأصدقائي وديناي .
لا تحزن يا قلبي ، فالعاقبة للصابرين ، وسوف تعلم ويعلمون .

لى صديق مولع ياخلاف المواعيد ، فلما عاتبته على ذلك قال :
ما أذكر أبدأ أنى أخلفت معك ووعداً ، وإنما أذكر أنى كنت أحضر
قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل .

فقلت : ذلك أبشع ضروب الاخلاف !

وفقهاء الإسلام نصوا على أن الصلاة لا تقبل إلا حين تجب
بمحلول الوقت .

وهذا من الآداب الدقيقة التى لا يدرك أسرارها إلا الأقلون ،
وكم فى الإسلام من آداب .

لقينى صديق فقال : أنا أعجب لاهتمامك بمصالح فلان .

فقلت : وما وجه العجب ؟

فقال : إنه يفتابك عند جميع الناس .

فقلت : وما الذى يمنع من أن تتخاق بأخلاق الله ، وقد أمرنا الله

بذلك وهو عز شأنه يسبغ نعمته على الكافرين والجاهدين ؟

لقد أصبحت أو من إيماناً صادقاً بأن الكرم الحق هو أن تحسن

إلى من لا يحفظ الجميل .

ولنا فى الله - تباركت صفاته - أسوة حسنة .

ذهبت إلى فرنسا وأنا مسلم ورجعت منها وأنا مؤمن .

ولكن كيف ؟

ذلك هو السؤال !

لقيني أحد البغداديين فقال : هل هذا صحيح ؟
فقلت : ماذا ؟

فقال : إن الأستاذ علي الجارم بك ألقى خطبة في محطة الإذاعة
المصرية أكد فيها أن بغداد أدفأ من القاهرة في الشتاء .
فقلت : وأنا أجزم بأن بغداد في الشتاء أدفأ من مصر الجديدة
ومن حلوان .

فقال : أتم في سبيل المجاملة تفلبون الحقائق .
فقلت : هذا صحيح في بعض الأحيان ولكننا في هذه المرة نقلب
الحقائق لنصل إلى حقيقة أعظم وأروع .
فقال : وما هي ؟

فقلت : إن الصداقة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس واحد ،
هو أن تعتقد أن صديقك أفضل منك ، فإن اعتقدت بأنك أفضل
منه فلست بصديق .

وعلى هذا الأساس تكون بغداد أدفأ من القاهرة في الشتاء .
وقديما قيل : عين المحب عمياء .

أجمع كل من حادثوني على أن الفرق بعيد جداً بين زكي مبارك

المؤلف وزكى مبارك المحذث ، وأنا عند أكثرهم مؤلف عظيم
ومحذث سخيف

وقد بحثت عن السبب فعرفت أنه يرجع إلى أنى حين أولف
أكون مع نفسى وحين أتحدث أكون معهم هل فهمتم
يا بنى آدم ؟

لى فى بغداد أهل ، وربما كنت أول مصرى له فى بغداد أهل
وكان لى فى باريس أهل ، وربما كنت أول مصرى كان له فى
باريس أهل

فما سر هذا البخت المدهش ؟

يغلب على الظن أن السبب يرجع إلى الفطرة التى صيغت عليها
عيونى ، فما دخلت بيت صديق واستطاع بصرى أن يرى فيه شيئاً
غير جميل .

لامنى صديق فقال : ماقرأت لك كتاباً ولا مقالا ولا قصيدة
إلا رأيتك مشغولاً بالحب ، فما هذا الإسراف ؟

فقلت : لا تؤاخذنى يا مولاي فأنا أريد أن أملاً أقطار قلبى بالحب
حتى لا يوجد فيه مجال للبغض

ظهر كتاب «عبقرية الشريف الرضى» في جزأين ، ويقول
أهل العراق إننى أحييت الشريف ، وأشهد صادقاً أن الشريف هو
الذى أحيانى .

كان لى فى القاهرة صديق مظلوم تساق إليه التهم الكواذب
بلا حساب ، وقد رأيت أن أكون نصيره فى بلواه ، فكنت أتردد
على منزله و كأتى أجهل ما يفترى المفترون
ألا يمكن أن يكون ماظفرت به من التوفيق هو الجائزة الربانية
على وقوفى صابراً محسباً فى صفوف المظلومين ؟

عين الرضا كليلة لا ترى العيوب ، وعين السخط حادة ترى ماخفى
من العيوب
كذلك كان الناس يفهمون
ألا يمكن أن نرفع الإنسانية قليلاً ؟
ألا يمكن أن تضعف أبصارنا عن رؤية العيوب فى أعدائنا ؟
إنك ياربى تعلم أنى أخلق المحاسن لأعدائى ، وأنا أرجو منك
حسن الجزاء

لى مؤلفات كثيرة لم تنشر ، وقد أصبحت أرى من الواجب

أن أنفق عليها كما أنفق على أطفالي ، لتستطيع التنفس في جو
الحياة الأديبة

فيامؤلفاتي ويا أطفالي . .

رزقي وأرزاقكم على الله . .

وإن بقيت لكم فسترون بإذن الله كيف يكون كرم الآباء

لى منزل فى سنترىس تحيط به حديقة غناء

وفى ذات يوم نظرت فرأيت أبى رحمه الله يشير بإقامة (مصطبة)

بجانب سور الحديقة ، فسكت ولم أعترض

وبعد أشهر أو أعوام ضايقتنى أن تكون تلك المصطبة هى المكان

المختار الذى يجلس فيه العاطلون من الفلاحين

فمضيت إلى أبى وقلت فى ترفق : أنا أقترح هدم هذه المصطبة ،

فقال : ولماذا؟ فقلت : لأنى أراها أصبحت ملاذ العاطلين

فابتسم وقال : ولكن هذه المصطبة لها فضل على منزلك يا بنى

فدهشت وقلت : كيف؟ كيف؟ أوضح يا أبى

فقال : هذه المصطبة هى الوحيدة فى الحى كله ، ومن أجلها

يجلس الخفير على باب منزلك طول الليل

يرحمك الله يا أبى ، فقد كنت حكيما

وعلى مصطبة ذلك المنزل رأيت طفلاً يلعب وييده صقر جريح
وما كان صقراً وإنما كان فرخ صقر ، وبدالى أن أداعب ذلك
الفرخ فعضّ إصبعي عضّة إليمّة جداً ، فتوهمته يقول : احترس من
الشجاع يوم ينهزم ، واحترس من البطل يوم يضام ، فلههزومين
من الشجعان والأبطال غضبات

ثار تلاميذى بالأمس لأنى فرضت عليهم من الواجبات
ما لا يطيقون

معدرة يا تلاميذى فإن أستاذكم يفرض على نفسه ما لا يطيق

من صديق ليلى الباريسية

إلى الدكتور زكي مبارك

... صاحب الصباح

أعرف أنك رجل تميل إلى إرضاء قرائك ، فتحب ما يحبون ،
وتكره ما يكرهون ، وأنا من قرائك القدماء ، لولا أن بيني وبينك
قضية ، خلاصتها أنك تحب ما لا أحب ، ومن لا أحب ، فكأنك
تبخل عليّ وحدي بما تجود به على قرائك .

وقد تسألني مثلاً لذلك ، فأقول لك - بكل اختصار - إنك تفرط
في حب رجل أنا من القلائل الذين لا يحبونه .

ثم قد تسألني : ومن يكون هذا الرجل ؟ فأقول لك : هو
الدكتور زكي مبارك !

فإذا سألتني عن سرّ ذلك ، قلت لك إنه يرجع إلى سنوات خلت
حينما قذفت بي الأقدار إلى باريس ، وكان الدكتور زكي مبارك
هناك آنئذ ، وكان حديث عهد بالملابس الإفريقية ، فكان
لا ينفك يقلب قبعته على مواضع مختلفة من رأسه كما كان - في عهد
العمامة - بعمامته .

كنت طالب علم آنذاك - وإن كنت قد أخفقت فيما بعد -
و كنت لا أحب الاختلاط بإخواني من المصريين لا كبراً وإيم
الله وإنما خشية .. خشية على قلبي ، وكان هذا القاب يومئذ مفتوناً
بساحرة من بنات السين - وأنت تعرف ياسيدي مهارة بعض
الآبالسة في الإيقاع بالنساء .

خفت على ليلاى الباريسية من أن تمتد إليها أيديهم ، فأخذتها
بعيداً عنهم ، و كنت لا أتردد عليهم إلا غراراً . و وحدي .
و كنت ذات مرة أسير معها على شاطئ السين ، وكان الغروب
يخامر السماء ، و كنا على وشك قبلة تبادل ؛ وإذا برجل لا أعرفه
ولا يعرفني ، يقترب مني ويسألني عن الساعة . والسؤال عن الساعة
هو أول درس يتعلمه المراهقون في عالم «البصبصة» ، والحق أقول
إنني ظننت الرجل لأول وهلة من سكان جزيرة تقع بين الهند
وحضرموت والحبشة . فقلت لعله ساذج ، ولعله لا يقصد
«البصبصة» ، فأجبتة إلى سؤاله ، بيد أنه لم ينصرف ، وسألني بنفس
اللغة : أنت شرقي أم .. فقلت له بل باريسى . وأردت أن أمعن في
إبعاده ، فقلت له : وهذه زوجتي .

ولسكنه بعد كل هذا ، وبعد غير هذا لم ينصرف ، بل نظر إليها
هي - لا أنا - في نهم عجيب وقال إن قسمانها تشبه قسما فتاة يعرفها
في مصر - الجديدة أو القديمة - لا أذكر .

و كنت كلها حاولت اختصار الحديث أطاله ، حتى ضقت به
ذرعاً ، ولم يبق في جعبة الصبر سهم فانطلقت على سيجتي أودعه
ببعض المنتقى من قواميس بولاق وعشش الترجمان .

فقال وهو يتسم ابتسامة أو كتافوس إذ دخل مصر ظافراً :
— لقد كنت واثقاً من مصريتك ، فحملتك بسياستي على
الإقرار .. ألا تعرفني ؟ أنا زكي مبارك ، الذي لم تخف عليه خافية
في الوجود .

ووجه ناظر به الأخضرين إلى ليلاي ، وأخذ يتأمل عينيها تارة ،
وساقها أخرى .

فلم أجد بداً من تركه والمضى بفتاتي إلى حيث لم أراه حتى الساعة !
ولما عدنا إلى البنسيون و كنا - أنا وهي لأنا وهو - نقيم في
نزل واحد ، سألتني : أكل المصريين زكيون مباركون ؟

فقلت : حاشا ، وإنما ليس في مصر غير زكي مبارك واحد ..
والحمد لله . فقالت : سي دوماج (أى يا خسارة) . وفسرت عبارتها
بقولها إن مصر لو انطوت على كثير من أمثال الدكتور زكي ، لما
بقي فيها الانجليز يوماً واحداً . فقلت لها : وهل تدرين أن جد
الدكتور زكي هو الذي أخرج نابليون - بنفس الطريقة -
من مصر ؟

والعجب العاجب - ياسيدي صاحب الصباح - أنتى لم أترك
كتابا ولا مقالا لعدوى زكى مبارك إلا وقرأته !
فكان المتنبي عنانى حين قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من « قراءته » بد

وهكذا قرأت له فى مقال أخير اتهمه لذوق ليلى المصرية
لانها فضلت عليه « الشاب الظريف » .

ياسبحان الله !

وفى مقال آخر ، يقول عن فنانتنا الساحر عبد الوهاب « الصديق
السخيف » .

والله يادكتور ، لأنشرن على صفحات (الصباح) ما قاله فيك
محمود يرم التونسي من مواويل ، وما نشر عنك من تواشيع ،
وما أذاع فيك من نكات عند أصدقائنا بياريس ، إلا أن تعذر إلى
عبد الوهاب والشاب الظريف ، فأغفر لك .

(ب . ف)

الى صديق ليلى الباريسية

أخى وغريمى

كنت أحب أن أسأل من أنت ، فقد كان لى فى باريس كثير من
الغرماء ، ولسكنى عرفتك فى لحن القول ، كما يعبر القرآن المجيد .
وكيف أنسى الصديق الذى خشى أن أسرق معشوقته فى باريس
فانتقل إلى ضاحية بعيدة لينجو بها منى ، وكان مع ذلك يدعونى
للعشاء من وقت إلى وقت ليزوق حلاوة العيش ، فقد كانت تلك
المعشوقة تبالغ فى التعطف عليه حين ترانى ، فتمسح جبينه وتسوى
شعره برفق وحنان ، والله يعلم ما كانت تصنع بعد أن أنصرف ،
فأعلمها كانت تتجنى عليه لحسنها فى الصدود !

إن هذا الغريم يعرف أننا كنا قسمنا الحى اللاتينى إلى مناطق صيد
ويعرف أيضا أنى لم أكن من أهل الفجور وإنما كنت أنخذ الحب
مادة نفيسة أغذى بها الأدب والبيان .

وكتاب « ذكريات باريس » والطبعة الثانية من كتاب « البدائع »
يشهدان بصدق ما أقول ، فى هذين السكتابين ثروة فلسفية وروحانية
تصور كيف عطرت الأدب بأنفاس الحياة ، وأنت نفسك تشهد
— والله يحفظك ويرعاك — بأنى كنت فى أدبى من الصادقين .

ولكن هل تسمح بأن أذكرك بقول الشاعر :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب؟
فلو لم تكن بمن ينسون - لأنك إنسان - لتذكرت أنه ما كان يجب
أن تداعبنى في هذه الأيام ، فهي عندي أيام حداد ، حداد أسود
مظلم فتاك : لاني فقدت غريماً من غرمائي في باريس ، فقدت غريماً
كان أرق من الزهر ، وأكثر إشراقاً من الصباح . وكان هذا الغريم
صديقاً عزيزاً ثم حملني سوء الأدب وسوء الطالع على أن أسرق
معشوقته في باريس : فبلغ به الحقد كل مبلغ وذهب به الغضب كل
مذهب : فدبر مؤامرة لاغتيالي في باريس . ولعل وجه العجب عند
ذلك الغريم أنه كان من النوادر في عالم الشباب والجمال وأنه كان
يملك من الثروة ما يستطيع به اشتراء بلد جميل مثل سنتريس .
كان وجه العجب أن أسرق معشوقته وأنا فقير دميم ، وهو
غني وسيم .

أما المؤامرة التي دبرها لاغتيالي فهي الشاهد على ما كان عنده من
ذكاء رائع .

كان هذا الغريم - أمكنه الله فراديس الجنان - ينوي قتلي في
صبيحة اليوم الذي أودى فيه امتحان الدكتوراه بالسوربون .
ولكن (عمر الشقي بقى) كما يعبر المثل المصري . فقد وصلت
أخبار المؤامرة إلى اثنين من أصدقائي هما الأستاذ محمد حلمي
والأستاذ محمد عبد الحميد مندور فطافا بأعضاء بعثة الجامعة المصرية

و قدنا إليهم بما يجب من حراستي يوم الامتحان .

وفي صديحة ذلك اليوم حضر عشرة من أصدقائي ومعهم عصيهم
ومسدساتهم ، حضروا إلى بيتي لأخرج في حمايتهم . وقد سادني
ذلك . وحاولت منعهم من صحبتي فلم أفجح . ثم علمت مع الأسف
أن مدير البعثة المصرية في باريس وصلت إليه أخبار تلك المؤامرة
فجشم نفسه حضور امتحاني ، وكان امتحاناً قاسياً دام ثلاث ساعات
ولم يشأ ذلك المدير أن يخرج قبل أن يطأئني على نجاتي من
شر الاغتيال .

وكان في باريس معرض دولي هائل ستفتتح بعد أسبوع واحد
فخرمت منه نفسي ، ولم أقم في باريس بعد امتحان الدكتوراه غير
ليلة واحدة قضيتها في حماية الأمان من أصدقائي
وبعد عامين من ذلك التاريخ عاد غريمي إلى مصر ، عاد وهو
يضممر ما يضمر من الحقد ، وهاله أن يعجز وهو في مصر عما كان
يقدر عليه وهو في باريس . والأمن في القاهرة أضمن من الأمن
في باريس

فهل يعرف ذلك الغريم وهو في قبره أنني سكببت عليه الدمع
في بغداد ؟

لقد كان - رحمه الله - صورة من النسيم المطلول ، وكانت له أنغام
عذبة يجود بها لسانه وهو يتحدث ، وكان له قوام رشيق هو الشاهد

على براءة مصر في صياغة الجمال ، لقد مات غريمي قبل أن أموت ،
لأن الأعمار بيد الله لا بيد الناس

مات غريمي وهو يظن أنني ألام من عرف ، ولعلّ روحه
رأت بكائي عليه فشهدت بأنني أكرم من عرف

رحمك الله يا إبراهيم وطيب مثواك

رحمك الله يا إبراهيم فقد نبعت من أرومة هي مثال الذوق
والإحساس

رحمك الله يا إبراهيم وعزى أهلك ، فإن الذين أصيبوا بشكلك
خليقون أن يبسكوا عليك طول الحياة

رحمك الله يا إبراهيم ورحم نصيبي من ودادك ، فلولا ماجنيت
من سوء الأدب معك لكان لي في رعايتك أيام وليال أطيب من
العافية وأنضر من الشباب .

يا إبراهيم

لا تجزع لفراق الدنيا ، فاكثرت فيها لهم أخلاق مثل أخلاقي ،
أنا الصديق الذي أضعت حظي منك في سبيل فتاة لعلها عرفت بعدى
وبعدك مئات الشبان !

إبراهيم

أنا محزون عليك ، أنا حافظ للعهد ، أنا آسف على ضياع الفرصة التي
كانت تشفي صدرك باغتيا لي يوم أداء امتحان الدكتوراه بالسوربون
ولك فضل على لن أنساه : فقد حببتني في وطني لأن أولئك

الأصدقاء العشرة الذين حموني من شرك بعصيمهم ومسدساتهم
أقنعوني بأن الشهامة المصرية لم تضع ولن تضيع .

ابراهيم

هل تغفر لي ذنبي وقد غفرت لك ذنبك ؟

لقد دامت عداوتنا سبع سنين ، فإن عشت بعد اليوم سبع سنين
فسأقضيها في حفظ عهدك ، إن لم أقضها في البكاء عليك .

ابراهيم

إن الموت الذي عصفت بشبابك لظلوم ، وإن الرجل الذي يبكي
عليك وأنت عدوه لرجل كريم . فهل تعرف أن ما وقع بيني وبينك
لم يكن إلا نزوة شباب يغفرها العقلاء

خطبة المؤلف

في تحية من كرموه بالنجف

أيها السادة

أبدأ كلمتي بالتحية الإسلامية التي يحرص عليها علماء النجف
فأقول: السلام عليكم.

ثم أعتذر عن نفسي ، فأنا أرتجل هذا الخطاب ، والارتجال غير
مأمون العواقب ، وقد أطال خطباؤكم وشعراؤكم في الثناء على ، وهنا
وجه الخطر ، فلا بد من كلمة تشعر هذا الجمهور بأني خطيب ، وأن
من كرهوني كانوا في حسن ظنهم صادقين ، على أني سأعرف كيف
أنقلكم إلى جو آخر يصرفكم عني ، ويشغلكم بأنفسكم ، وهذا
الجو هو محادثة الشبان بواجب طالب العلم في النجف ، فقد قرأت
في مجلة الحضارة كلمات يراد بها التشكيك في قيمة الأنظمة القديمة ،
وهو تشكيك أوحاه الروح السائد في العصر الحديث .

ويهمني أن أحارب هذا التشكيك في مدينة النجف ، فقد اتفق
لي أن أحارب المناهج الأزهرية زمنياً غير قليل ، ولذلك شواهد
ترونها في كتاب البدائع ، ثم علمتني الأيام أني كنت من المخطئين .
علمتني الأيام أن طلبة الأزهر سرقوا كلمة (المستقبل) من طلبة

المدارس وأخشى أن يقع هذا لطلبة العلم بالنجف .
علتني الأيام أنه لا بد لنا من رجال يعيشون للعلم وحده فلا
يكون لهم مستقبل ولا معاش ، ولا يكون لهم مصير غير الفناء
في خدمة الحق .

وبفضل هؤلاء الزاهدين كان للنجف تاريخ ، وكان للأزهر تاريخ
ولو شئت لضربت المثل بنفسى ، فأخوكم الدكتور زكى مبارك
هو فى الأصل شيخ أزهرى كانت له عمامة أضخم من عمامة الشيخ
اليقوبى ، ثم سما به الإخلاص حتى وجد من يقيم له حفلات
التكريم فى القاهرة والإسكندرية وباريس وبغداد والنجف ،
وحتى أنشئت فى الثناء عليه عشرات الخطب والرسائل والقصائد
وحتى نشرت عنه رسالة باللغة الهولندية وتحدث عنه العلماء فى
المشرقين والمغربين .

وقد درست نفسى حق الدرس ، فرأيت ذلك كله نعمة إلهية هى
جزاء الإخلاص ، فقد كنت أيتها السادة طالب علم يتوكل على الله ،
وكان يضايقنى أن أجد من يسألنى عن مستقبلى ، وأنا إلى اليوم
لا أعرف مستقبلى ، وإن كنت سمعت أنى رجل له فى مصر والعراق
مكان مرموق .

وحفلات التكريم التى ظفرت بها مرات كثيرة من رجال فى
مثل كرمكم وإخلاصكم لاتسبى أعظم كرامة رأيتها فى حياتى ، وهى

كرامة وقعت في لحظة من لحظات البؤس يوم كنت طالباً في الأزهر الشريف ، فقد كنت في ذلك العهد أحفظ زادي في المحفظة ، محفظة السكتب ، وكان زادي في كل يوم رغيماً جافاً يابساً متجهماً الملامح ، واتفق مرة أن ضاق الوقت فدخلت عند أحد الفوالين لأغمس ذلك الرغيف في مرق الفول النابت ، فهرست الرغيف بين راحتيّ مسرعاً ، ثم نظرت فرأيت يديّ تفيضان بالدم القاني ، دم الشاب المسكين الذي يريد أن ينتهب الوقت ليحضر درس التوحيد بعد المغرب .

ولكن الله عز شأنه رفع ذلك الشاب المسكين فنقله من الأزهر إلى الجامعة المصرية ، ومن الجامعة المصرية إلى جامعة باريس ، وجعله من كبار المؤلفين ، وكتب له أن يكون في الطبقة الأولى بين كتاب اللغة العربية ، لغة القرآن .

فأستحلفكم بالله ألا تذكروا طلبة العلم بالنجف بحاضرهم ومستقبلهم فتسكدروا عليهم نعمة الفناء في خدمة اللغة والدين .

أرجو أن تذكروا دائماً أن الفقراء أحباب الله ، وأن الأئس بالكتاب الجيد أنضر وأشرف من الأئس بالقصر المنيف .

أرجو أن تأخذوا العبرة من موقع مدينة النجف ، فهي في الواقع مدينة صحراوية ، وكان لها مع ذلك شأن في حياة اللغة والدين .

أرجو أن تذكروا أن النعيم الحق هو نعيم النفس ، وأن الربيع
الحق هو ربيع القلب ، أرجو أن تذكروا أن أسلافكم لم يكن لهم
مستقبل إلا في الفردوس .

وما أوصيكم يا شبان النجف إلا بما أوصيت به نفسي ، وسأعيش
ما أعيش ثم أوت وليس لي ذخيرة في غير عالم المعاني .

وأنتقل إلى الكلام على كتاب (عبقرية الشريف الرضى) وقد
عدّه خطباؤكم وشعراؤكم من حسناتي .

وأقول بصراحة إن هذه نعمة من نعم الإخلاص ، وإلا فمن
هو الدكتور زكي مبارك حتى يكون من حظّه أن يقال إنه أعظم
مؤرخ للشريف الرضى ، وتلك كلمة قالها رجل نبيل لا تنفرج
شفته عن لفظة إلا بعد أن يديرها في قلبه عدة أسابيع ، هي كلمة
معالي الأستاذ الجليل محمد رضا الشيبى الذى أتذكر به حين أراه
مقام الوزير العظيم أبى الفضل بن العميد .

من أنا وما شأنى حتى أكون أعظم مؤرخ للشريف الرضى ؟
هى نعمة أقدم شكرها لله بدمعى ودمى .

وقد تمت هذه النعمة على أجمل وجه ، فكتاب (عبقرية الشريف
الرضى) هو أسلوب من البحث لم يسبق له مثال ، وسيكون باعثا
على نهضة شعرية ستعرفون خطرها بعد حين .

ولكن لا بد من تذكيركم بقيمة الشريف الرضى، وهذا التذكير قد يؤذني، لأنه سيدعو المثات والألوف والملايين إلى منافستي. وأنا أرحب بذلك، وأقول إن صحبتي للشريف الرضى كانت السبب في أن يقوى روعي فأكتب نحو خمسة آلاف صفحة في أشهر معدودات بحيث شغلت جرائد مصر ولبنان والعراق، وأرجو أن يدوم هذا النشاط فيما بقي من حياتي. كنت أشرع في قراءة قصيدة من شعر الشريف فأحس نفسي تستفحل وتستأسد فأعود إلى موضوع آخر فأصوغه أجمل صوغ وكذلك نظمت خمسة مجلدات في زمن قليل.

وبهذه المناسبة أذكر كتاب (نهج البلاغة) وهو كتاب حامت حوله شبهات، وناضلت في سبيله جماعة من المستشرقين يوم كنت في باريس، وتجدون شواهد ذلك في كتاب (النثر الفني) وكانت حجتي أن التشكيك في نهج البلاغة نشأ في بينات أموية كان يسوؤها أن يشتم معاوية على لسان علي بن أبي طالب، ويسرها أن يكون ذلك الشتم مخترعا، فلما طالت صحبتي للشريف في هذا العام تأكدت أن الشريف الرضى أعظم نفساً وروحاً وقلباً من أن يكذب، ولو جاز الكذب على الشريف الرضى لجاز الكذب على جميع الناس وكان من واجبنا أن نعتقد أن التاريخ ضلال في ضلال.

والذين اطلعوا على (عبقرية الشريف الرضى) يرون أن ذلك الرجل عاش في دنياه بلا صديق، ولو أنه كان اخترع كتاب نهج البلاغة لزلزلت الأرض تحت قدميه ولكان أخوه نفسه أول من يذيع عنه الأراجيف .

عاش الشريف في بلية من غدر الأهل والأصدقاء، ومن كان في مثل تلك الحال لا يجد من يستر عيبه حين يزور كتابا على أمير المؤمنين على بن أبي طالب ..

فأريحوا قلوبكم من التفكير في هذه المسألة فهي ليست من المعضلات .

إن كتاب نهج البلاغة أعظم ثروة في اللغة العربية فإن كان الشريف اخترعه اختراعا فأهلا وسهلا، وهو إذن شاهد جديد على تلك العبقرية .

ولكنى مع الأسف غير مستعد لتصديق ذلك الاتهام الظريف، فقد صح عندى أن الشريف كان اتخذ الشعر أداة للتعبير عما في نفسه من الصور والمعاني .

وستدور الدنيا ثم تدور ويعرف الناس أن الشريف كان أعظم مما يظنون . وقد عجب ناس من أن أهتم بالشريف الرضى، فليعجبوا كيف شاءوا : فنحن لا نترك العناية بأسلافنا مراعاة للحوادث اليومية، وقد شاء الله أن يقرن اسمي بالشريف الرضى،

وسأحتمل في سبيل هذه الصحبة الشريفة جميع المصاعب والأرزاء .
واقتران اسمي باسم الشريف هو نعمة لا أستحقها ، ولكن الله
أراد ذلك ، فأليه أوجه أصدق آيات الشكر والثناء .

أيها السادة

تحدث خطاباؤكم وشعراؤكم عن غرامى بالعيون السود .
وأعترف بأني مفتون بالعيون السود والعيون الخضراء والعيون
الزرق ، أنا أيها السادة تلميذ الشريف الرضى ، وهو رحمه الله تغزل
بالعيون السود وهو في مكة ، فكيف يفوتني التغزل بالعيون السود
وأنا في النجف ؟

إن لي قصيدة همزية هي أعظم ما نظمت وهي تقع في أكثر من
مائة بيت وفيها هذان البيتان :

خذوني إليكم يارفاقى فإنى

أحاذر في بغداد حتنى وإصماتى

أخاف العيون السود فليرحم الهوى

فجميعه أهلى يوم أفضى وأبنائى

وقد أنشدت هذه القصيدة في نادي القلم العراقي برياسة معالى
وزير المعارف ، فهل تظنون أنى أنهيب إعلان هيامى بالعيون
السود بعد أن صرحت بهذه اللوعة في حضرة ذلك الوزير الجليل ؟
قولوا ماشئتم : فأنا من كبار المفتونين بالحق والخير والجمال .

أول الحرب كلام

أخى

أنت سمعت وقرأت أنى لأحب الاشتباك فى معارك قلبية
بالجرائد العراقية، وما كان ذلك خوفاً من وهج الحرب، وإنما
كان ذلك لأن رؤسائى فى مصر تمنوا أن تكون أيامى فى العراق
سلاماً فى سلام، وقد حفظت العهد حتى خشيت على نفسى مصير
المتنبى حين تعقب طبيبه فقال:

وما فى طبه أنى جواد أضرب بحسمة طول الجمام
ولعلى أسأت بعض الإساءة فى حفظ ذلك العهد، فى العراق
صحفيون نبلاء شاء لهم الكرم واللفظ أن يثنوا على أدبى، فخبست
نفسى عن الرد عليهم مراعاة لذلك العهد.

واليوم أرانى مضطراً إلى الرد عليك، لا دفاعاً عن نفسى،
ولكن دفاعاً عن العراق

أما لا أدافع عن نفسى، أيها الصديق، لأن دعابتك لم يقع
فيها ما يؤذنى من وجهة شخصية، وإنما وقع فيها ما يؤذنى من
وجهة قومية

وإليك البيان:

أنت أردت أن تفهم قراءك أن الفطنة تنقصنى، والفطنة هى

العنصر الأول من عناصر القوة في الأديب .

و كانت الفطنة تعوزني لأنني اقترحت عدة مقترحات منها :

١ — إنشاء جائزة النحو بالبصرة

٢ — إنشاء جائزة الصحافة للوزّاقين

٣ — إنشاء الجامعة العراقية

تلك مقترحاتي ، وهي جنائبي عندك ، أيها الصديق .

فهل لي أن أسألك ما الذي كنت تنتظر من الدكتور زكي مبارك حين يتشرف بخدمة العراق ؟ أكنت تنتظر أن أكون مدرساً لا يعرف غير إلقاء الدروس وتصحيح السكراريس ؟ إن كان ذلك ما كنت تنتظر فاسمح لي أن أؤكدك قول ابن الفارض :

إن كان منزلي في الحب عندكم ماقد رأيت فقد ضيعت أيامي

فأنا يا صديقي رجل يحملني الفتون على الظن بأن لي من حياتي

غاية غير الغرض الضيق الذي يحبسني بين التلاميذ والسكراريس ،

وقد حملني هذا الفتون على الظن بأن الحكومة العراقية لم تدعني

لأكل بفضلها العيش ، وإنما دعيتي لما تعرف من عواطف النبيلة

نحو العراق ، والعراق لا يخدمه رجل في مثل كسلك ويأسك ،

وإنما يخدمه رجل في مثل نشاطي وإيماني ، وسأخدم

العراق بعد فراق العراق ، سأخدمه وأنا بعيد ، وأخشى أن تخذله

وأنت قريب

ولا تؤاخذني في هذه الحدة ، فأنا أريد أن أكسبك للعراق ، فعندك وعند أمثالك عواطف غايات أحب أن أوقفها لخدمة العراق .

فإن كان يسيئك أن أتعصب للعراق هذا التعصب ، فأنا أدعوك إلى أن تتعصب لمصر مثل هذا التعصب ، فالأمة العربية - ولا أقول الأمم العربية لئلا يغضب سعادة الأستاذ ساطع الحصري - الأمة العربية في شوق إلى أن يعطف بعض أعضائها على بعض ما الذي يضرك أيها الصديق من إسرافي في المقترحات لخدمة العراق ؟

أحب أن أعرف ما الذي يضرك وأنا لا أخرج بمقترحاتي أحداً من الناس ؟

إسمع أيها اليأس !
أنا اقترحت جائزة النحو في البصرة
فمن أي الأحجار صيغ قلبك لتنكر جائزة النحو في البصرة ؟
هل يصعب على الحكومة العراقية أن ترصد ثلاثين ديناراً في كل سنة للمتفوقين في النحو من شبان البصرة ؟
من العجيب والله ألا يكون في البصرة نحويون متفوقون ،
وباسم البصرة أكل النحويون الخبز في مختلف الأقطار العربية .

من العجيب والله أن يكون أعظم شارح لكتاب الكامل للبرد
رجل مصري هو أستاذي وصاحب الفضل على عقلي وأدبي ،
الأستاذ سيد بن علي المرصفي

من العجيب والله أن يطبع كتاب الكامل في أوروبا ولا يطبع
في البصرة !

من العجيب والله أن تطبع مؤلفات الجاحظ في مصر قبل أن
تطبع في البصرة !

من العجيب والله أن يستغرب رجل مثلك أن تقام للنحو جائزة
في البصرة !

اتق الله يا رجل واعترف بالحق .

اسمع أيها اليأس !

أنت تستكثر جائزة الصحافة للورّاقين

فهل لك أن تدلني ماهي مهمة الصحافة في العراق ؟

أتكون مهمة الصحافة نشر الأخبار والقصائد والأفاصيص ؟

إن الذي وجهني إلى هذا الاعتراض هو ما عانيته مع تلاميذي ،

فقد كنت أفرض عليهم واجبات يعجزون عن أدائها ، لأن المصادر
غير موجودة في مكتبات العراق .

هل تصدق أن تلاميذي لم يجدوا ديوان ابن خفاجة في أسواق
بغداد ؟ .

هل تصدق أن أكثر المؤلفات الحديثة لا تعرفها مكتبات بغداد؟
هل تصدق أن أعمالى مع تلاميذى تعطل فى أحيان كثيرة
بسبب قلة المراجع؟

كان فى مقدورى أن أجعل « جائزة الوراقين » من عمل
الحكومة ، ثم رأيت أن أكلها إلى همتمكم ، لأن الحكومات لا تقوم
بجميع الواجبات إلا فى الأمم الضعيفة ، والشعب العراقى ليس
شعباً ضعيفاً وإن ضعفت أنت .

وجائزة الوراقين لن تكلفكم شيئاً ، أعنى أنها لا تكلفكم مالاً ،
ويكفى أن يكون فىكم خمسة أو سبعة يراقبون النشر والتوزيع
ثم يقيمون حفلة بسيطة يعلنون فيها اسم الفائز بجائزة الوراقين .

إسمع أيها اليانس !

هل يدهشك أن أقترح إنشاء جامعة عراقية ؟
هذا فيما يظهر أعظم ما اقترحت . وفى كلامك ما يشير إلى أنى
أخطأت ، والخطأ فى هذه المرة أقبح ، لأنه متصل بمشروع هائل
تنوء به الجبال .

أعترف بأنى أخطأت حين اقترحت إنشاء جامعة عراقية ،
ولكن يعزبنى أن هذا الخطأ الفظيع وجد من يشاظرنى
حمل أوزاره الثقالة .

فقد وجدت ناساً لا يقلون عنى رعونة وطيشاً ، أقسم لك إنني
وجدت ناساً يستصوبون هذا الخطأ الشنيع ، فليذهبوا معي إلى
جهنم إن كنت من المخطئين .

أنا أذكر أيها الرجل الفطن العاقل أن جميع الجرائد العراقية
زكتني وأيدتني حين دعوت أول مرة إلى هذا المشروع الجليل .
وأنا أذكر أيها الرجل الفطن العاقل أن فريقاً من الأدباء
استحثني للمضي في الدعوة إلى هذه الفكرة ، وكان ذلك فيما أذكر
على صفحات البلاد والهدف والحاصل والزمان والاعتدال
والعقاب .

والذين تحلو لهم مداعبتني في بعض الجرائد والمجلات لم يقولوا
لني أخطأت حين دعوت إلى إنشاء جامعة عراقية .

فكيف كنت عندك وحدك رجلاً غيبياً ؟

أيها الرجل الفطن العاقل ، اسمع ثم اسمع

إن العراق يعتز بأن عنده قوة برية وقوة جوية .

وأنا أدعوه إلى أن يعتز إلى جانب هاتين القوتين بقوة عليية .

وهذه القوة تحتاج إلى ثكنات ، هي الكليات ، كليات الجامعة

العراقية التي أراها رأي العين ، وإن أنكرها خيالك الوثاب !

أيها الرجل الفطن العاقل

أنا أحب أن أكسبك وأكسب مليوناً من أمثالك لخدمة العراق

فهل ترانى أفلاح؟

هل ترانى أفلاح فى اجتذابك لإنشاء خمسين مقالة فى الدعوة
للجامعة العراقية؟

هل ترانى أفلاح فى دعوة الشعب العراقى إلى الصوم يوماً واحداً
لتكون أثمان طعامه فى يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس
الجامعة المصرية؟

أنا أنتظر اليوم الذى يتحقق فيه التعاون العلبى بين مصر والعراق
أنا أنتظر اليوم الذى تصنعون فيه بدجلة والفرات ما صنعنا
بالنيل .

وهل أتاك حديث النيل؟

إن النيل لا يصل إلى البحر إلا وهو أو شال بفضل ما أقننا عليه من
القناطر والخزانات .

أما دجلة والفرات فيذهبان بمصاغة البحر بلا رقيب
ولا حسيب .

إسمع أيها الفطن العاقل :

لقد حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق ، وسمعت
الخطبة الفصيحة التى ألقاها أحد المتخرجين ، الخطبة التى قرر فيها
أن مصر حين تخدم العراق من الوجهة التشريعية إنما تؤدى دينا
قديمًا: هو الفقه الذى نقله الشافعى ، وكان رحل إليها بعد
التفقه بالعراق .

إن هذه الكلمة أثارَت أشجاني ، فقد تذكرت أننا فرطنا في
ماضينا العلمي والأدبي ، وتناسينا ربط الحديث بالقديم .
ولك أن تذكر أن فقه الشافعي الذي تعرَّق ثم تمصر لا يجد من
رجال القانون عندنا أو عندكم من يعرف الفروق بين مذهبه
القديم ومذهبه الجديد .

وأغلب الظن أن كتاب «الأم» الذي ألفه البويطي في فقه
الشافعي لا يوجد بمكتبة الحقوق في بغداد؛ وإن كانت تلك
المكتبة تعرف طوائف من المؤلفات في الفقه الروماني .

أيها الصديق

احذر أن تنخدع بالظواهر فتظن أن التعاون العلمي قائم حقيقة
بين مصر والعراق .

قد نكون صنعنا شيئا ، ولكن هذا الشيء لا يزيد عن
حفر الأساس

إنما يتم التعاون العلمي بين مصر والعراق يوم نعرف تبادل
الأساتذة وتبادل الطلاب ، كما يفعل الفرنسيين والإنجليز
والألمان .

ويومئذ تتأصل المودة الحقيقية التي لاتزعزعها كلمة وشاية أو
كلمة بهتان .

وهذه الآمال قد يعجز عن تحقيقها مصري مثلي ، أو عراقي مثلك

فهذه آمال لا ينهض بتحقيقها غير رجال لهم صبر الانبياء .
أما بعد فأنا ومن بأن الأمم العربية ، أو الأمة العربية ، شبعت
من النضال السياسي وهو في أغلب أحواله نضال أئيم ؛ فلم يبق إلا
النضال الأشرف ، وهو النضال العلمي والأدبي .

أنت تعرف أيها الأخ أننا لم نعرف البطولة في غير الميادين
السياسية ؛ وهي بطولة محترمة ، فمن حق من أودى في سبيل الوطن
أن يقول إنه من رجال التضحية وأن يطلب من المناصب ما يشاء .
ولسكن يبدو لي أن الوقت حان للبطولة العلمية والأدبية .

حان الوقت الذي نحرر فيه بلادنا من السيطرة الأوربية في
العلوم والآداب والفنون ، وما أدعو إلى غض أبصارنا عما
في أوربا من آثار العقول . فهذا كلام لا يقوله رجل متخرج
في السوربون .

وإنما يجب أن نروض أبناءنا على الشعور بأن لهم أدباً وعلماً
وفناً . يجب أن نروض أبناءنا على الشعور بأن لنا عقولاً
وأذواقاً وأحاسيس

يجب أن يفهم أبناؤنا أننا صالحون لبناء مجدنا الأدبي
والعلمي بأيدينا .

يجب أن يكون مفهومنا أن العرب صلحوا مرة للاستاذبة العالمية
نحو ثلاثة قرون .

يجب أن يكون مفهوماً أن اتخاذ اللغات الأجنبية لغات تدريس
في المعاهد والكليات هو اعتراف بخطر بأن لغتنا فقيرة وأنا فقراء ،
وقد حاربت هذه النزعة في مصر وأنا اليوم أحاربها في العراق .

أيها الصديق

تلك كلمتي إليك ، وما يهمني أن أتصر عليك .

ولنما يهمني أن تفكر في الموضوعات التي طفت بها طوافاً في
هذا المقال ، وأن تحاول بقلبك أن تخلق لها أنصاراً من أهل
الأدب والبيان .

لقد لقيتك وفي يدي سيف وأنا أعرف أنك ستلقاني وفي يدك
غصن من الزيتون .

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

عبقرية الشريف الرضى^(١)

أما بعد فهذا كتاب «عبقرية الشريف الرضى» وما أقول إنى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح «الرسالة العذراء» ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب «النثر الفنى» ولا تسع سنين كما سأقول بإذن الله يوم أخرج كتاب «التصوف الإسلامى» فما شغلت نفسى بكتابتى هذا غير خمسة أشهر. ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس. وما كان لى فى بغداد هو ولا قون، فكانت الليلة فى بغداد كلية القدر، خير من ألف شهر، والتوفيق من أشرف الأرزاق.

وكتابتى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ولكنه الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع، ولم ينقضى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك، ولم يبق إلا أن أستريح!

ومحاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد

(١) هو كتاب فى جزأين أصدره المؤلف فى بغداد، ومقدمته هذه تشرح كيف استجاب المؤلف لوحى بغداد

محاضراتي عن « المدائح النبوية »، وهي المحاضرات التي ألقيتها باسم
الجامعة المصرية في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة، فهل يتسع العمر
لموسم ثالث في القاهرة أو في بغداد؟

لاتسألوني كيف ظلمت نفسي فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت
معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق
ورجعت الحياة الأدبية في بغداد رجاً عفيفاً، فذلك كان أقل
ما يجب أن أصنع في مقابل الثقة التي شرفتنى بها حكومة العراق؛
وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسي مكاناً بين الأساتذة
المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز وأحمد
حسن الزيات والسنهوري وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمي؛
وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع في خدمة تلاميذي وتلميذاتي في
بغداد، وقد رأيت في وجوههم وجوه أبنائي وبناتي فكلفت نفسي
في خدمتهم فوق ما أطيق.

لاتسألوني كيف ظلمت نفسي فأنفقت من العافية ما أنفقت، فقد
سألتني أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها في بغداد تاريخ،
فكانت تفتح ثم تغلق، وتفتح ثم تغلق، فاستعنت الله وانتفعت
بعضاف معالي وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشيبلي وأريحية
الأستاذ طه الراوي ومودة الدكتور فاضل الجمالي، وعوّلت على

همة زميلي وصديقي الدكتور فؤاد عقراوى وأقمنا لدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلينا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، و غرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء .

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج في كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابي هذا عن الشريف الرضى . فإن ترفقت شواغلي بمصر وأذنت لى بالرجوع إلى بغداد فساخرج في كل سنة كتاباً جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لامفر له من أن يشقى فى سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت .

وإنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتندى العطف على « دار المعلمين العالية » . وممن أجتديه ؟ من حكومة العراق ، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية .

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضى !
إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو

يذكر جيداً أنني قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومي : كان
الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد في دراسة أشعار الشريف
الرضي .

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ، فهو
يذكر جيداً أنني نهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضي
كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث .

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادي الموظفين بالقاهرة فقد طلب
في سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية .
فكانت محاضرتي عن الشريف الرضي .

ابتدأت بالشريف الرضي على غير موعد ، فقد رأيتني فجأة بين
دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر
الذي تعصبت له منذ أعوام طوال .

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أنني لم أفكر في إنصاف
الشريف الرضي إلا يوم قدم لي الدكتور شريف عسيران نسخة
من كتاب الأستاذ المقدسي عن أمراء الشعر في العصر العباسي ،
فأزعمني أن يهتم بأبي العتاهية وينسى الشريف الرضي . مع أن ديوان
أبي العتاهية لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف .

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لي غاية في التعصب للشريف الرضي
فليثق الله في نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو كان أنفق
نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه

بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي
والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا في طليعة
أولئك الشهداء

* * *

سيرى قراء هذا الكتاب أنني جعلت الشريف أخل شاعر عرفته
اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد :
أيكون الشريف أشعر من المتنبي ؟
وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في
أى كتاب . ولن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أولف
عنه كتاباً مثل هذا الكتاب .

والقول الفصل في هذه القضية أن المتنبي في بابهِ أشعر من
الشريف ، والشريف في بابهِ أشعر من المتنبي ، وكل عبقرى هو في
ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه ، والشريف
بهذا المعنى أخل الشعراء لأنه جرى في ميدان سيظل فارسها السباق
على مدى الأجيال

وما الذى يضر أنصار المتنبي حين أقدم عليه الشريف ؟
هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي ؟
إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأننى كنت أول
من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي ، ولى على

ذلك شهود منهم الشيخ السكندري والاسـتاذ عباس محمود
والدكتور منصور فهمي

وما الذي يضر أهل العراق من أن أهتمّ بشاعر لا يعرف
العراقيون، ووضع قبره على التحقيق؟ أليس من العجائب أن يعرف
العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضي؟
إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص!
إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى
عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أنني كنت كذلك طول حياتي
فوضعت بالنقد قوما ورفعت آخرين، وفقاً للحق لا طوعاً للأهواء
وأنا والله راض بأن يغضب عليّ أهل بغداد، فقد غضبوا على
أبي طالب المكي فمنحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تذكى عزيمتي، ومن أجل هذا أنظر
نظر الجزع إلى مصير خصوماتي في بغداد، فلن يكون لي في بغداد
خصوم بعد ظهور هذا الكتاب، وإنه لقادر على أن يفجر العطف
في القلوب المنحوتة من الجلاميد. سيذكر أدباء بغداد أنني أحييت
شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق، سيذكر أدباء بغداد أنني
وفيت لمدينتهم السحرية حدين اهتممت بشاعر كان أصدق من
عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد

وكتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبى ، تلك القواعد التى أذعتها فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) وهو من أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية ، وسيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الأدبية ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين

ويان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موافق الصديق من الصديق ، والتشابه بينى وبين الشريف الرضى عظيم جداً ، ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى فى حياته ما عانيت فى حياتى : كافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه ، وكأخت فى سبيل المجد ما كأخت وجهلنى قومى وزمانى

وهذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفيأ للبحث إلا إن سائرت الشاعر الذى أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هى المزية التى أتفرد بها بين أساتذة الأدب العربى .

سائرت الشريف مسaire الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت . إن جدّ الشريف جددت ، وإن لعب لعبت . إن عقل الشريف عقلت ، وإن جنّ جننت ، إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن

الحياة هي الحب، قلت : والحب الحياة !

ولكنني مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفتن إليه إلا الأذكياء ، وفي بني آدم أذكى . نهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد عليّ لأن الصديق الذي في مثل حالي تغفر له جميع الذنوب . والشواهد في هذا الكتاب كثيرة جداً وذلك هو أسلوبني في البحث ، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذي أدرسه أكثر مما أشغله بنفسي ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون .

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ما صادفتني فيها من أغلاط ، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذي لا يفهم قيمة الوقت الذي ينفقه الشارح في تحديد المعاني ، وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبي ، وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة في بغداد سيذكرها أصحاب المطابع

* * *

بغداد !

هذا كتابي ، أقدمه يميني في تهيب واستحياء ، فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء
تجحد الجميل

بغداد !

اصنعى فى ودادى من التنكر والتقلب ماشاء لك الدلال . أما
أنا فأشهد أنك صنعت بقلبي وعقلي ما عجزت عنه القاهرة وباريس !
أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ، والظلم يجمع
بين القلوب

نصرک الله ونصرنى ، ررعاك ورعاني ، إنه سميع مجيب .

وعليك منى السلام .

بين مصر ولبنان^(١)

أخي الأستاذ رئيس تحرير البلاد

إنك تذكر ولا ريب أنني صحفي قديم ، وتذكر أنني ابتدأت
بالصحافة السياسية ، ثم انتهيت إلى الصحافة الأدبية ، فراراً مما
يصحب السياسة من المحرجات التي يضيق بها الوجدان في بعض
الأحوال .

وتذكر أيضاً أنني غامرت في أكثر من ألف معركة أدبية ،
ثم انتصرت فيها جميعاً ، فليس في مصر عالم ولا أديب يستطيع أن
يقول في السر أو في العلانية إنه انتصر على الدكتور زكي مبارك .
كل ذلك تعرفه ياسيد رافائيل ، ولكن غابت عنك أشياء ، فهل
تصدق أنني سأهزم أمام مجلة المكشوف التي تصدر في بيروت ؟
إلى والله ! سأهزم وسأعود إلى أهلي وأنا جريح الفؤاد .

لا تعجب أيها الأخ من هزيمة أخيك الشجاع زكي مبارك ،
فإن جريدة المكشوف تدخل معي في مضائق أجبن عنها كل الجبن ،
لأنها تحاول أن توقد نار العداوة بين أدباء مصر وأدباء لبنان ، وأنا
رجل صممت على أن أعيش دهرى كله من دعاة الأخوة بين

(١) قدمت هذه الكلمة إلى جريدة البلاد ولكنها لم تنشر في الوقت المناسب

لأسباب كثيرة منها تعطيل الجريدة !

الأقطار العربية فلا أستبيح لنفسى أن أشترك في مناقشة يقال فيها
لبنان أفضل من مصر ، أو مصر أعظم من لبنان .
أضف إلى ذلك أن لى أصدقاء من اللبنانيين يسوءهم أن أعرض
لبلادهم بكلمة ملام ، فهل رأيت أخرج من هذا الموقف أيها
الصديق ؟ .

أنا لا أرى لبنان في وجوه أولئك السادة الذين يحاربوننى في
جريدة المكشوف ، وإنما أرى لبنان فى وجوه الأصدقاء الأبحاد
الذين عرفتهم فى بيروت وفى القاهرة وفى باريس .
قد يسأل قراؤك : وما أصل الخصومة ؟

وأجيب بأن جريدة المكشوف تقول إن الأدباء اللبنانيين أعمق
من الأدباء المصريين !!

وما يسوءنى أن يكون الأمر كذلك ، فنحن جميعاً إخوان ،
ولكن الواقع يشهد بغير ذلك ، الواقع يشهد أن أدباء مصر هم اليوم
حماة اللغة العربية ، وأقطاب الأدب والبيان ، وتفوق الأدباء
المصريين ليس مغنما لمصر وحدها وإنما هو مغنم لجميع الأمم العربية
فإن استطاع لبنان أن يقدم للعروبة أدباء أعمق من أدباء مصر
فسأكون أول المرحبين ، ولكن مصر بحيويتها العلمية والأدبية
والفنية ستظل مرفوعة العلم شاحخة البنيان .

وأؤكد لك يا صديقى أن مصر تعرف جيداً ما هى مقبلة عليه ،

هي تفهم أن المجد الأدبي يقدم له وقود هائل من الجهد والمال ،
وهي من أجل ذلك تحض أبناءها على الجهاد الموصول في سبيل
الحياة العلية والأدبية والفنية ، وهي تعمل ما تعمل في سكون ،
وتترك الأقاليم والأراجيف لمن لا يعرفون قيمة الأخوة العربية .

هل تصدق أيها الأخ أن وقتي في العراق يضيع منه جزء ثمين
في دفع المفتريات التي تصوب إلى مصر بلا حساب ؟

أحب أن أعرف ما هو الموجب للتحامل على الأدباء المصريين وهم
يقذفون أبصارهم تحت المصاييح في خدمة اللغة العربية .

أحب أن أعرف ما هو الموجب للحقد على مصر في بلد مثل لبنان
وقد كانت مصر هي الملاذ للضطهدين من أحرار الفكر في لبنان
أما بعد فإن بعض أصحاب الأهواء يسوءهم ثم يسوءهم أن يقال
إن مصر لها الزعامة الأدبية ، وأنا أقول بصوت جهوري يسمعه
من في القبور : إن الأمم العربية لم تصدق على مصر بالزعامة
الأدبية ، وإنما هي مجد غنمه المصريون بفضل ما قدموا من الجهود
في نصرة اللغة العربية ، ونحن على أتم استعداد لأن نقدم الراية
لمن ينفقون من أعمارهم بعض ما تنفق في سبيل لغة الضاد

فلتسمع هذا الكلام مجلة المكشوف ، ولتفهم جيداً أن أدبي
لا يسمح بمجاراتها في ميدان الهجاء ، لأن لي في لبنان إخواناً كراماً

يؤذيهم أن تعثر قدمي في هذا الميدان . وأنا لا أنظر إلى الساعة
الحاضرة ، وإنما أتمثل المستقبل المشرق الذي ترفرف فيه راية
العروبة الغالية ، وذلك أمل أراه برعاية الله سهل المنال
أكتب هذا إليك وأنا أرجو أن لاتعاق عليه بما يؤذي إخواني
في لبنان ، وللمجلة المكشوف أن تعاق بما تشاء ، فايست أول مجلة
آذنتي ، ولن تكون آخر مجلة تؤذيني بالظلم المبين
وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل

بعض مآرايت في العراق^(١)

أيها السادة

تفضلت الإذاعة اللاسلكية فدعتني لإلقاء محاضرتين عن العراق، فرأيت أن أقسم الموضوع إلى قسمين: الأول أصور به بعض مآرايت في العراق، والثاني أصور به الحياة الأدبية في العراق وأبدأ فأذكر أن هجرتي إلى العراق لم تكن تخطر بالبال، فقد كانت لي في مصر شواغل تصرفني عن التفكير في ذلك، ثم فوجئت بالدعوة إلى خدمة العلم في العراق في مطلع شهر أكتوبر من السنة الماضية، فترددت في قبول الدعوة، ثم قلت في نفسي إن من العقل أن أعرف جوانب من الشرق بعد أن عرفت جوانب من الغرب؛ وصح عندي أن الهجرة إلى العراق قد تشرح دقائق الأدب في العصر العباسي، وليس من المقبول أن يصح لمثلي أن يصف باريس عن علم ويصف بغداد عن جهل!

وما هي إلا أيام حتى كنت في طريقي إلى العراق، ولعلني كنت المصري الوحيد الذي لم يطل بينه وبين المفوضية العراقية أخذ ولا رد في شروط العمل بالعراق.

ولكن كيف أصل إلى العراق؟

(١) محاضرة ألقيت في الإذاعة المصرية

كانت هناك مسالك للوصول : الأول الوصول بالطيارة ، وهو أسهل الطرق ، لأنه يمكن المسافر من الفطور بالقاهرة والعشاء في بغداد ، ولكنني تذكرت أني أعطيت جماعة من تلاميذي موضوعاً للانشاء منذ عشر سنين عن (خطر انعدام المسافة في العصر الحديث) وكنت أرى أن الطيران قضى على جانب مهم من الأدب الوصفي فلن يكون في الدنيا بعد اليوم رجل مثل ابن بطوطة ولا رجل مثل چان چاك روستو ، وأنا أرى الشرق العربي أول مرة ، فليس من المفيد أن أسافر في طيارة فأحجب عما فيه من أنهار ومدائن وسهول .

الطريق الثاني هو طريق البحر من الاسكندرية إلى بيروت وهو يعطي الفرصة لرؤية لبنان وسورية ، ولسكنه يحرمني رؤية فلسطين ويحبسني في البحر يوماً وبعض يوم ، وأنا ركبت البحر إلى أوربا أكثر من عشر مرات وشبعت منه وشبع مني .

الطريق الثالث هو السفر من القاهرة إلى القنطرة لاختراق فلسطين بالقطار حتى أصل إلى حيفا ومنها إلى بيروت ثم إلى الشام ثم إلى بغداد .

ولكن طريق فلسطين كان في ذلك الوقت محفوفاً بالمسكاره ، فقد كانت البرقيات تحدثنا أن الثوار يذسفون القطارات ، فلم يصرفني ذلك عن المرور بفلسطين ، لأنني كنت أحب أن أرى البلاد

التي يقتتل حول خيراتها العرب واليهود ، وقد نهاني بعض الزملاء
المسافرين إلى العراق فلم أنته ، وتفردت بملك المغامرة لا كحل جفني
برؤية فلسطين .

وصلت إلى القنطرة في ليلة قراء توحى غرائب الشعر والخيال ،
فعلبت أن القطار سيتأخر قيامه من هناك ثلاث ساعات حتى
لا يدخل فلسطين إلا مع ضوء الصباح ، تجنباً لمخاطر التعرض
لنسفه بالليل . وكذلك عرفت أن من نهوني عن المرور بفلسطين لم
يكونوا مخطئين .

قضيت ساعات في مناجاة قنساء السويس والتأمل فيما صنعت
مصر لخدمة الإنسانية ، الإنسانية الجاحدة التي جهلت ما قدمت
مصر من جميل .

وقفت أنظر كيف خدنا بني آدم وكيف أتعبنا أجسادنا وأفقرنا
جبوبنا لنسهل وسائل النفع ولنصل بين المشرقين والمغربين ، ثم
لا نجد من يتفضل بكلمة ثناء .

وسار القطار قبيل الصبح فبخرت على عيني بالهجوم لأرى
أطراف مصر من ناحية المشرق ولأنظر بساتين فلسطين .

ولم يكفني ما رأيت من فلسطين في الذهاب فقررت المرور عليها
في الإياب لأتمتع باختراقها مرتين ولأقتنع بأنها بلاد جميلة جذابة
تستحق ما ثار حولها من النضال .

ولم أبت في فلسطين إلا ليلة واحدة عند الرجوع ، وكانت ليلة متعبة ، فقد كان محرّما على أهل حيفا أن يتجولوا بالليل ، وكان من الحزم أن أتضى سهرتى في رحاب الفندق وإن حرهني ذلك شهود المجتمع الفاسطيني في تلك المدينة البيضاء

وأعود فأقول إنى امتطيت سيارة في ذهابي من حيفا إلى بيروت وفي بيروت قضيت ليلة واحدة كانت أبقى أثرا من الليالي الطوال مضيت أتقل في بيروت من مكان إلى مكان بعد أن ألقيت أمتعتي في الفندق ، ثم اتفق أن عرفني بعض الأدباء هناك فساقني ذلك إلى زيارة أكثر الجرائد واندفعت فحاذبت أهل بيروت أطراف الأحاديث وعرفت ألوانا من عتابهم على مصر والمصريين ، وقد تعقبوني بعد أن وصلت إلى العراق فكان بيني وبينهم مناوشات ستعرفون أخبارها حين أنشر كتاب (وحي بغداد)

ومن بيروت رحلت إلى دمشق مخترقا جبال لبنان فرأيت من جمالها الأعاجيب ، ولا أزال مفتونا بما شهدت في الموضع المعروف بسهل البقاع

وفي دمشق رأيت الأستاذ محمد كرد علي والأستاذ عبد القادر المغربي وزرت بهض الزعماء وقضيت لحظات في مناجاة نهر بردى الذي خلده حسان

ثم أسلمت نفسي إلى سيارة دنيرن ، لا قطع الصحراء بين الشام

والعراق ولأرى بنفسى كيف شقى أسلافنا بمخاطر اليبداء
كنت أعرف أنى سأقضى أكثر من خمس وعشرين ساعة في
ذلك السجن المتحرك ، وكان ذلك يغرق نفسى في بحر من
الانتقاض ، ولكن كان يعزىنى ما عرفت من أننا سنستريح في كل
مدينة تصادفنا في الطريق ، ولم يكن في الطريق مدائن وإنما هناك
محطتان هما الرطبة والرمادى

وبعد ساعات من عبور الصحراء نظرت فرأيتنا مقبلين على
مدينة فيحاء ، مدينة تقع على نهر واسع تجرى فيه سفائن بخارية
وشراعية ، فانشرح صدرى وقلت سنستريح لحظات ، ثم عجبت
من جهلى بالجانب الجغرافى من ذلك الطريق ، فما كنت أعرف أن
هناك مدينة تقع على نهر عجاج ، وترحمت على أستاذى اسماعيل بك
رأفت الذى أسقطنى في امتحانات الجامعة المصرية مرتين لقلة
ما كنت أعرف من دقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب .

ولكن لم تمض غير دقائق حتى اختفت تلك المدينة مرة واحدة
فعرفت أنها كانت أضلولة من أضاليل السراب .

وبعد نصف ساعة لاحت مدينة جديدة ، فتأملت مرة ومرتين
ومرات فتأكدت أنها مدينة حقيقية ، وكنت كلما اقتربت منها
زدت يتمينا بأننا سنستريح بعد لحظات ، وتمتاز تلك المدينة بما يكثر
فيها من منارات المساجد وأبراج الكنائس ، وبما يحيط بها

من حدائق وبساتين ، وقد نظرت فرأيت حولها فرقة من الجيش تسير نحو الشرق ، وفوق ذلك الجيش يحلق سرب من الطائرات . ما اسم تلك المدينة ؟ ولمن ذلك الجيش ؟ ولأى غرض يتجه نحو الشرق ؟ آه من جهلى بدقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب ! كنت أستطيع أن أسأل بعض المسافرين عن تلك المدينة ، ولكنى خجلت من السؤال . فقد كان فيهم من يعرف أنى ذاهب لخدمة العلم في العراق ، ومن كان في مثل حالى لا يليق به أن يجهل هذه البسائط الجغرافية .

وماهى إلا دقائق حتى اختفت هذه المدينة وعرفت أنها كتلك : أضلولة من أضاليل السراب .

ولكن خداع السراب لن يستمر طويلا ، فقد أقبلنا على واحة كثيرة النخيل ، قد انتشرت فيها منازل صغيرة أكثرها أكواخ ، وفيها ألوان من الحيوان أكثرها الابل والشاء ، وفيها عدد قليل من الأعراب .

لم أطرب كثيراً لظهور هذه الواحة ، فقد كنت أستبعد أن نقف عندها لحظة أو لحظتين ، فما فيها - فيما أظن - مطاعم ولا مشارب حتى يستريح بها المسافرون .

ولكنها على كل حال فرصة للنزول ، وسأقترح الوقوف عندها بضع دقائق .

آه، ثم آه!

هذه أيضا أضلولة من أضاليل السراب .
ولكن هذه الأضاليل ستقفني بعد أشهر موقفاً سخيفاً جداً ،
ستكون حفلة الافتتاح للمؤتمر الطبي العربي في بغداد ، وسيكون
فيها الوزراء والنواب والأعيان وكبار الأطباء ، وسيلقى الأستاذ
على الجارم بك قصيدته في تحية المؤتمر فيقول في وصف البيداء .
طالت بنا الصحراء حتى خلتها أبد الأبيد
يتخلص المرمى البعيد بها إلى مرمى بعيد
كتخلص الحسنة من وعد طوته إلى وعود
فأصرخ : أعد يا أستاذ ، أعد الكلام عن وعود الحسان !
وعندئذ يتلفت الحاضرون فيرون الدكتور زكي مبارك هو
الذي يستعيد ، فيقول بعضهم لبعض : هذا مجنون ليلي ، ولا حرج
على المجانين !
وعذرهم في اللوم مقبول فما عرفوا من أضاليل السراب مثل
الذي عرفت .

• • •

ثم وصلت إلى الرطبة تعبان فلم أذق معنى للراحة هناك .
وبعد نصف الليل قضينا مدة في الرمادي فذقت أول مرة طعام
العراق .

وبعد الفجر رأيت أفواج الفلاحين وهم يسرون بمواشيهم إلى
حقولهم على الأسلوب الذي يجرى عليه الفلاحون المصريون .
وبعد تفتيش الأمتعة أخذت سيارة لأدخل بغداد بعد أن بقيت
في ذلك السجن المتحرك مدة طويلة رأيت فيها الشروق والغروب
ثم الشروق .

* * *

الله أكبر والله الحمد !

هذه بغداد التي قرأت عنها ما قرأت ، وسمعت في وصفها ما سمعت .
وهذا هو الجسر الذي قال في مثله ابن الجهم .

عيون المها بين الرصافة والجسر

جانب الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدن جمرأ إلى جمر

وذلك خيال باب الرصافة الذي تشوق إليه ابن نباتة السعدي فقال :

سقياً لتغليبي إلى باب الرصافة وابتكاري

أيام أخطر في الصبا نشوان مسحوب الأزار

حجبي إلى حجر الصراة وفي حدائقها اعتماري

ومواطن اللذات أوطاني ودار اللهو داري

وما كدت أضع أمتعي في الفندق حتى أخذت عربة ومضيت

فسلمت على وزير المعارف ، فراعنى أن أرى شيخاً معهما أسمر الوجه
فصيح الحديث ، وقد سألتى عن الصحراء ، فأظهرت تألمى لما
كأدت وعانيت ، فقال : اشكر ربك ، فقد قطعنا قبلك فى مدة دامت
خمسة وعشرين يوماً قبل أن تعرفها السيارات ، وكان حديثاً ممتعاً
عرفت به من خصائص الصحراء ما لم أكن أعرف .

ومضيت فقيدت اسمى فى ديوان حضرة صاحب الجلالة ملك
العراق ، وانتقلت فسلمت على نخامة رئيس الوزراء ، وأسرعت
فألقيت الدرس الأول فى دار المعلمين العالية وأنا بغبار الطريق !
سلام الله وسلام الحب على أيامى فى العراق .

كنت فى البداية أظن أننى ما حضرت إلا لتدريس الأدب
العربى ، فخبست نفسى بين المدرسة والمكاتب زمناً غير قليل .

ثم رأيت أن هذا المسلك غير مقبول لأنه سيحجبني عن
الخصائص الذاتية للشعب العراقى ، وخصائص هذا الشعب تفسر
كثيراً من دقائق الأدب فى العصر العباسى ، فانقطعت انقطاعاً يكاد
يكون تاماً عن المصريين المقيمين فى بغداد ، وأقبلت على البغداديين
أصحابهم وأصدقاهم وأقضى معهم ما تسمح به أعمالى من لحظات
الفراغ .

وكانت حجتي أن الشعوب لا تموت ، فبغداد التى غيرتها الأزمان
من أحوال إلى أحوال لا بد أن تحفظ كثيراً من شمائلها الأصيلة

لعهودها الذهبية، ولا بد من الوصول إلى بعض الأسرار التي قضت
بأن ينبغ فيها كبار الكتاب والشعراء .
وما هي إلا أشهر قلائل حتى كنت على صلوات بمختلف
الطبقات في بغداد ، وحتى صححت لنفسي أخطاء كثيرة في فهم
الأدب والتاريخ .

وبغداد تنقسم في وضعها الحاضر إلى قسمين : بغداد القديمة التي
كان يعيش فيها الناس قبل التمدن الحديث ، وهي مدينة جافية لمن
يرأها أول مرة ، ولكنها جذابة جداً لمن يعرف روحها الشفاف ،
هي مدينة تجذب من يعرف أهلها ، وهم في أكثر أحوالهم على
جانب عظيم من الأدب والذوق ولطف الأحاسيس وكرم النفوس
ولن أنسى طول حياتي ماقيت في تلك الدور الجافية من عذوبة
الأرواح وصفاء القلوب .

كنت أدخل المقاهي في تلك المدينة القديمة فيؤذني حرمانها من
النظافة والتنسيق ، ولكن قلبي كان يتفجر بالعطف حين أتذكر أن
هؤلاء الناس قارموا الحوادث والخطوب حتى حفظوا أصول
اللغة العربية وقواعد الإسلام ، وحتى استطاعوا أن يحفظوا
لأنفسهم وجوداً خاصاً بالرغم من تصارييف الزمان .
في تلك الدور الجافية نشأ ناس تغلبوا على مصاعب أخفها
الأوبئة والطواعين .

في تلك الدور الجافية خلقت عواطف وأحاسيس وأهواء .
في تلك الدور الجافية نبغ شعراء وصفوا الحب والليل .
في تلك الدور الجافية ألفت أحزاب ودبرت مؤامرات غيرت
وضع العراق من حال إلى حال .
وكانت لتلك الدور الجافية تقاليد ، أهمها الباب المفتوح
للجائعين والملهوفين .

إليك أيتها الدور الجافية وإلى ما يعلوك من رواشن وما يحيط
بك من مضايق ، إليك في خشونتك التي أراها أنعم من حدود
الملاح أقدم تحيتي وثنائي .

أما بغداد الجديدة فتصورها الضواحي التي أنشئت على النظام
الحديث .

وهذه الضواحي تمتد إلى آفاق بعيدة على شواطئ دجلة ، وفيها
يعيش المياسير من أهل بغداد ، هي ضواح لا تقاس إلى الجزيرة أو
مصر الجديدة أو المعادي أو حدائق القبة ، ولكنها بالنسبة إلى
بغداد القديمة تعد انتقالاً سريعاً إلى أجواء الرفاهية واللين .

وفي الأحياء الجديدة ميل شديد إلى الأناقة والتنسيق ، ولن
تمضي غير سنين قلائل حتى تخلق بغداد كلها خلقاً جديداً ، بفضل
أبنائها الذين يزورون مصر وغير مصر فينقلون إلى وطنهم بذور
الحضارة والعمران .

• • •

ليس في بغداد مواصلات سريعة على نحو ما في القاهرة أو الاسكندرية ، فليس فيها ترام ولا مترو ، وسيارات التاكسي قليلة جداً ، وإنما يعتمد أهل بغداد على عربات تجرها الخيل ، وهناك سيارات عمومية تسمى «باسات» ، وهي قذرة وضيقة ولا يركبها في الغالب إلا الطبقة الشعبية .

والنساء في بغداد يؤثرن الحجاب ، وهو الزي الغالب على النساء المسلمات ، والسفور لا يشمع إلا بين نساء النصارى واليهود ، على أن تلميذات المدارس من المسلمات ينتقلن رويداً رويداً إلى السفور . ومن المنتظر أن يصرن بعد نحو عشرين عاماً إلى ما صار إليه الفتيات القاهريات ، إن لم تقع موجة اجتماعية تردهن جميعاً إلى مأثور الحجاب .

وأهل بغداد لا يشربون الخمر على قارعة الطريق كما يقع في بعض الحواضر المصرية ، وإنما يشربونها في فنادق مغلقة الأبواب ، وذلك أدب مقبول .

وقد أذيعت منذ أشهر أوامر توجب أن لا تقدم الخمر في الفنادق والملاهي بعد الحادية عشرة مساءً . حفظاً لصحة الشعب وآدابه من التبديد .

وفي العراق مدن لا يباح فيها بيع الخمر علانية ، وأشهر المدن في

هذا المعنى مدينة النجف ، وهي مدينة كبيرة ، ولكنها مع ذلك خالية من الملاهي والملاعب والمراقص ، ولم يدخل فيها الراديو إلا بعد جدال طال أمده بين العلماء .

ولما زرت النجف جلست على قهوة ، فلامني إخواني هناك ، وقالوا : سيكتب في التاريخ أن الدكتور زكي مبارك حين زار النجف جلس على قهوة !!

وسمعت أن أحد الموظفين بالكوفة كان يشرب الخمر سراً ، فلما علم الأهالي بخبره طاردوه إلى أن نقلته الحكومة من هناك . ويمكن القول بأن أهل العراق في جملتهم ينكرون شرب الخمر ، تشهد بذلك الحفلة التي أقيمت فيها نخامة رئيس الوزراء لأعضاء المؤتمر الطبي فلم يكن فيها شراب غير الماء القراح ، ومعنى هذا أن آداب الإسلام لا تزال مرعية في تلك البلاد .

وهناك شارع مشهور يسمى شارع أبي نواس وكانت أظنه يشبه شارع وجه البركة في القاهرة ، فلما رأيته عجبت ، لأنه شارع نظيف جداً يسير دجلة بحيث يمكن أن نسميه كورنيش بغداد ، وفيه قهوات لا يباح فيها شرب الخمر على الإطلاق .

وإنما نصصت على هذا الجانب من حياة أهل العراق لأنه يدخل في صميم المجتمع ، ويمثل أذواق الناس أصدق تمثيل .

وقد لوحظ أخيراً أن الفنادق التي تباع الخمر تكثر فيها

المشاجرات فاهتمت الحكومة بالأمر وبثت حولها الأرصاد
والعيون .

ويتصل بهذا ما شهدته حين دخلت بغداد فقد عرفت أن هناك
أوامر تعاقب من يفطرون علنا في رمضان ، وكذلك ينقضى شهر
الصوم وليس فيه مطعم مفتوح أثناء النهار ، وليس معنى هذا أن
أهل بغداد يصومون جميعاً ، ولكن معناه أنهم يراعون آداب
الصيام .

وملاهي بغداد تنقسم إلى قسمين : ملاه شرقية وملاه غربية .
أما الملاهي الشرقية فتقوم على الغناء والرقص على نحو ما كنا
نشهد في القاهرة منذ سنين . وقد عرفت أن البغداديين لا يصفقون
حين يطربون للغناء ، وهذا فيما علمت كان من أسباب الوحشة التي
أحسها الأستاذ محمد عبد الوهاب حين غنى هناك .

أما الملاهي الغربية فتقوم على الرقص الإفرنجى ، وهي ملاه قليلة
جداً ، لأن الذهاب إليها يعد من العيوب ، وهي مع ذلك تزدهم
بالرواد في أكثر الليالي .

ومن هذا تفهمون أن المجتمع العراقي يعاني صعوبة الانتقال من
وضع إلى وضع .

وما نقول به في الحكم على مدينة بغداد نقول به في الحكم على
مدينة البصرة ، ففيها رأيت مرقصاً إفرنجياً لو شاهده الجاحظ لكتب

في وصفه رسالة أو رسالتين !!

وقد أقمت في مدينة الموصل خمسة أيام فرأيتها أكثر احتشاما
من البصرة وبغداد ، والسرف في ذلك أن الموصل يكثرف فيها النصرارى
فبحرص المسلمون على آدابهم أشد الحرص ليقيموا التوازن بين
المذاهب ويذهبوا قالة السوء عن العقيدة الإسلامية .

* * *

ويسوقنا هذا الوصف إلى الحديث عن تدين أهل العراق ، فهم
في رأى من أشد الأمم تمسكا بالإسلام ، وربما كان العراق هو الأمة
الوحيدة التى لا تزال تختلف وتأتاف حول المذاهب الإسلامية ،
والاختلاف حول تلك المذاهب يوحى إلى الجمهور حب التعمق
فى درس الآراء والنظريات . وكذلك يعرف أهل العراق من
تاريخ الخلفاء والأئمة ما لا يعرف جمهور المسلمين فى غير العراق .
وفى العراق عدة جمعيات تهتم بنشر المعارف الدينية ، منها جمعية
الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية ، والجمعية الإسلامية ، والأخيرة
جمعية يديرها جماعة من فضلاء الهنود .

وعلماء الدين فى العراق يحترمون أئمة الإسلام احتراماً شديداً
وقد يصلون فى ذلك إلى حد التعصب الممقوت ، وأذكر أن جماعة
منهم قاطعوا محاضراتى فى بغداد بسبب كتاب (الأخلاق عند
الغزالى)

ومحطة الإذاعة العراقية تصنع مثل الذي تصنع محطة الإذاعة
المصرية من الاهتمام بتلاوة القرآن وإذاعة الأحاديث الدينية، وهم
ينظرون إلى من يذكروهم بالدين والأخلاق نظر الاحترام والإعجاب
وهم يتوجعون لما قد يقع بالمسلمين من سوء، تشهد لذلك مواساتهم
التي لا تنقطع لأهل فلسطين

وبهذه المناسبة أذكر أن يهود العراق يكادون ينفصلون عن
الدعوة الصهيونية بفضل اهتمام أهل العراق بقضية فلسطين، وإني
لأذكر أن أول إغاثة قدمتها هناك لمنكوبي فلسطين كانت ونحن
مجتمعون في بيت رجل من بني إسرائيل

وجملة القول في هذا الباب أن العواطف الدينية في العراق
عواطف سليمة جداً؛ والمصاحح الموفق يستطيع أن يقود العراقيين
باسم الدين إلى أشرف الغايات
وهم مع تدينهم أهل مرح وطرب وانشراح؛ وأكثرهم يجيد
الغناء

بقيت كلمة عن خيرات العراق
وأقول إنهم لم يستطيعوا إلى اليوم أن ينتفعوا تمام الانتفاع بما في
بلادهم من خيرات، فعندهم نهران عظيمان هما دجلة والفرات،
ولكن مياه هذين النهرين يذهب معظمها إلى البحر بلا رقيب ولا
حسيب .

ويوم يستطيع العراق حبس مياه هذين النهرين ستنقلب سهوله إلى رياض وحقول تعود على الناس بالخير العميم ؛ ولعل ذلك قريب . وجو العراق عنيف جداً في الصيف ، ولكن ينتظر أن يلطف حين تخزن مياه الأنهار وتكثر المزارع والبساتين .

وأنهار العراق مسمكة جداً فهم يأكلون السمك في جميع الأوقات وليست أنهارهم كنهري النيل الذي يضمن بالسمك فلا يراه الفلاح في العام غير مرات معدودات ، وكثرة السمك في أنهار العراق هي السبب في رخص اللحوم هناك .

وفي العراق يختلف الشمال عن الجنوب .

فالذاهب إلى البصرة تروعه النخلات التي تعد بالملايين ، والذاهب إلى الموصل تبهره حقول الخنطة ، وهي حقول ممدودة على مسافات طوال .

وفي العراق خيرات النفط الذي نسميه البترول ، ولها سوق قائمة في كركوك ، ويرى المسافر جذوات الذهب من مكان بعيد . وسكان العراق هم اليوم نحو أربعة ملايين ، ولو استطاعوا تدبير الخيرات في بلادهم لوصل السكان إلى أربعين مليوناً . وأخلاق أهل العراق تدور بين الشدة واللين ، فهم يسرفون في الحب ، ويسرفون في البغض ، وهم في هذا يتبعون جو بلادهم الذي يرق فيكون نسيماً ، ويقسو فيكون جحيماً .

ذلك أيها السادة بعض ما رأيت في العراق سقته إليكم بلا تزيين
ولا تجميل، وهو يصور أهم ما يجب أن تعرفوه عن المجتمع العراقي
وفي المحاضرة المقبلة أحدثكم عن الحياة الأدبية في تلك البلاد
لنرى كيف صارت اللغة وصار الأدب في الأمة التي رفعت لواء
النهضة العلمية في عصر بني العباس .
ويسرني وأنا في مصر أن أقدم التحية إلى سائر أهل العراق
راجيا لهم من الخيرات والبركات ما أرجوه لنفسي ولأهلي ولوطني .
حيا الله العروبة، وحيا الله الإسلام .

الحياة الادبية في العراق

أيها السادة

حدثكم من قبل عن بعض ما رأيت في العراق ، والليلة أحدثكم
عن الحياة الأدبية في تلك البلاد .

ولكن هل في العراق حياة أدبية ؟
العراقيون أنفسهم يرتابون في ذلك .

وهذا الارتياب يرجع إلى شعورهم بضعف الصلات بين حاضرهم
وماضيهم ، فهم يرون أنهم كانوا في العصر العباسي أئمة الناس في
العلم والأدب والبيان ، وينظرون فيرون بلادهم كانت خضعت
أحقابا لسيطرة اللغة الفارسية واللغة التركية ، ثم يتأملون فيرون
القاهرة تصنع في العقول العربية ما كانت تصنع ببغداد في عصر
بني العباس .

وهذا الشعور يغرق أهل العراق في بحار من التأملات ، فهم
يجاهدون جهادا قويا لينتصروا لأنفسهم ولأدبهم من سفاهة
الزمان .

والحق أن العراق من أصلح البلاد للشعر والخيال ، وترجع
هذه الصلاحية إلى جو العراق ، فهو شديد الحرارة في الصيف

وشديد البرودة في الشتاء، ومن طبع الجو الغيف أن يوقظ
العواطف والأحاسيس .

والذي عاش في العراق يعرف صحة ما أقول، فربما كان العراق
هو القطر الوحيد الذي لا تنقطع فيه الحائم عن البكاء والنحيب،
ويكون ذلك حين تهجم طلائع الصيف، وترق العواطف
وتضعف الأعصاب .

وفي العراق أقاليم تنقل الخواطر من حال إلى أحوال، فهناك
البصرة وهي المدينة التي تجري من تحتها الأنهار، والبصرة تدخل على
القلوب ألوانا من الأحزان والأفراح، بفضل ما تعرف أنهارها
من المد والجزر، وما يعرف نخيلها من الشدة واللين، وما يعرف
أهلها من القبض والبسط تبعاً لتقلب الفصول .

وهناك الموصل، الموصل المزهري الذي يسمونه أم الربيعين،
فللموصل قدرة عجيبة على تلوين الحزون والسهول، وهو يستقبل
الربيع بمواكب تتعرج من الأعشاب والأزهار والرياحين، ثم
تجف أعشابه فجأة فتسبغ على النفوس أثواب الاكتئاب، وبين
الأفراح والأشجان تنبغ عواطف الشعراء .

وهناك الطغيان، طغيان دجلة والفرات، وهذا الطغيان يغزو
القلوب بالروع والفرع فيجعلها صالحة أشد الصلاحية للشعر
والخيال .

وهناك الظباء الوحشية ذوات العيون والأجساد، وقد رأيتها
مرات، رأيت أسرابها في طريقى إلى البصرة وفي طريقى إلى بغداد،
وسمعت بأخبارها في سامراء.

وهناك الليل، ليل بغداد الذى يطول على حلفاء الألم والآنين.
ومن اسم الليل جاء اسم ليلى التى صحت فى كل أرض ولم تمرض
إلا فى العراق.

وهناك الصحراء، الصحراء الشامية التى تطوق العراق،
والصحراء التى تقع بين النجف وكربلاء.

وكان لى مع صحراء النجف تاريخ، فقد ثارت عواصفها ذات
يوم وأنا فى سيارة مع ثلاثة من الأصدقاء، هم الأساتذة رزوق
غنام وصادق الوكيل وتقى آل الشيخ راضى، فكانت حبات الرمل
تضرب وجوهنا بقوة وعنف حتى كادت تدميها، ثم انفرزت
السيارة فى الرمل فظلنا هائمين لا ندرى أين نتوجه نحو ساعتين.

وذلك الجو العنيف الذى يهيج الأعصاب والأحاسيس هو الذى
جعل أهل العراق مضرب الأمثال فى صدق اللوعة ورقة الحنين،
وقضى بأن يكونوا أكثر الناس شكاية من قسوة الأيام والليالى.
وما قال قائل (ياليل) فى مشرق أو فى غرب إلا كان نواحه
منقولا عن أهل العراق.

والعراق حين ينتشى يضع راحته على خده ويغنى غناء شجيا

تلين له الجلاميد ، وربما كان السر في ذلك أن العراق قضى
الدهور في كرب وأشجان ، فهو طول عمره في حرب مع الطبيعة
ومع الناس .

ومن أجل هذا كان أهل العراق أجراً أهل الأرض على إعلان
ما يضمرون ، وهل رأت اللغة العربية شاعراً مثل الشريف الرضى
يتغزل في موسم الحج وهو أمير الحج ونقيب الأشراف ؟
وهل رأى الناس رجلاً مثل الجبوبي ، وكان إمام المجتهدين
بالنجف ، هل رأى الناس مثله وهو في منصبه الديني يستبجح أن
يقول :

اسقني كأساً وخذ كأساً إليك

فلذيد العيش أن نشتركا

وإذا جدت بها من شفئك

فاسقنيها وخذ الأولى لك

أو فحسي خمرة من ناظريك

أصبحت نسكا وأضحت منسكا

وانهب العمر ودع ما سلفا

واغتم صفوك قبل الرنق

إن صفا العيش فما كان صفا

أو تلاقينا فقد لانتقى

وفي العراق ينبغ الشعراء نبوغاً بلا سابقة عهد بالثقافة الأدبية ،
ينبغون في الشعر بلا تثقيف كما تنبغ الحمام في السجع بلا تثقيف .
فمن شعراء اليوم في بغداد شاعر مجيد هو صديقنا العزيز السيد
عبد الرحمن البناء ، وهو بناء حساً ومعنى ، ولكن عبقريته نقلته من
هندسة المباني إلى هندسة القوافي ، فله عدة دواوين شعرية ، وله
مطبعة ، وله جريدة تسمى بغداد .

جلست أسمر مرة مع هذا الشاعر في ليلة قراء كأنها الصبح
المشرق في مصر الجديدة ، جلسنا في بهو الفندق ، فذق العالم العربي
على شط دجلة ، فنظر إلى وقال :

(أنا الذي بنيت هذه المسنأة)

فوقعت هذه العبارة من نغسي موقع الشعر الجميل .
وقد عجب الأستاذ محمد بهجة الأثرى إذ رآه يوماً واقفاً في
الشارع العام يدير أمر الفعلة فيأمر هذا ويصرخ بذاك وفي يده
قلم وصحيفة ليدون ما يجيش بصدره من المعاني .
ولكن لا عجب : فذلك بناء نشأ في العراق .

أيها السادة

قد رأيتم أنه ما كان يمكن أن تعيش مثل تلك البلاد بلا أدب
وبلا خيال .

فكيف حالها اليوم ؟

كيف حال البلاد التي رفعت راية العلم والمدنية بعد أن هجم
الفرس والروم؟

عرفت في بغداد ثلاثة من الأندية الأدبية : نادى القلم العراقي ،
ونادى المعارف ، ونادى المثني .

أما نادى القلم العراقي فهو شعبة من نادى القلم الدولي ، وهو تحت
رياسة معالي الأستاذ محمد رضا الشيبلي ، أحد الأفاضل بين شعراء
العراق ، وسكرتير هذا النادى هو الدكتور محمد فاضل الجمالى
مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية .

وصلت بهذا النادى قوية ، فقد تشرفت بعضويته ، وكانت حجة
من رشحوني للعضوية بذلك النادى أنى عراقى الروح وإن كنت
مصرى النشأة ، وقد أنسى كل شىء ولا أنسى أيامى بذلك النادى
الجميل .

وكيف أنسى سهرات ذلك النادى وفيها صخب وضجيج
يذكرنى بمكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية ؟
كنا نجتمع فى كل شهر نحو ثلاث مرات ، وما كان لنا مكان معين
وإنما كنا نجتمع كل مرة فى منزل أحد الأعضاء ، وكان على العضو
الذى نجتمع فى بيته أن يراعى مقتضيات الأحوال ، فإن كنا فى المدينة
قدم إلينا الشاى والحلواء ، وإن كان منزله فى الضواحي قدم إلينا
العشاء الخفيف ، والعشاء الخفيف هو طعام تبقى ذكراه فى الذهن نحو

ثلاثة أسابيع ، كالذي كان يقع في الرستمية والزوية ، ومن الزملاء
من تلفت أمعاؤه من ذلك العشاء الخفيف !!

وفي كل اجتماع يلقي أحد الأعضاء محاضرة ، ولا تسألوا كيف
كنا نستمع تلك المحاضرات فعلى الأستاذ الشيببي هو الذي كان
يستمع ، وهو من أصبر الناس على المكاره والخطوب ، أما الأعضاء
فكانوا يقضون الوقت في مضايقة الخطيب ، وأشهد أني كنت من
أوفر الناس أدبا في تلك الاجتماعات ، فما كنت أعترض على
الخطيب أكثر من سبعين مرة في المجلس الواحد ، وقد رأى معالي
الرئيس أن يريخي من المشاغبات فكان يقفل باب المناقشة بعد كل
اجتماع ، وهو فضل لن ينساه من كان ينقذهم تدخل الرئيس .

وفي نادي القلم العراقي عنزان ينتطحان : هما الأستاذ عباس
العزاوي والأستاذ عبد المسيح وزير ، وكنت بدأت أناطح الأستاذ
عبد المسيح ، ولكن الدورة انتهت قبل أن أشفي غليلي ، فان رجعت
إلى العراق فسوف ألقاه بما يشتهي حساده وعاذلوه !!

ويهتم نادي القلم العراقي بطبع ما ألقى أعضاؤه من جيد
المحاضرات ، وستكون مجموعة قيمة تمثل جوانب من أدب العراق
في العصر الحديث .

أما نادي المعارف فهو نادي المعلمين ، وهو اليوم تحت رئاسة
الأستاذ رشيد العبيدي ، أحد المتخرجين في دار العلوم بالقاهرة ،

وهو ناد خفيف الروح كنت ألقى فيه أصدقائي في مساء الخميس من كل أسبوع ، حيث أتمر مع الصديقين عبدالستار وحسين ، وحيث أقرأ ما لا أستطيع الوصول اليه من جرائد ومجلات ، وحيث أسمع إذاعة مصر والعراق وفلسطين .

وفي ذلك النادي كنت أنشرف بمقابلة سعادة الأستاذ طه الراوي من حين إلى حين ، وقد أخذت منه كلمة بالسعي لدى ولاية الأمور ليمنحوا النادي قطعة أرض بالضواحي ليشعر أعضاؤه بأنهم أصبحوا من أصحاب الأملاك المعنوية في بغداد .

أما نادي المثني فهو نادي العروبة ، وله صلوات مع أكثر الزعماء بالأقطار العربية ، وله نشرات دورية تصور ما يدعو إليه من مبادئ وآراء .

ومن أعضاء ذلك النادي عرفت السيد مهدي كبة والسيد عبد المجيد محمود .

ورئيس هذا النادي رجل شهيم ، ولكنني نسيت اسمه مع الأسف وعرفت أيضا جمعية الشبان المسلمين ، ودارها بالكرخ الذي كان فيه قمر ابن زريق .

ولجمعية الشبان المسلمين هناك حيوية جذابة ، فهي ملتحق السامرين من أهل الفضل في بغداد .

وهناك جمعية الهداية الإسلامية . وما أعرف أين تقيم ، ولكن

لها مجلة قوية اسمها : الكفاح ، ولها صلات بأكثر الباحثين في الأقطار الإسلامية ، وهي تصدر في كل سنة عدداً خاصاً بالمولد النبوي تلتقى فيه أقلام المتعمقين في التاريخ الإسلامي .
أيها السادة .

قد تسألون عن الصحافة في العراق ، وهي من أهم مظاهر الحياة الأدبية .

وأجيب بأن الصحافة هناك تجاهد لتؤدي واجبها في تثقيف الجمهور المتعطش إلى الآداب والفنون ، ولولا ضعف الطباعة وغلاء الورق لكان للصحافة في العراق مكان مرموق .

ومركز الصحافة هو بغداد ، لأنها العاصمة ، ففيها تصدر عدة جرائد يومية وعدة مجلات أسبوعية وشهرية مثل الأخبار والعالم العربي والزمان والرأي العام والعقاب والكرخ والاستقلال وبالك وحزبوز والكفاح والمناهل والهدف والعراق وبغداد وفتاة العراق والمعلم الجديد .

وفي البصرة تصدر جريدة الناس وجريدة الثغر ، وفي الحلة تصدر جريدة حمورابي ، ورأيت في الموصل جريدتين .
وفي النجف تصدر الاعتدال والحضارة والهاتف .

وهناك جرائد ومجلات غاب اسمها عن الذاكرة ، وهي جميعاً تكافح الأمية وتدعو إلى الفضيلة ، وتعاون على التثقيف .

ولا تظهر قيمة الجهاد الصحفي في العراق إلا إذا تذكرنا ما يعترض الصحافة من عوائق لا يتسع لشرحها هذا الحديث .
ويجب النص على أن جماهير أهل العراق لا يكتبون بما يصدر في بلادهم من جرائد ومجلات ، فهم يقبلون إقبالا شديداً على المجلات المصرية ، من أمثال المقتطف والهلال والرسالة والدنيا والاثنين والمصور وروز اليوسف والرواية وآخر ساعة واللطائف والصبح ، وهم في الأغلب يفضلون المجلات الجديدة على المجلات الفسكاهية .

وكذلك يمكن الحكم بأن الشاب العراقي يتصل بأصول الثقافة الحديثة على نحو ما يتصل بها الشاب المصري ، وربما جاز أن نحكم بأن الشبان العراقيين قد يعرفون من مؤلفات مصر ما لا يعرف الشبان المصريون .

وهذا يبشر بمستقبل مزهر للحياة الأدبية في العراق
أيها السادة .

قد تسألون عن الشعر والنثر في العراق .

وأجيب بأن العراق هو في ذاته جذوة شعرية ، ففيه من الشعراء مئات أو ألوف ، ومن فاته نظم الشعر لم تفته رواية الشعر ، وأسماهم تقوم في الأغلب على رواية الأشعار ، وطباعهم الشعرية في غاية من السباحة والنبيل ، وفيهم أريحية تذكر بأسلافهم في عصر

بنى العباس ؛ ولو صرحت بما في نفسي لقلت إن شمائل أهل العراق
تعدّ نماذج من الشعر الرائع
ومع هذا لم يظفر منهم بشهرة عالمية غير شاعرين اثنين :
الزهاوى والرصافي .

أما الزهاوى فكان أهل مصر يرونه ناظماً لاشاعراً ، وأكثر
أشعاره يؤيد هذا الرأي .

ولكنني سمعت من أخباره في بغداد ما أكد لي أنه كان يحيا حياة
شعرية ، وأنه كان في ذوقه وإحساسه من الأقطاب بين أهل الفنون ،
وهو الذي يقول في دفع من يتحاملون عليه :

على تهافتوا فرفعت كفي أصدّ به عن الأدب الذبابا
وأما الرصافي فهو أهل للشهرة التي ظفر بها بين قراء اللغة العربية
وله ديوان فخم سيحفظ مكانه بين دواوين الفحول .

وللرصافي أشعار كثيرة لم تنشر ، وهي على السنة الناس ،
وأكثرها في الهجاء . وما وصل إلى سمعي من تلك الأشعار يشهد بأن
العراق لم يضيع مذهبه المسأثور في السخرية من سخيخ الأخلاق
والتقاليد .

والعراق مغبون من الوجهة العالمية ، ففي بغداد والنجف شعراء
لا يعرفهم غير أهل العراق ، ولو اعتدل الميزان لسارت أسماء
أولئك الشعراء .

أما النثر فلاحظ له في العراق لهذا العهد ، وما أذكر أني قرأت
في العراق رسالة أو مقالة تضع كاتبها في الطبقة الأولى بين طبقات
الكتاب المبدعين .

وكذلك حالهم في النقد الأدبي ، فليس فيهم اليوم ناقد حصيف
يدرك الفروق بين دقائق المعاني .

وحظهم من التأليف الجيد قليل ، والصلة بين حاضرهم وماضيهم
من هذه الناحية تكاد تكون منقطعة تمام الانقطاع .

وتخلف العراقيين في الإنشاء والنقد والتأليف له أسباب ، فهذه
الفنون لا تزدهر إلا حين تقوى الثقافة الأدبية وتستفحل ،
والعراقيون لم يوجهوا همهم إلى الثقافة الأدبية إلا منذ زمن قليل ،
أي منذ تنسموا هواء الاستقلال .

وإني لأرجو أن يصل اليهم هذا الصوت ، فما أحب أن يكونوا
في النقد والإنشاء والتأليف من المتخلفين ، وكان أسلافهم من
من السابقين الأولين في هذه الميادين .

وهناك بوارق لهذه الفنون في الجرائد وانجملات ، ولكنها
كالبوارق التي تسبق الفجر الصادق .

وإنما نصصت على هذه الجوانب لأن أهل العراق يحبون من يدلهم
على مواطن التخلف ، ولو كنت أعرف أن النص على هذه الجوانب
يؤذيهم لرأيت ما بيني وبينهم من الحب والوداد .

أيها السادة

في العراق حياة أدبية بلا ريب ، ولكن يعوزها أشياء ، وهم يعرفون ما أعنى .

في العراق حياة أدبية يرى المتطلع شواهدا في كل مكان ، ولكني أحب أن أسمع أن العراق أصبح يسيطر على الحياة الأدبية في مختلف الأقطار العربية ، كما تصنع مصر في هذا الزمان .

أنا أشتهى أن يقترب اليوم الذي تثار فيه المنافسة بين القاهرة وبغداد .

أنا أشتهى أن يقترب اليوم الذي تروج فيه المؤلفات العراقية في مصر ، كما تروج المؤلفات المصرية في العراق .

إن أدباء العراق يرون زيارة مصر من الفروض ، وأنا أنتظر اليوم الذي يرى فيه أدباء مصر أن زيارة العراق من الفروض .

فيا إخواني في العراق ، أنا أذكركم بواجبكم ، وأدعوكم إلى مضاعفة الجهد والنشاط لتصلوا بعون الله إلى ما يرجوه لكم محبوبكم من خير وسداد وتوفيق .

وإلى اللقاء ، يا أدباء العراق ، في ميادين النضال بين القاهرة وبغداد إلى اللقاء القريب يوم تصبح الأقطار العربية أمة واحدة متجانسة تجانسا تاما في العواطف والمقاصد والأغراض .

إلى اللقاء القريب يوم ترفع الحواجز التي خلقتها الأوضاع

السياسية فلا يحتاج الرجل إلى جواز سفر حين ينتقل من العراق إلى مصر أو من مصر إلى العراق .

إلى اللقاء القريب يوم تصبح الأخوة العربية أقوى وأمنع من أن تكدرها وشايات الواشين ونمائم النمامين .

إلى اللقاء القريب يوم يصبح الوجود العربي جسما واحدا إذا تألم منه عضو توجع له سائر الأعضاء .

إلى اللقاء القريب يوم تتوحد بيننا المذاهب التعليمية والاجتماعية والاقتصادية ، يوم لا تكون الفوارق الجغرافية إلا نعمة ندرك بها كيف شاء الله أن ينوع الخيرات والبركات .

وهذا حلم قد لا يتحقق ونحن أحياء ، ولكن يشرفنا أن نكون من أوائل المهاتفين بهذا الحلم الجميل .

أبو العلاء في الميزان

أكتب هذا المقال في لحظات حزينة اكتبها بنارها أبو العلاء ؛
أكتب هذا المقال وأنا أحزم أمتعتي للرحيل عن بغداد ، وهو ،
رحمه الله قد بكى يوم فارق بغداد ، ولعله لم يعرف موجعات الحزن
إلا يوم قهره الوجد على أن يقول :

أودّعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضنٍ لم يستقلّ وإنما تحامل من بعد العثار على ظلع
فبئس البديل الشام منكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربي
ألا زودوني شربة ولو أتى

قدرت إذا أفنيت دجلة بالسكرع

أما بعد فإني أرى أن أبا العلاء لم يكره الدنيا أبداً ، ولم يكن يوم
اعتزل دنياه إلا حيواناً مفترساً نزع الدهر ما كان يملك من أظافر
وأنياب . ولو كان أبو العلاء كره دنياه لا كتفى منها بأيسر العيش ،
ولكنه عاش عمراً طويلاً جداً ، وطول العمر يشهد بقوة الأواصر
بين المحب والمحبوب ، فالقتال بين أبي العلاء وبين دنياه كان قتالاً
بين عاشقين يظهران البغض والحقد ، ويضمران العطف والحنان .

والناس متفقون على أن أبا العلاء كان طلق دنياه فلم يظفر بما
في حواشها من نعيم ومتاع ، ولسكنى بعد التأمل عرفت أنه زهد في
جميع الأشياء إلا المجد ، والمجد هو أشهى الأطايب في دنيا الرجال .
فإن لم يكن هذا صحيحا فكيف نفسر خضوعه لما شاع في زمانه
من التقاليد الأدبية ، والخضوع للتقاليد الأدبية دليل الحرص على
إتهاب ما يملك الناس . وأحب أن أشرح هذه النظرية فأقول :

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين : أولهما يمثل في سقط الزند ،
وثانيهما يمثل في اللزوميات . أما سقط الزند فمجموعة شعرية تشهد
بأن الرجل كان يعجبه ويرضيه أن يكرن من أقطاب اللغويين ، وهو
قد أفصح عن ذلك حين خاطب الشريف الرضى والشريف المرتضى
في القصيدة التي رثى بها أبا أحمد الموسوى فقال :

يا مالكي سرح القريض أتت كما منى حمولة مسننتين عجاف
لا تعرف الورق اللجين وإن تسلى تخبر عن القلام والخذراف
وهي شهادة صريحة بأنه كان يحب أن يملك قلوب البغداديين ،
وكان البغداديون ألفوا حب البادية ، وهو مرض فظيع ترك في
اللغة العربية أسقاما وعقاييل . وأما اللزوميات فمجموعة شعرية
تشهد بأن الرجل خضع لأمراض زمانه أبشع الخضوع ، فقد كان
الأدباء في صدر القرن الخامس قد ابتلاهم الجهل ببلية سخيقة هي
الهيام بالزخرف ، والفناء في التزويق والتحويل .

والفرق بين مجموعة سقط الزند ومجموعة اللزوميات فرق عظيم جداً عند من لا يعرف . أما أنا — وأنا باحث يزعم أنه يعرف — فأحكم بأن المعري انتقل من بلاء إلى بلاء ، وأراه في سقط الزند مولعاً بالإغراب ، أعنى تصيد الغريب من الأخيلة والألفاظ والتعابير ، وأراه في اللزوميات مريضاً بعلتين : الاغراب والبديعيات .

هل كان المعري يجهل أنه يحنى على اللغة العربية بما صنع ؟ هل كان يجهل أنه في أغاب أحواله يخاطب أهل العراق وأهل الشام بما لا يفهمون ؟ هل كان يجهل أن في سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران شطرات وفقرات لا يفهمها المتفهم إلا بعد التأمل العميق ؟ هل كان يجهل أن البيان الحق هو الذي يروعك لأول نظرة كما يروعك الجمال الفصيح ؟

ما كان أبو العلاء يجهل ذلك أو بعض ذلك ، وإنما كان رجلاً لبقاً يعرف مواضع الضعف فيمن عاصروه فغزاهم بلارحمة ولا إشفاق .
قد يقول القارئ : وما محصول هذا الكلام ؟

وأجيب بأن هذه النزعة هي الشاهد على أنه لم يكن في دنياه من الزاهدين ، ولو أنه كان زاهداً لا تصرف عن حياة ما يملك معاصروه من زخرف وبريق ، وهو قد اتهم ثروتهم فادتنز بها واستطال .
كان المعري سياسياً في حياته الأدبية ، والسياسي لا يكون صحيحاً

سايما إلا أن استراح إلى أو هام الناس فتماق أهواءهم بلا تهييب
ولا استحياء ، وكذلك صنع المعري فتكاف الغريب من الأخيلة
والالفاظ والتعابير ، لأن الغريب كان في ذلك العهد رائج السوق
في مصر والشام والعراق .

ولو كان الرجل زاهداً في المجد الأدبي لظهرت الحكمة على لسانه
سمحة سهلة لا يشويها تكاف ولا افتعال . ولكن القارئ لن يسكت ،
فقد يكون الام منى ، فيسأل : وأين أنت من الزاهد الذي حرم على
نفسه لحم الحيوان ؟

إن قال ذلك فإني سأقنعه بأيسر جهد ، فقد اتفق لي أن أعيش
نباتيا في باريس زمنا غير قليل ، وما كنت مخلصا كل الإخلاص في
إيثار الحياة النباتية ، وإنما أردت أن أعرف سر المذهب النباتي
لأكتب عنه بحثا أو بحثين ، وحالي في هذا أقرب إلى النزاهة من
حال أبي العلاء ، فقد حرم على نفسه لحم الحيوان ليوهم الغافلين أنه
تفرد بالرحمة والشفقة والعطف ، وما كان في حقيقة أمره إلا آكل
لحوم ، وستعرفون صدق هذا الحكم بعد لحظة أو لحظتين .

هل يذكر القارئ ما وقع لأبي العلاء يوم مرض ؟

مرض أبو العلاء — عفا الله عنه وعني — فنصحته الطبيب بالحمية
وحين اطمأن الطبيب إلى نجاته من المرض وصف له فتزوجا ، والفروج
فرخ الدجاج ، ودارت يد أبي العلاء حول جسم الفروج في ترفق

مصطنع ، ثم هتف : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل

الأسد ؟

الله أكبر ! ذلك هو منطق شيخنا أبي العلاء .

فهل كان يظن هذا الشيخ أن الطبيب يستطيع أن يصف له شبل
الأسد ؟ إن نثيرة واحدة من شبل الأسد كانت تكفي لنقل أبي
العلاء إلى حظيرة الأموات ، ولكن الرجل استطاب الضحك على
المغفلين من أبناء ذلك الزمان .

هل زهد أبو العلاء في أكل اللحم ؟ هذا تمويه وتضليل . كان
الرجل يتحرج من لحم الطير والحيوان ، ولكنه كان مولعا بأكل
اللحم المحرم ، لحم الانسان ، فما ترك فئة ولا جماعة إلا انتاش لحمها
بأنياب حداد .

لقد انسحب المعري من المجتمع ، وما كان ذلك بابا من الزهد ،
وإنما كان فرار المناضل الذي تعب من النضال . وماذا صنع
المعري حين انسحب من المجتمع ؟ أترونه نظر اليه نظر الرفق
والعطف ، وذلك واجب الفيلسوف ؟

ما صنع شيئا من ذلك ، وإنما قضى دهره في أكل لحوم المجتمع ،
ولو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع قد يفسد من حيث
لا يريد ، لو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع غير مسئول عما
يعانى من أرهاق وأضاليل ، فتلك موارد القرون الطوال ، لو كان

المعري على شيء من الصفاء لأدرك أن المجرم قد يجرم وهو غير
مستول .

ولو كنت أستبيح لحم المعري كما استباح لحوم الناس لقلت إن
ثورته على المجتمع كانت ضرباً من الانتقام الأثيم ، فالرجل كان
يعرف أن أهل زمانه يتهمون به بالمروق من الدين ، فشاء له هواه أن
يسجل مخازيهم ومآثمهم وأن يفضحهم في العالمين .

قد يقول القارئ مرة ثانية : وما محصول هذا الكلام ؟
وأجيب بأن هذا النزق هو دليل الحيوية ، فالمعري كان يناضل
فضال الأحياء .

وما أعيب عليه غير التناقض في فهم الرحمة : فهو كان يعطف
على جميع المخلوقات إلا الانسان ، ولو أنه دخل في معركة مع الطير
أو الحيوان لنظم في ثلها مجهودة أعنف من اللزوميات

كانت نظرات أبي العلاء إلى المجتمع نظرات عوام لا خواص ،
وأنا أرتاب كل الارتباب في أن يكون هذا الرجل حاول التوفيق
بين سيطرة المقادير وضعف الناس ، وأكاد أجزم بأنه لم يدرك
خطر العسف ، عسف الحاكم الذي يبيع فتح الخانات ثم يعاقب
الناس على الشراب .

أما آراؤه في الزهد والزهاد فهي أضحيك ، وهي تشهد بأنه لم
يعرف الزهد ، لأنه كان في سريرة نفسه يؤمن بأن الناس لا يزهدون

إلا مخادعين أو مرأين ، ولعله لم يزهّد إلا خداعاً ، أو رياء . بل
لعله جهل كيف لطف الله به حين حجب بصره عن أسباب الشهوات
فلو أن الله كان حفظ عليه نور العيون لعرف أن الفضائل لا تشق
ولا تصعب إلا على من يقارعون فتن الوجود . لو أن أبا العلاء
كان مبصراً لرحم الناس . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف صدق الحكمة
التي تقول : القابض على دينه كالقابض على الحجر ، . لو أن أبا العلاء
كان مبصراً لعرف أن الرجل لا يستطيع البعد عن مواطن
الشبهات إلا حين تكون عزيمته أرزن من الجبال :
لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف أن الناس لا يندفعون
لمظاهر الفتون لاهين أو لاعبين .

من أنت والإنسانية يا أبا العلاء؟ من أنت والإنسانية حتى تفضحها
بذلك الكتاب الذي اسمه اللزوميات؟

أيها الرجل العظيم ! إنى أرثى لك وأعطف عليك ، فقد حرمتك
الأفدال من نعمة الجهاد في سبيل الفضيلة ، حرمتك الأفدال من
أسباب الشهوات فلم تكتب لك صفحة واحدة في كتاب الجهاد .
وكيف يحتاج إلى جهاد النفس من يحبس نفسه في بيته ولا يأكل
غير البقول؟

كيف يحتاج إلى جهاد النفس من يقضى الدهر ولا تقع عينه
على وجه جميل؟

كيف يحتاج إلى جهاد النفس من لا تذوق روحه صهبا
الوجود؟

أغلقت أبواب الجهاد الأكبر - جهاد النفس - في وجه أبي
العلاء منذ أصبح رهين المحبسين ومنذ اكتفى بالطعام الذي لا يوقظ
شهوات الحواس . ولكن بقي أمامه باب واحد من أبواب الجهاد :
هو نزاهة الأذن ونزاهة اللسان ، فماذا صنع ؟

لقد أصبح أبو العلاء في ذمة التاريخ ، وما يضره أن تتجنى عليه ،
ولو كنت أعتقد أنه يتأذى لحبست عنه قلبي ، وفي حدود هذا
التحفظ أقول إن الرجل أقام أذنيه مقام عينيه فعرف من صور
المجتمع كل شيء ، وكان له فيما أفترض أصحاب ينقلون إليه سوءات
الناس فيمضى في ثلبهم وذمهم وتجريحهم بلا ترفق ، وكذلك حرم
من روح التصوف فلم يعرف معنى العطف على مصائب الناس .

قلت إن أبا العلاء كان ينتقم من المجتمع . وأقول مرة ثانية إن
ذلك دليل الحيوية . فمن الذي يحرم على هذا الرجل أن ينتقم من
أهل عصره وقد آذوه أشنع إيذاء؟

ومن الذي يملك من الصبر ما يكف به لسانه عن عورات الناس
في بعض الأحيان؟

إن أبا العلاء هجم على المنافقين ، والقرآن استباح الهجوم على

المنافقين ، وما يمكن أن نعيب على أبي العلاء ما استباحه القرآن .
إن أبا العلاء هجم على رجال الدين ، ولا غرابة في ذلك ، فرجال الدين
أنفسهم يهجم بعضهم على بعض . إن أبا العلاء أعلن يأسه من
الإنسانية ، فهل استطاعت الإنسانية أن تحمي أهل الصدق والوفاء ؟
إن أبا العلاء سخر من تعدد الديانات والمذاهب ، فهل استطاع
المصلحون أن يمحوا أسباب الخلاف بين الديانات والمذاهب ؟
إن أبا العلاء جزم بأن بنى آدم :

ما فيهم برّ ولا صالح . إلا إلى نفع له يجلبُ

فهل استطاع بنو آدم أن يقيموا الدليل على خطأ هذا
الظن الأثيم ؟

إن أبا العلاء حكم بأن المرأة إذا شربت الكأس فقد تعرت ، فهل
اكتسى من بعده النساء ؟ إن أبا العلاء حدثنا بأن ناسا ينهون عن
الخمر في الصباح ويشربونها في المساء ، فهل انقرض هذا النوع من
النفاق البغيض ؟

أسرف أبو العلاء في تجريح الإنسانية ، وقد أنصف ، فهذه
الإنسانية الباغية تحتاج إلى من يفضح بغيها من حين إلى حين .
ومن هم بنو آدم حتى يعطف عليهم أبو العلاء ؟

هل عاش فيهم مصاح إلا بغصة أليمة لا يزحزحها في حلقه غير

لموت ؟

وهل كانت تواريخ الانبياء إلا سلسلة من الرزايا والنكبات ؟
وما الذي كان يصنع ابو العلاء والدنيا من حوله تضج بالظلم
والعسف والزور والبهتان ؟

إن أشعار أبي العلاء سجل صحيح لأوهام الإنسانية ، فلتكذبه
الإنسانية الباغية إن استطاعت .

لم يعرف الناس أن أبا العلاء رجل ضير ، وأن من كان في مثل
حاله خليق بالشفقة والعطف ، وهم تعقبوه بقالة السوء من أرض
إلى أرض ، فلتكن قاله فيهم وصمة باقية على الزمان .

ولكن ماهذا الذي صنعت بالناس يا أبا العلاء ؟ إن عمالك
أخف من عمائمهم ، هم جميعاً مساكين صحت فيهم كلمة من يقول :
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبذل بالماء
أنت عبت النفاق على رجال الدين ، فكيف غاب عنك أن
رجال الدين لم يعيش بينهم رجل صريح ؟ أنت عبت الظلم على
الحكام ، فكيف غاب عنك أن الحاكم العادل جزاؤه الخسران ؟
أنت أنكرت تعدد الديانات والمذاهب ، فكيف غاب عنك أن
لله حكمة في هذا التعدد ؟

أنت رجوت أن يكون الناس حكماء ؛ وما استطعت أن
تكون حكيماً

أنت رجوت أن يضبط الناس ألسنتهم ثم عجزت عن
ضبط لسانك .

أنت عشت في قرية صغيرة ولم يسلم عقلك من الفتون؛ فكيف رجوت
السلامة لمن عاشوا في كبريات المدائن؛ وصار عوا فواتك الأهواء؟

أما بعد فأنا أشهد أن المعري كان رجلاً عظيماً ، بدليل أنه عاش
نحو ألف سنة على ألسنة الناس في المشرقين والمغربين ، ولو كان
حقيراً لمات يوم مات !

والمعري له أخطاء لا تحتملها الملائكة ولا الشياطين . وله عندي
عذر مقبول . فقد كان على عظمته شخصاً من بني آدم ، آدم
المسكين الذي أغوته امرأة حمقاء فنزل إلى الأرض بعد أن كان
يسكن فراديس الجنان .

عفا الله عنك يا أبا العلاء وعفا عني !

في ضيافة القرآن^(١)

سيداتي ، سادتي

أرجو أن تلقوني بقلوبكم قبل أسماعكم ، إن كان فيكم من يندم على ذنوبه كما أندم على ذنوبي ، أرجو أن نقضى لحظات في ضيافة القرآن فهذه الأيام هي أصلح الأوقات للتشرف بضيافة القرآن ، وإنما كانت كذلك لأن الخطايا أثقلت كواهلنا ، والمريض هو أعرف الناس بفضل الطبيب ، وقد آن أن نرجع إلى القرآن كلها دهمتنا ظلمات الذنوب ، فهو يهدينا برفق وعطف ، ويوجهنا إلى الخير باطف وحنان .

وأنا أرجع إلى القرآن من حين إلى حين ، أرجع إليه حين تعجز المذاهب الفلسفية عن هداية قلبي ، أرجع إليه حين لا ينجيني الغرور السخيف الذي يوهمني بأنى وصلت إلى أصول الحقائق حين طوّفت بالمذاهب الفلسفية عند القدماء والمحدثين ، أرجع إليه حين أكون كالمريض العاقل الذي لا يخفى علته على الطبيب .

واسمحوا لي أن أنهم نفسي علانية فأنا أتهيب إعلان صداقتي للقرآن المجيد لتلايشك الناس في علمي ، فمن أوهام هذا العصر

(١) محاضرة أقيمت في محطة الإذاعة العراقية في ليلة المولد النبوي .

أن يكون العلم عند الملحدين لا عند المؤمنين ، ولن أجرؤ على إعلان إيماني إلا يوم يصح عندي أن منافع الدنيا وإن جلت وعظمت لا تساوي التشرف بالخضوع لأحكام القرآن .

أنا أيها السادة صريع العصر الحديث ، ويعزيني في بلواي أن لي زملاء يعدون بالمئات أو بالألوف ، فأكثر من تعلوا في أوروبا يؤذيهم أن يقال إنهم مؤمنون ، لأن أوروبا طافت بها موجة عنيفة أشاعت في الناس اليقين بأن العلم والدين لا يلتقيان .

وقد اكتبنا في مصر بهذه البلية ، وما أعرف بالضبط كيف حالكم في العراق .

ولكن أفي الحق أن القرآن يملك هدايتنا إلى أصول الخير في العصر الحديث ؟

أفي الحق أن الكتاب الذي مضت عليه أجيال وأجيال يعطينا من الهداية ما تعجز عنه الفلسفة العميقة التي تدرس في الجامعات الفرنسية والألمانية ؟

ألا يكون كلامي هذا تعصبا مصطنعاً أجتلب به العطف من جماهير المسلمين ؟

ألا يمكن أن أكون مرآيا يخادع الناس ؟

أنا لا أكذب عليكم ، أيها السادة ، فعصركم لا يشقى فيه غير

الصادقين ، وإنما قضت المقادير أن تشرقني محطة الإذاعة بالدعوة
لإلقاء كلمة في الليلة التاريخية التي ولد في مثلها الرسول ، وقد قبلت
بعد تردد وتهيب ، لأن الكلام في هذه الليلة يوجب الصدق ،
والصدق صعب على نفسي ، لأنني أعيش - وأأسفاه - في عصر
الأكاذيب .

أيها السادة

نحن في ضيافة القرآن ، فما الذي نجده على مائدة القرآن ؟
نجد الأعاجيب من أطايب العقل والوجدان .
وإلا فكيف اتفق أن يثنى القرآن على جميع الأنبياء والمرسلين ،
ولكن أي ثناء ؟

إن النصارى لم يمجّدوا المسيح بمثل ما مجّده القرآن .
واليهود لم يثنوا على موسى بمثل الذي أثنى عليه القرآن .
والشرائع القديمة لم تحفظ ذكرياتها الطيبات إلا بفضل
القرآن .

فكيف صح للرجل الذي اسمه محمد أن يزكي منافسيه من الأنبياء
والمرسلين ؟

كيف صح لهذا الرجل أن ينسى أول حقيقة في حياة
المجتمع ، وهي السخرية من جميع المبادئ ليتم له التفرد بالعظمة
النبوية ؟

هنا تظهر بارقة من النور تشهد بأن هذا الرجل لم يكن طالب
صيد ، وإنما كان نبيا .

ارجعوا إلى القرآن أيها السادة تجدوه لا يفرق بين أحد من الأنبياء ،
وعندئذ تؤمنون بأن محمداً لم يبن مجده على أنقاض الشرائع ،
ولو كان كاذباً لادعى لنفسه كل شيء ، وزيف ما جاء به الأنبياء
والمرسلون .

ارجعوا إلى التاريخ ، أيها السادة ، وانظروا كيف صنع من سموا
أنفسهم مصلحين .

اقرأوا تاريخ المسيطرين وانظروا كيف كانوا يمحون آثار من
سبقوهم بلا ترفق .

استنطقوا الآثار في الشرق والغرب ، وانظروا كيف كان الملوك
يتسكرون فضل آبائهم .

ارجعوا إلى ماضيكم القريب مع إخوانكم وأصدقائكم تجدوهم
سلقوكم بالسنة حداد .

انظروا كيف ينسى الأخ فضل أخيه وكيف يعق الابن أباه .
انظروا وتأملوا ثم تذكروا كيف صح للرجل الذي اسمه محمد
أن يقيم كتابه على تمجيد من سبقوه إلى الإيمان .

كم كنت أحب أن أسخر من القرآن ليتحدث الناس باسمي في
كل مكان !

لقد ضاعت الفرصة الطنانة الرنانة ، فرصة الزندقة والإلحاد ،
لأتى مع الأسف المومج لم أستطع النجاة من سحر القرآن .
كنت أحب أن أتمرد على القرآن ولكنى عجزت ، ومن واجبي
نحو نفسى أن أبين كيف عجزت . فاسمعوا واعجبوا :

هناك آية لا يصدق أحد أنها فى القرآن ، هناك آية أخشى أن
ترفض من أجلها هذه المحاضرة ، وسأذهب إلى محطة الإذاعة وفى
يدى المصحف ، حتى لا يظن المشرفون على الإذاعة أنى كذبت
أو اقتريت .

هناك آية غريبة ، وما أكثر ما فى القرآن من غرائب .
هناك آية عجيبة ، وما أكثر ما فى القرآن من عجائب .
هناك آية تقول : «مانسخ من آية أو ندمها نأت بخير منها أو مثلها»
أتذكرون هذه الآية ؟ لقد رأيتها فى المصحف ، وما تخوتنى عيناى .
فما معنى هذا الكلام ؟

تذكروا أن الرسول يروى عن ربه تباركت أسماؤه ، وهنا وجه
الغرابة والعجب ، وهل رأيتم أغرب وأعجب من أن يشهد الله على
نفسه بأنه يراعى أحوال المجتمع فينقله فى التشريع من وضع إلى وضع ؟
هل تصدقون بأن الله وهو مالك الملك يضع نفسه من الناس
موضع الأستاذ من التلاميذ ؟

هل تصدقون بأن الله يشهد على نفسه بأنه يتدرج فى دداية

المخلوقات ؟

عز شأن الله ، فهو بكل شيء علیم ، ولو شاء لخلق للناس شريعة
أبدية لا ينهاها تغيير ولا تعديل ، ولكنك أنت أراد أن يروضنا على أدب
النفس ، أراد أن يعلمنا التواضع ، فهل تعلمنا التواضع ؟

إن الله ينسخ آياته أو ينسبها رفقا بالمجتمع .

أما نحن فنحرص على آرائنا وأفكارنا ونقضى العمر في الدفاع
عما نملك من أباطيل .

أين الحاكم أو الفيلسوف الذي يستطيع أن يعلن أنه كان في بعض
آرائه من المخطئين ؟

إن الرسول يخبرنا أن ربه كان يراعى أحوال المجتمع .

فمن هو المصلح الذي يترفق بالمجتمع ؟ عز شأن الله ، فما أراد
إلا أن تتأدب ، فهل تأدبنا ؟

إن الانسانية ترتطم كل لحظة في أضاليل الفلاسفة والمفكرين ،
لأن أكثرهم يموت وهو مصرّ على الضلال .

نحن على مائدة القرآن ، فماذا نجد ؟

نجده يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فوليها ، ثم إلى
ربكم ترجعون » .

فنفهم قيمة اليقظة في السريرة الانسانية .

ونجده يقول: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، والذين كفروا يمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مشوى لهم»

فنفهم أن نعيم الحواس متاع خسيس، وأن النعيم الأعظم هو النعيم في عالم المعاني.

ونجده يقول «هاأتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فأنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء».

فدرك أن الانفاق في سبيل الخير من أشرف وسائل الجهاد.

ونجده يقول «ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»

فتذكر المأسى الموجعات التي نعاني مكارهها في كل صباح وفي كل مساء، فحياتنا مكثرة مرنقة بسبب الاستماع للرشايات والنمائم، لأننا نسمع في أصحابنا ومعارفنا وأصدقائنا كل قيل، ونرتب المقدمات والنتائج على ما نسمع، وقلما نتذكر أن من واجبتنا إلا نصدق ما نسمع إلا بعد درس وتثبت وتبين وتحقيق، قلما نتذكر أن الحكم على الغائب لا يخلو من اعتساف. وسكرتنا عن مراجعة الواشين والنمامين، وتفر بطننا في تقديمهم إلى ساحة الجراء، كل ذلك غرس فيهم الطمأنينة إلى السلامة من عواقب ما يصنعون. فالنمام يضع

بذور الفتنة بين الناس وهو مطمئن لأنه يعرف أننا في الأغلب
نصدق كل ما نسمع ، ولا نضكر في معاقبة المفترين .
هذه الآية عجيبة ، ولكن تاريخها أعجب فقد نزلت في أعقاب
غاطة كاد يقع فيها الرسول ، ثم نجاه الله وحماه .

* * *

ومن عجائب القرآن أنه يجعل النبي صلى الله عليه وسلم إنسانا
يخطئ ويصيب ، وهو يوصى النبي بتأكيد هذا المعنى في أنفس
الناس فيقول :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما للهكم إله واحد ،
فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة
ربه أحدا »

وفي أي عصر يقع هذا الكلام ؟ في عصر كان أهله في كل أرض
يروون النبوة ضربا من الألوهية ، ويستبعدون أن يكون الرسل
ناسا كسائر الناس ، ولو كان محمد من الكاذبين لأوهم الجهال أن فيه
نفحة ربانية .

ولكن هذا مستحيل على من يروى عن ربه هذا الحوار
الطريف :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم : أنت قلت للناس اتخذوني
وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول

ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وهذا الحوار غريب أيضاً ، فهو ينطق عيسى عليه السلام بما يليق بالأنبياء ، ثم يصوره بصورة المشفق على أتباعه من عواقب الزيغ فيسترحم لهم ويستعطف ، وذلك ترفق نبيل .

والعذوبة في مثل هذا الحوار تشهد بأن أسلافنا كانوا على حق حين جعلوا جميع العلوم وسائل لفهم القرآن فأنا أكاد أجزم بأن القرآن لا يفهم حق الفهم إلا بعد التعمق في العلوم الأدبية والعقلية وأكاد أجزم بأن النظر في المصحف يعصم المرء من عواصف الشهوات ويهديه سواء السبيل . ومن كان في ريب من ذلك فليجرب مرة أو مرتين فقد ينقله المصحف من حال إلى حال ، وقد يكون له من الخير نصيب فينقل من سجل الأشقياء إلى سجل السعداء .

أيها السادة

هل فيكم من تشرف بالنظر في سورة الحجرات فرأى فيها
هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلبسوا أنفسكم ، ولا تنازروا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

هل فيكم من فطن إلى أن هذه الآية تنطبق على أحوال هذا العصر كل الانطباق ؟ فنحن اليوم في الاقطار الإسلامية منقسمون إلى أحزاب ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل جماعة تظن أن الخير وقف عليها ، وأن من خرج على حدودها فهو من الضالين . وهذا الظن السيء هو الذي عاد على قلوبنا بالخراب ، فقلوبنا أيها السادة أصبحت كأوكار الحيات والشعابين ، أصبحت قلوبنا موبوءة وكأنها البقعة الخربة التي تعيش فيها الهوام والجراثيم ، ولو كنا نعقل لتأدبنا بأدب القرآن وعرفنا أن قلوبنا في حاجة إلى مصاييح من حسن الظن بالله وحسن الظن بالناس .

واسمحوالى مرة ثانية أو ثالثة أو رابعة بأن أتهم نفسى فأنا الشقى وأتم السعداء ، اسمحوالى أن أعترف بأنى ضيعت على نفسى خيراً كثيراً حين فاتنى أن أتأدب بأدب القرآن ، فقد حملنى الغرور على الظن بأن الخير لم يعرف قلباً غير قلبى ، ثم تبديت بعدفوات الوقت أن الله لم يخلق العالم عبثاً ، وأنه لم يمنح النور والهواء والحياة إلا لمن يراهم أهلاً لكل أولئك الطيبات .

وأبشركم بأني بدأت أهتدى ، وأصبحت أنظر إلى من يسيئون
الظن بالناس نظر العطف ، فهؤلاء يعانون من أمراض القلوب بعض
ما كنت أعاني ، هؤلاء أطفال في عالم الأخلاق ، فلننظرهم قليلا
فسوف تنضجهم الأيام والليالي ، هؤلاء مساكين يتوهمون أن
الدنيا يقوم بأعبائها رجل واحد ، أو حزب واحد ، فلننظرهم قليلا
فسوف تعلمهم الحوادث أن العالم لا يعيش إلا إذا اجتمع فيه
الفاضل والمنفصول ، والراجح والمرجوح ، والرئيس والمرءوس .
وهذا الكلام الذي أقول به هو في جوهره أصغر من الحكمة
القرآنية ، فالقرآن يوصينا بالحذر المطلق ، وهو لا يسمح لفرد
ولا قوم أن يظنوا بأنهم أفضل الناس على الإطلاق ، ويقول « يا أيها
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ،
ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن »

وقد علمتني الحوادث بأن الثقة لا تتم بين رجلين إلا إذا اعتقد
كل واحد منهما بأنه أقل من أخيه في أدب النفس ، وعلمتني
الحوادث وعلمت غيري أن الرجل يصبح أجهل الناس إذا اطمأن
إلى أنه صار من العلماء ، والقرآن يوصينا بأن نحترس فلا نزع
التفرد بالكمال ، فإن هذا الزعم باب إلى الخراب ، خراب العقول
والقلوب .

وأحب أن أذكر نفسي وأذكركم إن شئتم بهذه الوصية :
« ولا تلهزوا أنفسكم ، ولا تنازروا بالألقاب »
واللمز هو تجريح الناس والغض من أقدارهم ، وهو من أخلاق
من لا يتقون الله ، والتنازير بالألقاب هو أن يخاطب الناس بعضهم
بعضاً بما لا يحبون .

فأين من هداه الله إلى مراعاة هذه الآداب ؟
أين من يحدثه القلب بأن الاهتمام بإظهار محاسن الناس أفضل
من الهيام بكشف مساويهم ؟

أين من يحدثه القلب بأن التلطف في الخطاب أدب جميل .
ولكم أن تعجبوا أيها السادة حين ترون القرآن يعقب فيقول :
« بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »
فهو يرى التفريط في هذه الآداب خروجاً على الإيمان ، وهذا
حق ، فما كان الإيمان كلمة تلوكها الألسنة وتمضغها بلا إحساس ،
وإنما الإيمان عقيدة وأعمال .
جعلنا الله بفضله من المؤمنين .

* * *

أيها السادة

إن مائدة القرآن متعددة الألوان ، وفيها أطيب تنفع جميع
الأمعاء ، فللناجر حديث ، وللبرتاب حديث ، وللثوم حديث ،

وللجاحد حديث ، ولكل إنسان مكان على مائدة القرآن .
ولكن يبدو لي أن إيماننا لا خوف عليه ، فأنا مطمئن إلى أن
المسلمين هم في الأغلب مؤمنون .
غير أني وقد اختبرت نفسي أشعر بأننا في حاجة شديدة إلى النظر
في الآية الآتية :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن
إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، يحب أحدكم أن
يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب
رحيم » .

فهذه آية يجب أن ترقم على كل مكان لأراها ويراه أمثالي
من المساكين ، فكل إنسان في هذه الأرض يحب أن يكون له في
الناس رأى ، ويزعجني أن أقرر أنه يؤذينا أن تحسن آراؤنا في الناس ،
وقد جربت ذلك ، ولكم أن تجربوه ، فما ذكرت إنساناً بالخير
في حديث أو مقال أو كتاب إلا كان ذلك كافياً لقيام ثورة عنيفة
لتصحيح ما أخطأت فيه ، ولا ذكرت إنساناً بالشر في حديث
أو مقال أو كتاب إلا رأيت من يثني على أدبي ويصفني بالجرأة
والشجاعة والعبقرية !

فما سر ذلك ؟ لذلك تأويل ، ولكنه يفضح بني آدم ، وتأويل
ذلك أن الناس يتوهمون أن حسن السيرة والسمعة إذا تم لرجل

كان فرصة لانتهاج الخير من أيديهم ، وهم مخضون أبشع الخطأ ،
فالله عز شأنه خلق من الخيرات والثمرات أضعاف ما خلق من
الإنسان والطير والحيوان ، ولا تزال في الأرض والأشجار والأنهار
والبحار خيرات منسية تنتظر من يكشف عنها الغطاء .

والشجرة لا تثمر مرة واحدة ، وإنما تؤتي أكلها في كل حين .
والأنهار لا تفيض مرة واحدة ، وإنما تحفظ أدها مع بارئها
فتفيض بمواعيد على مرّ السنين والأجيال .

والأرض لا تجذب إلا إن غفلنا عنها أو زهدنا فيها .
والفسكر لا ينضب إلا إن أغفلناه .

فما الذي يوجب هذا التطاحن البغيض يا بني آدم ؟

ما الذي يسوؤكم في أن تحسن سمعة رفيق لكم فيجاهد في دنياه
وهو محمود الخصال ؟

وقد علمتني التجارب وستعلمكم أن الإنسان أضعف من أن يقطع
رزق أخيه الإنسان ، فهناك قوة ربانية تبيح الجهاد في سبيل الرزق
الحلال ، وهذه القوة لا تنتظر آراءكم في التجريح والاعتياب ،
فانطحوا الصخر إن شئتم ، فلن يسمع لكم في مصائر الناس قيل
ولا قال ، وإنما الأمر كله لله .

أيها السادة

كنت أحب أن أطيل الطواف حول الألوان الشهية التي تزخر بها مائدة القرآن ، ولكن الوقت الذي حددته محطة الإذاعة يضيق عن ذلك ، فاسمحوا لي أن أشير إلى هذه الآية فهي تنفعني وتنفع من يحمل على ظهره أوزاراً مثل أوزاري ، وهذه الآية تقول :

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين»

فإن رأيتم خيراً من إنسان فتوهوا به وتحدثوا عنه في السر والعلانية ، واعلموا أن هذا يرضى الله ، وتذكروا دائماً أنكم لستم أغير من الله ، تذكروا أن أخطر حية في الأرض هي الحية التي تسمى الكوبرا وهي حية شريرة جداً ، وقد هربت إحدى هذه الحيات مرة من متحف قصر العيني بالقاهرة ، وشاع ذلك ، فباتت محلة المنيرة بالقاهرة في جزع وارتباغ .

فهل تعرفون كيف كشف العلم عن حقيقة هذه الحية الشريرة

الليثيمة ؟

لقد ثبت علمياً أن سم هذه الحية هو الدواء الشافي لمرض السرطان وقد يأتي زمان نرتقي فيه هذه الحية الشريرة كما نرتقي كرائم الخيل .

أيها السادة

تذكروا ، ثم تذكروا ، تذكروا دائماً أنكم لستم أغير من الله ، تذكروا أنكم لم تروا من أنهار الحقائق غير أوшал ، تذكروا أن

القرآن لم يكن أبطولة من الأباطيل ، وإنما كانت آياته من غرائب الحقائق ، وتذكروا أن القرآن هو الذي أعز العرب فجعل لهم إخوانا في المشرقين والمغربين ، ولولا القرآن لظل العرب في عبودية كما كانوا في أكثر عهود التاريخ .

أيها السادة

في مثل هذه الليلة ، أو في قريب من مثل هذه الليلة ، ولد الرسول . فلنجعل هذه الليلة من ليالي الصدق ، عساها تكون كفارة عما عانينا في طول العام من أكاذيب .

والصدق يوجب أن نذكر أن الإسلام ليس دين العرب وحدهم وإنما هو دين الإنسانية جمعاء ، فإلى سائر المسلمين في بقاع الأرض وإلى من انتفعوا بهدى الإسلام من قرب أو من بعد ، وإلى كل إنسان سمع باسم القرآن ، إلى جميع من خلق الله توجه التحية الخالصة راجين أن تتعرف إليهم أو يتعرفوا إلينا ، في ظلال الراية الرحيمة ، راية الرسول الذي بعثه الله رحمة للعالمين .

كيف رأيت الرصافي

كانت شواغلي في دنياى أضاعت على كثير من الفرص النوادر ،
فأنا لم أر إسماعيل صبرى شاعر الحب والوجدان ، وكنت أستطيع
أن أراه ولكنى ضيعت الفرصة ، وأنا لم أر الموسيقار سيد درويش
وكنت أستطيع أن أراه ولكنى ضيعت الفرصة ، والشاعر جميل
الزهاوى زار مصر ، وكنت أستطيع أن أراه ولكنى ضيعت
الفرصة ، وأنا لم أر الكاتب الشاعر محمد السباعى مع شوقه الشديد
إلى أن يرانى ، ولما كثر سؤاله عنى ذهبت إلى جريدة البلاغ لأخذ
عنوانه فنعوه إلى فى ذلك اليوم ، وكانت فجيرة طار لها صوابى .

ولما قدمت بغداد كنت أنتظر أن يبدأ الرصافي بزيارتى ،
ولكنه لم يفعل ، ثم علمت أنه لا يقيم فى بغداد ، وإنما يقيم فى
الفلوجة ، وهى قرية على شاطئ الفرات .

وتحدث المتحدثون بأنه عليل فرأيت من الذوق أن أبدأ أنا
بالسؤال عنه ، وتفضل الصديق الكريم السيد ثابت عبد النور
فصحبنى إلى الفلوجة مع رفيقين كريمين ، ورأينا أن تكون الزيارة
فجائية حتى لا يتكلف الرصافي نحر الذبايح على الطريقة العربية .

دخاننا على الشاعر وهو شيخ جليل يقارب الخامسة والستين ،

وكان في أعقاب علة أقام من أجلها أشهراً يستشفى في لبنان ،
فالتفت إلى السيد ثابت عبد النور وقال : كيف جئتم على غير ميعاد؟
أما تعرف أنه كان يجب أن نحتفل بقدم الدكتور زكي مبارك إلى
الفلوجة ؟ فقال السيد ثابت : نحن ما جئنا لزيارتك ، وإنما جئنا
لمشاهدة مطار «سن الذبان» ورأينا الفرصة سانحة للتسليم عليك .

وكانت حيلة طريفة هربنا بها من كرم الرصافي .

وبدأ الشاعر فتحدث عن المازني ، المازني العظيم ، فأنشدنا أبيانا
قالها فيه وهو يشبه أدبه بشراب التوت ، وما أدري ما شراب
التوت ، ولكن هكذا قال .

ثم أمر الشاعر فتاه بأن يحضر كتابه عن النبي محمد عليه الصلاة
والسلام وألح الشاعر في أن ألقى نظرة على ذلك الكتاب ، وهو
مخطوط في عشرة كراريس ، وكنت قضيت ساعة في هدوء ، فلما
وقع بصري على بعض فقرات الكتاب ثرت ثورة عنيفة ، وانطلقت
أجاده بلانرفق ولا تلتطف .

وقابل الشاعر ثورتي بأدب رائع دلني على أنه من أقطاب العقل .

ثم قال : أنتظر فسنتلقى بعد عشرة أيام في بغداد

وكان معنى ذلك أنه سيفارق الفلوجة يوم ينتخب عضواً في

مجلس النواب .

وبعد أيام أقام لي أفاضل الأدباء في بغداد حفلة تكريم ، وفي طريقى إلى مكان الحفلة اشترت جريدة الاستقلال فرأيت في صدرها قصيدة رائعة أراد بها الرصافي أن يسبق أهل بغداد إلى تكريمي ، وكذلك يكون الذوق في إكرام الضيف .

ولم يقف الرجل عند هذا الحد ، بل تجشم الانتقال إلى كلية الحقوق ليستمع إحدى محاضراتي ، ثم جاء للسؤال عني في منزلي مرتين ، وعرض عليّ أن أقرأ كتابه عن الرسول وأدّون ماأشاء من الملاحظات ، فاعتذرت بضيق الوقت ، وبالغ في اللطف فدعاني إلى التشرف بزيارته كلما شدت ، ولكن شواغلي حرمتني من لطفه فلم أزره في منزله غير ثلاث مرات ، ثم يئس من وفائي فلم يعد يسأل عني .

فمن هو الرصافي ؟

هو مجموعة طريفة من العقل والأدب والذوق والذكاء .

هو صورة صادقة للروح البغدادي ، الروح المرح الطروب .

هو عنوان الرجولة الصريحة التي تمتت الكذب والرياء .

هو بالتأكيد من أئمن ذخائر العراق .

والعراقيون يعزّون شاعرهم كل الاعزاز ، ولما قدم لسماع

محاضرتي بكلية الحقوق قابله الجمهور بتصفيق الإعجاب ، ويكفي أن

يكون سعادة الأستاذ طه الراوى من رواية شعر الرصافي ، وطه
الراوى إمام من أئمة اللغة العربية ، أعزه الله ورعاه .
وللرصافي ديوان يقع في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع
الكبير ، ولكن أى ديوان ؟ هو جذوات من الفكر والمنطق
والوجدان ، وسيعيش هذا الديوان على التاريخ .

* * *

والرصافي متبرم بالعراق ، وهذا كل ما عنده من ضلال ، وقد
أملاني هذين البيتين :

قد كان لى وطن أبكى لنكبته
واليوم لا وطن عندى ولا سكن
ولا أرى فى بلاد كنت أسكنها
إلا حثالة ناس قاءها الزمن

وقد اتفق له أن يقول منذ أعوام طوال :

عتبت على بغداد عتب مودع أمضته فيها الحادثات قراعا
أضاعتنى الأيام فيها ولو درت لجز عليها أن أكون رضاعا
لقد أرضعتنى كل خسف وإتني لأشكرها أن لم أتم رضاعا
وما أنا بالجاني عليها وإنما نهضت خصاما دونها ودفاعا
وأعملت أقلامي بها عربية فلم تبد إصغاء لها وسماعا
وأن يقول :

ويل لبغداد مما سوف تذكره عنى وعنهما اللبالي في الدواوين
لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقيني
أنى المروءة أن يعتز جاهلها وأن أكون بها في قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم
وأن أسام بعيشى جدع عرنينى *

وأن يقول:

إلى كم أسـتغيث فلا مغيث وأدعو من أراه فلا يجيب
أقت ببلدة ملئت حقوداً على فكل ما فيها مر يب
أمر فتنظر الأبصار شزراً إلى كأنما قد مر ذيب
وكم من أوجه تبدى ابتساما وفي طى ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدى كانى أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لأنى اليوم فى وطنى غريب
والرصافى شاعر يسخر من أوهام الناس وهو الذى يقول:
لقد خامرتنى فى الزمان وأهله شكوك عليها يعذر المنزندق
أرى الدهر فى أمرين يعمل دائبا

صناع اليدين فهما يتأنق

يجدد للموتى مناقب لم تكن لديهم وللأحياء يبلى ويخلق
فكم من قبور عظم الناس أهلها بما لم يكن عند النهى يتحقق

* العرنين - بكسر العين - هو الأنف

ورب امرئ قد عاش يستقطر الثنا
فلما قضى سال الثنا يتدفق
فما كُتِبَ التاريخ في كل ماروت
لقراءتها إلا حديث ملفق
نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا
فكيف بأمر الغابرين نصدق
وما صدقتنا في الحقائق أعين

فكيف إذن فهن يصدق مهرق .

و ديوان الرصافي على عظمته ليس كل شعر الرصافي ، فله شاعرية
لم يحوها الديوان ، هي ذلك الروح الطروب الذي يهزأ من
أحداث الزمان .

والرصافي مؤلفاً غير معروف ، ولكن كتابه عن النبي محمد كتاب
هائل جداً ، وترجع أهميته إلى ما فيه من نقد الأخبار والأحاديث
وقد لا تتسع الصدور لظهور هذا الكتاب ، وهذا هو الشاهد على
أن أسلافنا كانوا أوسع صدرا وأعلى مقاما .

أما بعد فما كتبت هذه الكلمة لأني الرصافي حقه من الثناء ،
فذلك يحتاج إلى مؤلف ضخم تحدد به نواحي هذه العبقريّة .

ما هذا بحثا مفصلا عن الرصافي، وإنما هي كلمة موجزة أردت
أن أشرف بها نفسي فأقول إني زرت بغداد ورأيت الرصافي،
ولعلها تكون كفارة عن تقصيري في مودة هذا الشيخ الجليل،
وأقسم ما انصرفت عن مودته طائعا، وإنما صرفني عن مودته ما ألقاه
القدر على كاهلي من أعباء وتكاليف.

إصلاح الخط العربي

إلى الصديقيين الكريهين محرري مجلة الترية الحديثة .
أقدم إليكما أصدق التحيات . ثم أشرف بتقديم ماسألتوني من
الرأى فى إصلاح الخط العربى ، ولكن على شرط أن تحتملوا
الاطناب . لأن لى فى هذه المسألة آراء عرضتها فى مواقف رسمية ،
أحدها فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس يوم حاججت الأساتذة
العظام مرسىيه وكولان وديومبين ، وثانها يوم قدمت رسالة
واللغة والدين والتقاليد ، إلى لجنة رسمية مؤلفة من حضرات أصحاب
المعالى والعزة أحمد لطفى السيد باشا وجمفر ولى باشا وبهى الدين
بركات باشا وطه حسين بك ومصطفى عبد الرازق بك . وهناك
موقف أخطر وهو الذى دعوت فيه صراحة إلى كتابة المصحف
بالرسم الحديث ، وتصريحى بأن سيدنا عثمان كان مبتدئا فى الخط
وأنة لو عاش فى هذا العصر لكان من المستحيل أن نكل إليه تعاليم
الخط فى مدرسة أولية ، ثم تصريحى بأن مشايخ الأزهر يصعدون
عن كتاب الله حين يوجبون أن يرسم بخط تصعب قراءته على
أكثر الناس .

أما موقفى فى مدافعة المستشرقين فيتاخص فى أن الخط العربى هو
أصلح الخطوط للغة العربية ، وأن الحروف اللاتينية لاتنفعنا أبداً ،

لأنها تعجز عن تأدية النطق العربي تأدية صحيحة .
قالوا : ومع ذلك يعجز الخط العربي عن تأدية النطق العربي تأدية
صحيحة !

قلت : لأننا نهمل الشكل وهو عنصر أساسي في الخط العربي .
وهنا أذكر أن أهل بغداد كانوا السبب في حرمان الخط العربي
من أهم عناصره وهو الشكل : لأنهم كانوا يرون الشكل إهانة
للمخاطب واتهاماً له بالجهل .

وهذا الذوق البغدادى كان يقبل في القرن الثالث يوم كانت
الثقافة الأدبية مقصورة على الخواص الذين يؤذيه أن ترشدهم إلى
صواب النطق بشكل الكلمات .

وقد تغير الحال في هذا الزمان وصرنا مضطرين إلى مخاطبة
الجمهور كله وفيه أطفال ونساء وجاهلون ، فما كان يعتبر إهانة عند
أهل بغداد في القرن الثالث أصبح في زماننا من الواجبات .

وخلاصة هذه الفكرة أن التشبث بالخط العربي ليس نزعة
قومية ، كما يتوهم أكثر الناس ، وإنما التشبث بالخط العربي أمر يوجب
العقل والمنطق لأنه أصح الخطوط لتأدية النطق الصحيح في
اللغة العربية .

وكلمة « كتب » معناها في الأصل « قيد » وكذلك « الشكل »
معناه « القيد » لأنه مأخوذ من الشكال ، أى القيد . فالذى يشكل

الكلمة يقيد بها : أعنى أنه يحصرها في وضع واحد ، وكانت قبل الشكل تنطق بأوضاع مختلفات .

وأقول ثم أقول ، وأقرر ثم أقرر ، أن الخط العربي لا يعوزه غير الشكل ، فإذا شكلناه أصبح قادراً على القدرة على تأدية النطق وتحديد المعاني على نحو ما تصنع الحروف اللاتينية في اللغات الأوربية .

ولو ظهرت الجرائد والمجلات مشكولة عامين اثنين لرأيت كيف يصلح النطق وكيف يشيع الإفصاح .

وهنا ندخل في شعاب المعضلة الحقيقية فنقول :

إن لحرف القاف مثلاً أربع صور هي : ق ، ق ، ق ، ق ، -ق
ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى اثنتي عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق ، وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، كما يعبر أهل مصر ، أو المرتبين ، كما يعبر أهل العراق .

وأنا بكل صراحة أدعو إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له رسم واحد في أول الكلمة وفي الوسط وفي الطرف ، ثم يصب من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء ، وقتاً عن حركات الإعراب .

وهذا الاقتراح يذهب بشيء من جمال الخط العربي ، ولكن جمال الخط لا يساوى ما نظفر به من الدقة والتحديد فى الخط المقترح .

الشكل هو الإصلاح الوحيد للخط العربى ، ولكن شكل الحروف بوضعها الحاضر يوجب تعقيد الصناديق . وتوحيد أشكال الحروف يمنع هذا التعقيد .

فى الصندوق العتيد أربع صور لحرف الفاء هى : ف ، ف ، ف ، ف .

وفى الصندوق الذى أقرحه أربع صور هى : ف ، ف ، ف ، ف ، والصورة الأخيرة عارية عن الشكل فلتسكن صورة السكون أو الوقف .

وما أقرحه خاص بحروف الطباعة ، أما الكتابة العادية فخط الرقعة يكفى فيها كل الكفاية ، ويحسن أن يكون عندنا خطان اثنان فقط : خط للطباعة وخط للتحرير .

وأنا — بعد الذى أسلفت — أقرر بصراحة أن صعوبة النطق التى أوجبها سوء الخط كانت السبب فى اهتمام العرب بالتمسك من لغتهم ، كما أن صعوبة النحو العربى كانت السبب فى نبوغ أكثر الأدباء .

والتعليم في الأزهر كان نافعا جداً يوم كان يجري على نظام غير مرتب . فلما وصلت إليه طرائق الزرية الحديثة أصبح ضعيفاً . أقول هذا وأنا أعرف أن سيغضب الدكتور بقطر والدكتور جولد .

ولسكنى قضيت عشرين سنة في درس علم النفس ، وأصبح من المقرر عندي أن الاهتمام هو أصل كل تفوق ، وصعوبة الخط والنحو والصرف توجب الاهتمام ، وهذا الاهتمام هو الذي جعل الأزهريين القدماء من أعرف الناس باللغة العربية .

ولكن لا مفر من إصلاح الخط العربي لنصل به إلى الجمهور الأعظم الذي يعدّ بالملايين ، ولتقضى على الدسيسة الخطرة التي تزين الحروف اللاتينية ، ولنسهل الوصول إلى فهم لغتنا لمن يهمهم ذلك من كرام الأجانب ، فقد اشتغلت بالتدريس في اللبسيه فرانسيه نحو عشر سنين وكان يؤذيني أن يعتقد الأجانب من التلاميذ أن لغتنا أصعب اللغات .

وحين يتضح الخط العربي ويتكلم لغتنا ألوف من الأوربيين والأمريكيين تدخل في لغتنا حيويات جديدة قد تعود على أدبنا بأعظم النفع .

إن إصلاح الخط العربي أمل جميل ، ولسكن على شرط أن يكون تطوراً في الخط ، ولا يكون تبديلاً للخط ، فإني أخشى أن نبالغ في الخذلقة فلا تسايرنا الأقطار العربية ، والسلام .

زكي مبارك

بغداد

(المجلة) تتفق مع صديقنا الدكتور زكي مبارك في أشياء ونختلف معه في أشياء.
(١) تتفق معه في أن اللغة العربية ليست أصعب اللغات (٢) وتتفق معه في أن صعوبة الخط مسألة سطحية وصعوبة الشكل كذلك ويوجد في اللغات الأوربية الحية من الصعوبات على المبتدئ والمتعلم من غير أهلها ما يفوق مثلها في العربية بما رحل (٣) أن صعوبة العربية في رأينا تنحصر في وجود لغتين العامية والفصحى ، ولكل منهما تيار فكري يعطل أحدهما الآخر فيقتل التفكير والانتاج . وهذا هو الرأي الذي أدلى به سر وليم ولكوكس ولدى ما يعزز قوله مما لا يتسع له المقام الآن (٤) أما قول الدكتور زكي مبارك إن صعوبة النطق وصعوبة الخط وصعوبة النحر هي التي مكنت العرب من لغتهم وحدثت إلى نبوغ أكبر الأدباء فلا يقره عليه عاقل ولا مجنون ؛ وهذا المنطق يذكّرني بما يقوله بعض الإنكليز دفاعاً عن نظامهم العقيم في الموازين والمقاييس والنقود ، بجانب النظام العشري الجميل في النقود والموازين والمقاييس والمكاييل في فرنسا وإيطاليا ومعظم بلدان أوروبا . يقول السفسطائيون من الإنجليز إن هذا النظام المعقد يدرّب العقل ويهذبه بعكس النظام العشري . وعلى هذا المبدأ ينبغي تعقيد كل شيء في الحياة توصلًا للفرض عينه (٥) أما قول صديقنا الدكتور إن الأزهر ضعف طلبة منذ إدخال الترية الحديثة فهذا يحتاج إلى أدلة بتعذر إقامتها بغير تجارب علمية وأرقام احصائية . غير أنني أسر في أذن الدكتور أن الترية الحديثة لا تزال بعيدة عن الأزهر وعن معظم معاهد التعليم في بلادنا بعد الأرض عن السماء أو العكس على الأصح ، اللهم إلا إذا كنت تفهم بالترية الحديثة الجغرافيا والحساب (٦) بقيت عبارة واحدة اسمح لي أيضاً أن أسرها في أذنك . تقول إنك

درست علم النفس منذ عشرين عاما ، وقد نسيت أن علم النفس هذا لم يكن منذ
عشرين عاما مما هو عليه اليوم إلا بمنزلة التنجيم من علم الفلك ، فشمروا عن ساعدك
واعكف على دراسته من جديد . (٧) وأخيراً دعني أشكرك من صميم الفؤاد
لإخلاصك للعلم وتلييتك لدعوتنا فقد طلبنا إلى أكثر من ثلاثين من رجال الترية
في جميع البلدان العربية أن يدلوا بأرائهم فلم يحرك منهم ساكناً إلا من زينا
صفحات المجلة بأسمائهم . فعليك من قراء مجلة الترية الحديثة وعلي جميع من ساهموا
في هذا العدد ، ومنى ، السلام ورحمة الله ؟

المخلص
أمير بقطر

مذاهب التريية

الى الدكتور أمير بقطر

أيها الصديق العزيز

أقدم اليك أطيب التحيات . وأذكر أن هذا الخطاب كان يجب أن يوجه الى مجلة التريية الحديثة ، ولكنني رأيت أن العدد الاخير هو ختام هذه السنة . وفي تعليقك على مقالى كلمات لا أحب أن أتركها بلا تعقيب الى العام المقبل .

١ — تفضلت يا صديقى فقلت :

« أما قول الدكتور زكى مبارك إن صعوبة النطق وصعوبة الخط وصعوبة النحو هي التي مكنت العرب من لغتهم وحدثت الى نبوغ أكثر الأدباء فلا يقره عليه عاقل ولا يجنون . وهذا المنطق يذكرني بما يقوله بعض الانجليز دفاعا عن نظامهم العقيم في الموازين والنقود بجانب النظام العشري الجميل في النقود والموازين والمقاييس والمكاييل في فرنسا وإيطاليا ومعظم بلدان أوروبا . يقول السوفسطائون من الانجليز إن هذا النظام المعقد يدرب العقل ويهذبه بعكس النظام العشري . وعلى هذا المبدأ ينبغي تعقيد كل شيء في الحياة توصلا للغرض عينه »

ذلك كلامك أيها الزميل ، وقد استغربت واستغرب فريق من
أصدقائك بالعراق أن يصدر عنك ، فعبارة « لا يقره عاقل ولا
مجنون » عبارة غير مقبولة، ومن المؤكد أنك ندمت عليها ولو قليلا،
فعهدى بك وزن الألفاظ وتنقيها من العيب ، ولو وقعت هذه العبارة
في معركة أدبية لكان لها موضع فان المعارك لعنفها قد تبيح ما لا
يباح ، وما كنت أخاصمك حين استجبت لدعوتك الكريمة الى
كتابة مقال لمجلة التربية الحديثة حتى يجرى قلبك بذلك التعبير
« المقبول » !!

ومن حقى أن أمسك بخناقك حتى تعترف بالحق
فمن أين عرفت أن الصعوبة تنافى مذاهب التربية ؟
يظهر أن التربية فى ذهنك لها مدلول خاص ، هو أن تقال فى
أمريكا وفى كتاب طبع سنة ١٩٣٨
وفاتك أيها الزميل العزيز أن التربية كانت موجودة قبل أن تظهر
« الطريقة الامريكانية » وأن الصعوبة كانت مما يقصد اليه المرءون
لتحسين الازهان والعقول
ويظهر أيضا أنك تفهم علم النفس على « الطريقة الامريكانية »
وإخوانك الامريكان قوم لطاف ظراف . ولكن دعواهم التفرد
بالعلم أمر « لا يقره عاقل ولا مجنون »
وأخوك زكى مبارك وهو دكتور فى الفلسفة مرة أو مرتين أو

مرات يفهم غير ما تفهمون ، أخوك زكى مبارك يقول إن الاهتمام هو أصل كل تعمق ، وعند شواهد يعرفها العقلاء والمجانين ، والصعوبة توجب الاهتمام ، وهى السر فى إقبال الناس على درس العضلات

والصعوبة أو التصعيب من المذاهب التعليمية التى عاش عليها الناس قبل أن يخلق كريستوف كولمب ، وهى طريقة نافعة جداً ، وستأخذها عنى يا شيطان ، ستأخذها عن الفيلسوف الذى تطاوت عليه بلا حق ، مع أنه زميلك وأخوك . وهذه الطريقة ، طريقة التصعيب ، تشبه فى عالم الافكار طريقة أهل اسبرطة فى عالم الابدان فالاسبرطيون كانوا يرمون مواليدهم فى العراء ثلاثة أيام ليعرفوا صلاحيتهم للحياة الجثمانية ، وطريقة التصعيب هى من هذا الباب ، هى تعريض الأذهان للامتحان الصعب لتظهر صلاحيتها للحياة العقلية .

ولو أن الحظ كان أغاثك فمررت بالأزهر أو الجامعة المصرية أو السوربون أو مدرسة اللغات الشرقية كما اتفق لأخيك أن يمر وهو خائف يترقب ، لو أن الحظ كان أغاثك بهذه المصاعب لعرفت كيف يكون صيال العقول ، ولكنك عرفت الأمريكان الظرفاء الذين يدرسون العلم على الاساليب السينمائية

أساليب سينمائية ؟؟

ما هذا الكلام؟ يظهر أنى بدأت أتطاول عليك !
لا ، لا ، فما أقبل أن أتطاول على أخى وزميلي ، ولكنك أيها
الأخ المحبوب نسيت أن تربط أجزاء اعتراضك بعضها ببعض ، فجاز
لى أن أفهم أنك تدرس ما تدرس على الاساليب السينمائية
وبيان ذلك أيها الاخ أنك حين حكمت بأن كلامى فى طريقة
التصعب لا يقول به عاقل ولا مجنون ، ضيت فقررت أن كلامى
يشبه ما يقول به بعض الانجليز فى الدفاع عن نظامهم فى النقود
والموازن

ومن كلامك عرفت أن الطريقة الانجليزية هى أيضا طريقة
أزهرية !

وأنا والله راض بأن أحشر مع علماء الانجليز ، ولو فى الجحيم !
طريقة التصعب ايها الاخ هى التى « تغربل » العقول ، وبفضلها
استطاع أخوك زكى مبارك أن يصول العلماء فى الامتحانات العلنية
مراراً كثيرة ، منها مرتان فى باريس ، وسأضع عقلك فى « الغربال »
بعد حين ، لأعرف نصيبك من العمق ، أرانى الله وجهك بخير وعافية

٢ — تفضلت يا صديقى فقلت :

« بقيت عبارة واحدة اسمح لى أيضا أن أسرها فى أذنك ، تقول
إنك درست علم النفس منذ عشرين عاما ، وقد نسيت أن علم النفس

هذا لم يكن منذ عشرين عاما مما هو عليه اليوم إلا بمنزلة التنجيم
من علم الفلك ، فشمروا عن ساعديك واعكفوا على دراسته من
جديد .

سمعت وأطعت يادكتور بقطر !

سمعت وأطعت لأنى قضيت عشرين سنة فى الحياة الجامعية ، وقد
أوصانى أساتذتى رضى الله عنهم بأن أفتح قلبى لكل نصيحة ،
ولو صدرت من الدكتور أمير بقطر !

المثلئ يقال هذا الكلام ؟ المثلئ يوجه هذا النصح ؟

إن كان منزلى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى
كنت أحسب أننى أنصفت نفسى حين أضعت شبابى فى دراسة
الأدب والفلسفة ، وكنت أحسب أن جهادى فى سبيل الأدب
والفلسفة سيعصمنى من سماع هذا النصح المرير ، وكنت
أظن أن زملائى يعرفون فضلى وأنى لن أحتاج إلى اكتساب ثقتهم
فى سر أو علانية ، ثم قضى الدهر الغادر بأن أرجع إلى حياة التلهذة
وأن يطلب منى الرجوع إلى دراسة علم النفس من جديد .

ومعاذ الأدب أن أنكر قيمة هذه النصيحة الغالية : فقد رضت

النفس على أن أكون طالب علم من المههد إلى اللحد .

ولكن يؤذنى شئ واحد : وهو ؟

ما هو ذلك الشئ ؟

إني لأحتاج إلى شجاعة عظيمة لأنصح عما أريد .
وأتشجع فأقول : لن أستأنف دراسة علم النفس إلا يوم يستأنف
الدكتور أمير بقطر دراسة الأبجدية !
هذه وقاحة !

لا ، والله ؛ وإنما هي كلمة حق
ومن أين عرف الدكتور أمير بقطر أنني درست علم النفس منذ
عشرين عاما حتى ينصحني بالعكوف على دراسته من جديد ؟
من أين عرف ذلك ؟

لقد قلت في مقالتي ما نصه بالحرف وكما نشرته مجلة التربية
الحديثة :

« ولما كنت قضيت عشرين سنة في درس علم النفس ، وأصبح من
المقرر عندي أن الاهتمام هو أصل كل تفوق »
فأنا لم أقل إني درست علم النفس منذ عشرين سنة ، وإنما قلت
إني درست علم النفس عشرين سنة .

وللقارئ أن يحكم بين هذا الزميل وبينى .
وللدكتور أمير بقطر أن يوجه إلى نفسه الملام إن شاء

أما بعد : فما كان يسرني أن أوجه إلى ذلك الصديق الكريم هذه

الملاحظات ، وما كان يسرفني أن أنال مذاهب الأمريكان بنقد أو تجريح .

ولكنني أحسب الوقت حان لتذكير الأمريكان بخطور ما يقدمون عليه ، فهم - كما عرفتهم - ناس سطحيون ، وقد صحبتهم عامين في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وما أذكر أبداً أني رأيت في تفكيرهم شيئاً من التعمق ، وإنما هم قوم يغلب عليهم اللطف والإيناس وحفظ الجميل .

وصديقنا الدكتور أمير بقطر هو نموذج من التربية الأمريكية فهو يمر على ما يقرأ مرور الطيف ، ثم ينقد ويعتسف بلا بينة ولا برهان .

وهن واجبي أن أذكره بأن (الطريقة الأمريكية) لا تنفع في مصر ، لأن مصر ورثت تقاليد التعقل والتدبر منذ أجيال طوال .
ثم ماذا ؟

ثم أرجو أن ينقل الدكتور أمير بقطر هذه الملاحظات إلى أول عدد يصدر من مجلة التربية الحديثة وأن يعاق عليه بما يشاء ، عساه يتيح الفرصة لأن أدخل بقلمى فأنف الأمريكان عند حدهم فلا يدعون التفرد بالاستاذية في العصر الحديث .

الى الدكتور أمير بقطر

أخى وصديقى :

لعلك قرأت كلمتى الماضية ، وهى عتب عليك ، عتب قاس
عنيف ندمت عليه أشد الندم لأنه اتصل بأيامى فى الجامعة الأمريكية
المعهد الذى صحبتك فيه وصحبت الأستاذ حبيب اسكندر وهو من
أكرم من صحبت ، فقد وصفت الأمريكان بأنهم قوم سطحيون ،
وكان الأدب يوجب ألا أقول ذلك بعد أن صحبتهم سنتين : وبعد أن
عرفت المستر جولت وزوجته الغالية .

وكان للمستر جولت قصة نديلة ، فقد كتب إلى خطابا بالفرنسية
يقول فيه :

ولقد قهرتنا الأزيمة على الاستغناء عن بعض المدرسين ، فكان
الدكتور زكى مبارك أول من فكرنا فى الاستغناء عنه ، لأنه رجل
صالح للحياة ، ومواهبه كفييلة بأن تمكنه من طيبات الأرزاق
وأنا أعتقد أن هذه الشهادة هى أعظم ماظفرت به من الألقاب
وقد اقترحت فى ذلك العهد أن أدرس فى الجامعة الأمريكية
بجانا ، ثم صرفتنى الشواغل عما أريد ، وليتنى استطعت لأقيم الدليل
على أننى من أصحاب المعانى ، فالجامعة الأمريكية تقوم فى نفس البناء
الذى كانت تقوم فيه الجامعة المصرية ، وفى ذلك المكان نفسه

استطاع أستاذنا الشيخ محمد المهدي بك أن يقوم بتدريس الآداب
العربي مجانا حين نقصت موارد الجامعة المصرية بسبب الحرب
العالمية .

ولكن ندمي على ما آذيت به الأمريكان بدأ يخف ، لآتني أخذت
أفهم آتني لا أحارب الطريقة الأمريكية لأسباب شخصية ، وإنما
أحاربها في سبيل المبدأ ، وأنا يا صديقي رجل يتوهم أنه من أصحاب
المبادئ ، وقد تجد فيمن صحبناهم من الأمريكان من يشهد بصدق
ما أقول .

وأنا أعتقد حقا أنكم قوم سطحيون ، وأعتقد أن نبوغ أمريكا
في الفن السينمائي له دخل في ذلك ، فهم قوم تبهرهم الألوان قبل أن
تبهرهم الحقائق ، فالدنيا عندهم صور وزخارف وتهاويل ، والبيت
لا يكون عندهم بيتا إلا إن ناطح السحاب ، مع أن أرض الله أوسع
عما تظن ويظنون .

وايس عند الأمريكان غير فضيلة واحدة هي الابتسام ، وقد
ورثت عنهم شيئا من هذه الفضيلة العالية ، وأشهد صادقا آني ابتسمت
حين قرأت كلمتك في الرد على أخيك .

فهل آمل أن تبسم أيضا حين أقول إنكم قوم سطحيون ؟
اسمع يا صديقي :

أنت قلت إن علم النفس منذ عشرين سنة لا يمتأس إلى علم النفس

في هذه الأيام إلا كما يقاس التنجيم إلى علم الفلك .

ذلك كلامك الذي سطرته بقلبك في مجلة التربية الحديثة .

فهل تعنى ما تقول ؟ وهل يصدقك رجل مثل سعادة الدكتور

منصور فهمي أو رجل مثل معالي الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟

وهل يوافقك على ذلك فريق من الذين تلقيت أنا عنهم الفلسفة

في السوربون ؟

من سوء حظي أيها الأخ أني دكتور في الفلسفة ، ومن سوء حظي

أن وجدت رجلا يعتذر عن نقد كتاب النثر الفني بحجة أنه قام على

أصول فلسفية توجب النظر الدقيق . وهذا الرجل هو الأستاذ

إسماعيل مظهر وهو فيما سمعت وسمعت من المطلعين على المذاهب

الفلسفية .

ومن سوء حظي أيضا أني اطلمت اطلاعا لا يخطر ببالك على

الفلسفة اليونانية والعربية ، وصح عندي بعد البحث أن الفلسفة

الحديثة لها أصول عند القدماء .

هل تصدق أنتي اكتشفت أن مذهب فرويد له أصل في كتب

الشعراني ؟ وهل تصدق أنتي وجدت لذلك المذهب أصولا صحيحة

عند علماء الفقه الإسلامي ؟

ليتنى أفرغ لك ولأمريكا لأفهمكم أن لا جديد تحت الشمس مع

استثناء اللاسلكي والبخار والكهرباء .

إن قوتكم في الإعلان تفوق كل قوة وقد أزغتم الأبصار

والعقول، وأصبح من واجب كل مخلص أن يقفكم عند حدكم، فقد
ملأتم الدنيا بالأوهام والأضاليل .

أفي الحق أن علم النفس كان منذ عشرين سنة خرافة من الخرافات؟
فما رأيكم فيمن يحدثكم أن علم النفس كان علما صحيحا منذ
ألف السنين؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الحقائق النفسية عرفها قدماء العرب
والفرس واليونان والمصريين والهنود؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الاستهانة بميراث الإنسانية هي الشاهد
على أنكم تمزحون فيما تقولون وماتكتبون؟

لقد اتفق لك يادكتور بقطر أن توهم قراءك مرات ومرات بأن
مناهج التعليم في مصر وفي فرنسا وفي إنجلترا وفي ألمانيا وفي الدنيا
كلها مناهج تقوم على غير أساس لأنها غير أمريكانية ، فاتق الله
والآداب والذوق في عقلك ، وتذكر أن الأمريكان ناس كسائر
الناس وایسوا من الملائكة ولا الشياطين .

أما بعد فما أوجه الكلام إلى شخصك بالذات لأنك صديق عزيز ؛
وإنما أنقد مذهبا ضعيفا من مذاهب الفهم هو المذهب الأمريكاني .
وقد آن الأوان للتفكير في نقلك إلى وطنك حتى لا تضيع .

آن الأوان للتفكير في رياضتك على النظر إلى الحقائق .

آن الأوان لفهمك أن الفلاسفة كان لهم قبل عشرين سنة
مذاهب صحيحة في علم النفس .

آن الأوان لفهمك — وأنت صالح للفهم — أن علم النفس له
ماض وتاريخ .

أيها الصديق

لا تحسبني أسأت إليك ، فستذكرني بالخير بعد حين ، والسلام .

كيف نصادق أطفالنا (١)

سيداتي وسادتي

لاتظنوا أن الظفر بصدقة الطفل أمر سهل ، لأن بيننا وبين الأطفال فوارق كثيرة جداً ، وهذه الفوارق تباعد ما بيننا وبينهم ، وتجعل عقد المودة معهم أمراً عسير المنال

وأسعد الآباء هو من يستطيع الوصول إلى قلوب أبنائه في ترفق وتلطف ، ليكونوا قرة عينه ، وليكون قرة أعينهم ، وليصبح البيت موئلاً للانشراح والابتهاج

وأسارع فأقرر أن الأب لا يستطيع الظفر بصدقة أبنائه إلا إن ضمن عطف زوجته عليه ، فالزوجة هي الرباط الأول بين الأب وبين قلوب أبنائه ، وهي تستطيع أن تغير قلوبهم على أبيهم حين تشاء ، لأنها تملك من أمورهم كل شيء ، ولها وسائل خفية تصل بها إلى قلوب الأطفال

وبيان ذلك أن بعض الزوجات يستطعن إعلان التذمر من الأزواج ، وهذا التذمر قد يسمعه الأطفال فيرسخ في أذهانهم أن أباهم رجل بغيض ، وعندئذ يصعب على الأب أن يظفر بصدقة بنيه

(١) محاضرة ألقيت في محطة الإذاعة العراقية

والزوجة الصالحة هي التي تشعر أبناءها في كل وقت بعظمة
أبيهم وتروضهم على احترامه وحبه ، وتؤكد في أنفسهم الشعور بما
يملك من جميل المناقب والخصال .

الزوجة الصالحة تقول للطفل : « تمسك بهذا الخلق فإنه يرضى
أباك ، وتجذب ذلك الخلق فإنه يغضب أباك »

وعندئذ يشعر الطفل بأن عند أبيه ذخائر من الفضائل فيتشوف
إلى الاطلاع على ما في قلب أبيه من كرائم الطيبات . ويرى الطاعة
من صالحات الأعمال

فإن سمعتم أن طفلاً يحب أباه فاعرفوا أن لذلك الطفل أمماً صالحاً ،
وإن سمعتم أن طفلاً يبغض أباه فاعرفوا أن له أمماً ذميمة الخلال
وإنما اهتمت بتأكيد هذا المعنى لأبناء الزوجات إلى حقيقة
غفل عنها أكثر المربين ، وهي أن الأطفال وديعة ثمينة في أيدي
الأمهات ، ومن الأمهات من ينسين الواجب فيفسدن ما بين الآباء
والأبناء ، ويحرمون الأطفال من نعمة عظيمة هي الثقة بالوالد
المسكين الذي يضطرب في دنياه ليقدم إلى زوجته وأطفاله أسباب
الرخاء .

وما ابتكرت هذه الحقيقة ، وإنما هي درس تلقينه عن أهلي ،
فقد كان أبي رحمه الله رجلاً جافياً جداً ، وما أذكر أنه ابتسم في
وجهي غير مرات معدودات ، ولكن أمي رحمها الله كانت لا تذكره

أمامي بغير الخير ولا تصوره بغير الجميل .
وكنت في طفولتي أرى أبي لغزاً من الألغاز ، فهو فيما أرى
رجل عنيف ، وهو فيما تصور أمي رجل لطيف ، ولم أعرف وجه
الحق إلا يوم حرمتني المقادير من أبي وأصبحت في الدنيا بلا صديق

ولكن ما الموجب للحرص على صداقة الأطفال ؟
لقد سمعت أننا من بني آدم ، وسمعت أن آدم كان رجلاً له قلب
والأطفال يعيشون بيننا في غربة موحشة فليسوا من جيلنا
ولسنا من جيلهم ، فهم وهم غير همونا ، وهمونا غير همومهم ،
ولن يمكن التوفيق بيننا وبينهم إلا إن صعدوا إلينا أو نزلنا إليهم ،
فن كان له قلب فليعرف هذه الحال وليفكر في إنسان أولئك
الغرباء الذين يتشوفون إلى العواطف والقلوب .
وأول ما يجب التنبه إليه هو اليقين بأن الأطفال يعيشون في عالم
المحسوس ويجهلون عالم المعقول .

وعالم المحسوس هو الأصل ، ولو شئت لقلت إن عالم المعقول
ليس إلا تصويراً لعالم المحسوس

ومن واجب الأب أن يدرك أن الأطفال يرون الدنيا بعيونهم
لا ببعولهم ، من واجب الأب أن يفهم أن مدركات الحواس هي
كل شيء عند الأطفال

فإن بدا لك أن تصادق الطفل فابحث عن مواقع هواه ، واعرف
أن فيه أكثر يقظة من عقله ، وأن صندوق الحلوى أفضل عنده من
الكتاب الجيد ، وأن الثوب المرقش أحب إليه من القول المزخرف
والآب الذكي اللبيب هو الذي لا يلتقي طفله إلا وفي يده هدية أو تحفة
أو طرفة ، فإن فاتته ذلك فليقدم إلى طفله قطعة أو قطعين من النقود ،
وليذكر دائماً أن هذا هو ما يدرك الأطفال من معاني الوجود
وفي الدنيا أشياء هي عندنا أو هام ، وهي عند الأطفال حقائق
ولن نظفر بصداقتهم إلا إن رأينا الدنيا بعيونهم ، ولعلمهم
أعرف وأصدق ! كنت أدخل المنزل فيلقاني أطفالاً باسمين متململين
لأن الراديو قدم إليهم هدايا نفيسة ، فيها من كل فاكهة زوجان ،
فأفرح لفرحهم ، وأطلب نصيبي من هدايا الراديو ، فيقدمون إليّ
ما بقي من هداياه مفضلين

وكان هذا الراديو عجيباً ، ولعله أعجب راديو عرفه الناس ، كان
الأطفال يصبحون فيجدون حوله أطيب كثيرة من المأكولات
والمشروبات فيصفقون ويهللون ، وتموج بهم الدنيا موج الفرح
والاغتياب .

وكنت أتفجع بهذه الفرصة فأفرح لها كما يفرحون
وكان في المنزل طفل كبير يرتاب في هدايا الراديو ، ويظن
لسخفه أن تلك الهدايا قدمتها يد إنسان لا يد شيطان

و كنت بفضل عقلي أفهم أن هدايا الراديو هدايا رديوية ، وأن
الراديو هو الذى ينقل الهدايا كما ينقل الأصوات :
و كان أطفالي يحبون أباهم لأنه عاقل ، و يهتمون أخاهم الكبير
بالجنون .

فليت شعري ماذا صنع الراديو بعد رحبلى إلى العراق ؟
أ كان يجرى على عادته السخية فيقدم الهدايا إلى أطفالي في
الصباح والمساء ؟

أم ترونه حزن لفراقى فخرم الأطفال من تلك الهدايا الطيبات ؟
إن الراديو الذى فى منزلى بمصر الجديدة هو أغرب المبتكرات ،
و من الواجب أن يكون له أمثال فى كل أرض ، هو راديو كريم
يقدم إلى الأطفال كل ما يشتهون ، وهو يعرف الفوارق بين هدايا
المواسم وهدايا الأعياد ، ولم يكن فيه إلا عيب واحد : هو أنه يضمن
بالهدايا حين أغيب ، و لا أعرف السبب فى ذلك !
فتمى أرجع إلى أطفالي ليرجع الراديو إلى بره المألوف ؟

و الطفل كثير الاعتداد بالنفس ، وهو لا يصادق من يعدون
عليه الذنوب . و نحن خليقون بالتغاضى عن هفوات أطفالنا . لأنها
فى الأغلب هفوات طبيعية ، و لأن هؤلاء الأطفال سيدخلون دنيا
الناس بعد حين ، و سيشرّبون الصاب و العلقم من أيدي الأصدقاء

المزيفين ، سينتقل هؤلاء الأطفال إلى دنيا خسيمة لثيمة لاكرم فيها
ولارفق . سينتقلون إلى صحبة ناس لا يسترون عيوبهم ، ولا يغفرون
ذنوبهم ، فلتكن صحبتهم إيانا هي الموسم الطيب الذي يرونه في الحياة
ولنتذكر أن الأطفال الصغار ليسوا أعتل من الأطفال الكبار
فقد كان لي صديق أثق بعقله وكرمه ونبله ، ثم اتفق أن أداعبه
فأذكر أنه دميم الوجه ، والدمامة لانعيب الرجال ، فغضب وشتمني
أقبح الشتم في إحدى الجرائد ، وعنه تلقيت درسا لن أنساه : وهو
أن الأطفال الكبار أقل عتلا من الأطفال الصغار في بعض الأحيان
ومزاحهم ثقيل ممجوج !!

وأطفالنا سيقفون هذه المكاره بعد حين ، فلنعطف عليهم ،
ولنتذكر أننا نلقينهم إلى دنيا غادرة لا يحفظ فيها تاريخ إنسان إلا
إن لطح يده بدماء الأبرياء .

الطفل يحب أن تكون له أخلاق الرجال وشمائل الرجال .

ولن نظفر بمودته إلا إن منحناه الثقة بمواهبه العالية .

فما الذي يمنع من النزول عند إرادته عساه يستفحل ويستأسد ؟

الطفل يحب أن تثق بأنه أجمل الناس وأذكي الناس .

فما الذي يمنع من أن نقول له صدقت أيها الذكي الجميل ؟

إننا ننخدع كارهين للأطفال الكبار وهم الرجال ! فما الذي يمنع

من أن ننخدع طائعين للأطفال الصغار وهم الأبناء ؟

سيداتي وسادتي :

اسمحوا لي أن أعتب عليكم بعض العتب

لقد مضت أجيال وأجيال ونحن نفرق بين الذكور والإناث .

وقد شهدت بذلك آثار العرب واليهود والهنود .

فهل آن أن نعرف كيف نحب أطفالنا من البنات ؟

إن البنت مخلوق نفيس وهي مصنوعة من الروح والوجدان

إن البنت هي سر الوجود ، وليكن أين من يفهم المعاني ؟

إن البنت هي مصدر الرفق والعطف والحنان

إن البنت هي أصل ما نملك من الرزق لأنها ضعيفة ، والله يرزقنا

بفضل ما في بيوتنا من الضعفاء

إن البنت هي التي تعرف كيف تواسى أباهما أو أخاها أو زوجها

وهو على فراش الموت ، فاحترموا البنت وأعزوها واجعلوها من

كرام الأصدقاء .

هل قرأتم سيرة المسيح ؟

لقد شاء الله أن يكون ذلك النبي ابنا لامرأة تنكر لها أهلها

ليريكم أن الأمر بيد الله لا بيد الناس

أراد الله أن يعلمكم أن تقاليدكم خداع في خداع ، وأنكم لم تروا

من بحار الحقائق غير أوшал .

وقد سمعت أن ناسا من الانجليز يتناولون على «العذراء» في

حديقة ، هايدبارك فليتناولوا كيف شاءوا ، فستبقى العذراء عذراء .
وإن نطحوا بقرونهم رواسى الجبال
سيداتى وسادتى :

صادقوا أطفالكم وأطفال من تعرفون بلا تحفظ ولا تهيب ،
فالطفل هو الزهرة الكريمة التى تنبت فى الصحراء .
الطفل هو أطيب ما فى الوجود ، وهو الصديق الحق لو تعلمون .
الطفل هو الذى يقبل وجوهكم برفق وعطف ، وكل مودة غير
مودة الطفل هى رياء فى رياء .

الطفل هو المؤمن بالوداد ومن سواه كفار جاحدون .
قبلة الطفل صدق فى صدق ، وصدقة الطفل إيمان فى إيمان .
فإن فاتتكم تلك القبلة وهذه الصدقة فستعيشون محرومين .
الطفل مخلوق لطيف لم يطلع على سفه الدنيا ولؤم الزمان
الطفل يثق ويوقن ، فأفهموه أنكم أهل للثقة واليقين ،
الطفل يشتهى أن يحب فأحبوه .
الطفل يطمئن إليكم ، فاطمئنوا إليه .
الطفل يتوكل عليكم ، فتوكلوا على الله واعطفوا عليه
الطفل يتوهم أنكم ناس ، فأفهموه أنكم ناس
الطفل هو نعمة الله فلا تجحدوا نعمة الله .

أما بعد فإن الظفر بصدقة الطفل أمر سهل عند من يفهم أسرار

الغرائز والميول ، ولكنه صعب جداً على من ينتظر من الأطفال أن
يفكروا بعقول الرجال .

فارجعوا إلى طفولتكم حين ترون أطفالكم لتذوقوا معاني السعادة
من جديد ، ولتنسوا في صحبتهم متاعب الجدة الرزين .

حديث المؤلف

مع جريدة الاخبار

قالت جريدة (الاخبار) العراقية الغراء :

كان لصدور كتاب (عبقرية الشريف الرضى) الذى أنحف القراء به حضرة الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك أستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية رنة استحسان فى مجتمعنا الأدبى ودوى فى محافل الفكر .

وقد قصد مندوب جريدة (الاخبار) المؤلف الدكتور زكى وسأله أفانين من الأسئلة حول الموضوع ، وفيما يلى خلاصة حديث الأديب المبارك :

س — لماذا بدأتم بالشريف الرضى ؟

ج — لذلك تاريخ قديم ، فقد كان الأدباء فى مصر يختلفون حول أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وكنت وحدى أقدم الشريف الرضى على هؤلاء الشعراء ، وأثر هذا التقديم واضح فى كتاب (مدامع العشاق) الذى طبع مرتين ، وهو يشهد بإعزازى للصديق العظيم محمد بن الحسين ، ولما قدمت بغداد رأيت الفرصة قد سنحت لإنصاف هذا الشاعر المظلوم الذى غفل عنه الناقدون .

س — هل تعتقد أن الشريف الرضى كان منسياً ؟

ج — إرجعوا إلى المؤلفات الحديثة التي دونت أخبار الشعراء
تروا أن الشريف الرضى لم ينل بعض حقوقه في الحياة الأدبية ،
ويكفي أن تذكروا أن كتاب (الوسيط) لم يشر إليه ، وكتاب
الوسيط ألف لغاية واضحة هي تعريف الشبان المصريين بأهم
الشخصيات التي كان لها سلطان في عالم الشعر والأدب والبيان .

س — ما هي أهم النواحي الذوقية في حياة الشريف ؟

ج — كان القدماء يرون أنه أشعر الناس في « الحجازيات » ،
وأرى أن أهم النواحي في شعره هي « المعالي » ، وأعتقد أنه أعظم
شاعر وضع دستوراً لحياة الفتيان ، وأكاد أجزم بأنه أكبر شاعر
صوّر الضجر من حياة الخمول ، فالشريف الرضى شاعر ناثر يدعو
إلى تحطيم قيود الذل والاستعباد . ونواحي الرجولة قد اكتملت
فيه كل الاكتمال ، فهو رجل له صبوات وآمال ، هو عاشق
وفارس ومؤمن وزعيم ، هو رجل يجمع بين المرارة والحلاوة
والعنف والرفق ، هو شخصية عراقية تقسوفتكون أعنف من الجحيم
وترقفتكون أرفق من النسيم

س — ما هو الأسلوب الذي اخترته في التأليف ؟

ج — لقد أقمت كتابي على غير مثال سبق ، وأنا أحرص كل
الحرص على أن تكون مؤلفاتي ألواناً مختلفات ، وأحب أن ألقى

قرأنى فى كل كتاب بأسلوب جديد . والتأليف عندى فن من الفنون
فلكل كتاب ضرب من التصميم ، ولون من التصوير . واختلاف
الموضوعات يوجب ذلك ، فللمؤلفات الأدبية لون ، وللمؤلفات
الفلسفية لون ، فلى فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) شخصية غير
شخصيتى فى كتاب (النثر الفنى) وكذلك كان كتاب (عبقرية
الشرىف الرضى) صورة جديدة تخالف سائر الصور فيما نشرت
من مؤلفات .

س — قلت إنك سايرت الشرىف الرضى مسأيرة الصديق
للصديق ، فما معنى ذلك ؟

ج — تلك خطى فى التأليف ، فأنا أهتم بارتياح المجاهل من
حيوات الشعراء وأحرص على التعرف إلى ما عندهم من ميول
وأذواق وأهواء . وأنا بكل صراحة أعتقد أن لا بد للناقد من أن
ينسى شخصيته ويفنى فى شخصية الشاعر الذى يدرسه بحيث يبصر
بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويفقه بقلبه ، ليسبر أغوار نفسه ، ويرى مبلغ
شعوره بما وصف من الأشياء .

س — كيف كانت إحساساتكم عند تأليف ذلك الكتاب ؟

ج — كنت فى حالة نفسية تشبه تمام الشبه أحوال الشرىف فى
دنياه ، وقد تفتح قلبى تفتحاً لم أعهده من قبل ، فأنشأت فى أشهر
قلائل ألوفاً من الصفحات ، وأصبح من المقرر عندى أن الشرىف

شاعر يوحى ، والشاعر الذى يوحى هو الشاعر الحق ، وأنا أو من
بأن كتابى عن الشريف سيخلق نهضة أدبية وذوقية وفنية ، وسيكون
له تأثير شديد فى توجيه التأليف وجهة جديدة سترون شواهدا
بمد قليل .

س - دعوت فى آخر كتابك للاحتفال بمرور ألف سنة على
ميلاد الشريف ، فماذا توصى به فى هذا الشأن الخطير ؟

ج - إن إحياء الذكريات لون من حياة المجتمع الإسلامى ،
ولكنه كان مقصوراً على الشخصيات الدينية ، ونحن قد أخذنا
عن أوربا الاحتفال بالشخصيات الأدبية والفلسفية ، ولعل ذلك
التقليد وقع فى مصر أول مرة حين احتفلت الجامعة المصرية بإحياء
ذكرى الأعضاء المؤسسين ، فقد كان معالى الأستاذ أحمد لطفى السيد
باشا يلقى علينا محاضرة فى كل سنة عن قاسم أمين ، ثم توسعت
الجامعة المصرية فاحتفلت بذكرى رينان ومحمد عبده والجاحظ
والمتنبى ، وشاعت هذه البدعة الجميلة فى سائر الأقطار العربية ، وكان
للإعراق نفسه نصيب من إحياء ذكرى المتنبى ، فمن الواجب أن
ينتهز الفرصة التى ستسنىح بعد عام ونصف للاحتفال بمرور ألف
سنة على ميلاد الشريف الرضى ، وإنى لأرجو أن يكون احتفالا
عالميا تشترك فيه سائر الأمم العربية ويكون فيه للفن نصيب
عرموق : فى ديوان الشريف قصائد كثيرة تصالح للغناء . ومن

الواضح أن أمثال هذه الاحتفالات تنفع في إحياء الدراسات
الأدبية ، وتوجه الباحثين إلى أفانين من شائق البحوث .

س - كيف رأيت استقبال الرأي العام لكتابكم الجديد ؟

ج - ضاق وقتي عن تذكر الرأي العام بكتابي فلم أهد
إلى الصحفيين العراقيين غير نسخ معدودات ، وفي العراق جرائد
ومجلات لم أهد إليها الكتاب ، مع أن فيمن تغافلت عنهم أصدقاء
فضلاء ، ولعلمهم يعتبرون ويلومون ولكنهم سينسون هذا التغافل
حين يتذكرون أنني كنت مشغولا بتلاميذي ؛ على أن هذا لم يمنع من
أن يكون كتاب (عبقريه الشريف الرضي) أول كتاب شعرت
بوصوله إلى أفئدة القراء بسرعة بعد كتاب (النثر الفني) فقد وزعت
مئات من النسخ في بضعة أسابيع ، وسيكون له مجال حين يصل
إلى مصر ، فالصحافة المصرية تهتم بحياة التأليف أكثر مما تهتم
الصحافة العراقية ، وكان أهل العراق يعرفون ذلك ، فهم يتساهمون
بأخبار الكتب الجديدة قبل أن تحدثهم عنها الجرائد والمجلات

س - هل أستطيع أن أسأل كيف قضيت عامكم هذا في بغداد ؟

ج - أنا ما قضيت عاما في بغداد ، وإنما قضيت في بغداد لحظات
ستكون ذخيرتي من الأانس فيما بقي من حياتي ، وما عرفت معنى
الحياة إلا في بغداد ، فقد قضيت جميع تلك اللحظات والقلم في يدي ،
واستطعت أن أشغل طوائف من الجرائد والمجلات في مصر والعراق

ولبنان . وأستطيع أنب أصرح بأننى أول موظف تطلقت معه
حكومة العراق ، فلم يسألنى أحد عما أنشر من المذاهب والآراء ،
وقد ظن بعض من لا يفهمون أن حكومة العراق سكنت عنى
لمسكاتى الأدبية ، والرأى الحق أن حكومة العراق سكنت عنى
لأنها تعرف أنى من أصدق أصدقاء العراق .

س - من هو الشاعر الذى ستدرسونه فى العام المقبل ؟

ج - العام المقبل فى ضمان الله ، فقد اعتذرت عن مواصلة
العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل ، لأننى أريد أن أطبع
كتاب «التصوف الإسلامى» الذى نلت به الدكتوراه فى الفلسفة
من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وهو لا يطبع فى غير القاهرة
لأسباب فنية .

وبهذه المناسبة أوجه أصدق الثناء لمن عز عليهم أن أحرم من
هواء بغداد فى العام المقبل ، ولا يعزبنى عن فراقهم إلا يقينى بأن
بغداد ستكون فى أكرم المنازل من قلبى ، وسأذكر أنى احتملت
مشاق السفر لأرى قبر أبى تمام بالموصل ولأهيه نفسى لتأليف
كتاب عن عبقرية الشاعر الذى أعز دولة الشعر فى القرن الثالث ،
فإن ترفقت شواغلى بمصر وسمح أطفالى بالرجوع إلى بغداد فسأقيم
موسماً ثانياً للشاعر الجميل الذى اسمه حبيب . وإن كان هذا آخر العهد
بتنسىم هواء بغداد فإنى أؤكد لكم أننى سأقصر جهودى وأنا بمصر

على الاهتمام بالآثار الأدبية لأهل العراق ، وسيكون شعارى قول
جميل فى خطاب بثينة :

فإن كنت لمتا تعلمى العلم فاسألى وبعض الرجال للرجال رموق

سلى هل قلانى من خليل صحبته وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيق

وهل يحتوى القوم الكرام صحابى إذا اغبر مخشى الفجاج عميق

والسلام عليكم وعلى العراق ورحمة الله

من العمامة إلى الطربوش ثم إلى القبعة فالسدارة

أخي الأستاذ طاهر الطناحي
لا أدري والله كيف خطرت ببالك ، وأنا الصديق الذي نسيه
الأهل والأحباب
حدثكم الأستاذ محمود عزمي أتني لبست السدارة فتذكرتوني ؟
وهو كذلك !

أما أنا فتذكرتك في طريقى إلى البصرة وطن العلم والشعر والخيال
فقد كانت مجلة « الدنيا المصورة » أنيسى فى ذلك الطريق الطويل ،
وكانت الشاهد على أن مصر تؤدى دينها إلى العراق ، العراق الذى
أحبكم ورعاكم ، إن كنتم تستحقون الرعاية والحب ، يا أشقياء !
وإنما غمزتكم هذه الغمزة لأذكركم بواجبكم نحو العراق ، فقد
أصبحت أغار عليه كما أغار على وطنى ، وأرى من حقه عليكم أن
تكونوا أسبق الناس إلى تسجيل أعماله الصالحات ، فلهجلاتكم
بالعراق مكان مرموق ، وما يجوز لكم أن تقابلوا الجميل بغير الجميل -
وبعد فقد آن أن أدخل فى صميم الموضوع فأقول :

إننى تقلبت فى ملابسى من حال إلى حال ، فكنت أولاً ألبس

الطاقية والجلابية ، وذلك ما لم تسألوني عنه ، مع أنه لباس الفلاحين
المصريين ، ولباس أهلى فى سنتريس ، ولعلكم ظننتم أنى أتسكر للنشأة
الأولى ، فرأيتم من الذوق أن تسسكتوا عن ذلك العهد ، وقد صقلتكم
المدنية فخرصتم على الذوق وهو عندكم يوزن بميزان الذهب ، وغيركم
يكيله بالمكيال ، حفظكم الله ورعاكم يا جيران قصر النيل ، ولكن
لابأس من أن تذكروا أنه لا يضايقنى أبداً أن أعترف بأنى فلاح
لا يزال فى يده أثر الفأس والمحراث

كنت معمماً يوم كنت طالبا بالأزهر الشريف ، ولكن يظهر
أنى كنت غريباً بين الأزهريين ، فقد كانت عمامتى أظرف عمامة ،
وكان هندامى أجمل هندام ، وكنت وحدى أمثل فى الأزهر مذهب
المعتزلة ، يوم كان الأزهر لا يذكر المعتزلة إلا قال قبحهم الله !

وكان فى النية أن أظل أزهرياً ، فقد انتقلت من مذهب الشافعى
إلى مذهب أبى حنيفة لآكون مفتى الديار المصرية ، ولكن أين أنا
عما تصنع المقادير !

لقد شاءت المقادير أن تخلقنى على طراز غير طراز القضاة والمفتين
فنقلتنى إلى الجامعة المصرية لأصبح من تلاميذ منصور فهمى وطه
حسين ، والله الحفيظ !

ومع ذلك ظلت معمماً إلى أن ظفرت بإجازة الليسانس فى العلوم
الفلسفية والأدبية ، سنة ١٩٢١ ثم أخذت أستعد لامتحان

الدكتوراه ، فبدأ لى أن أصبح « أفندى » وكانت كارثة ، لأنى لم أكن أعرف تقاليد « الافندية » الظرفاء ، فقدمت ما عندى من « الجيب » إلى أحد الطرزية فى شارع محمد على فصنعوا منها بذلتين سخيفتين شهدتا بأنى كنت مهتما فى الجبة والقفطان ثم أصبحت أضحكة فى السترة والبنطلون !

وفى يوم امتحان الدكتوراه أوصانى الدكتور منصور فهمى بأن أحضر فى البذلة السوداء ، فلم أفهم المراد من البذلة السوداء ، وحضرت ببذلة مكونة من لونين ، لونين سخيفين كل السخف ، ولولا فصاحتى وبلاغتى فى ذلك اليوم لعدنى الحاضرون من السفهاء ، وكانت قوة حجتى فى امتحان الدكتوراه هى الشاهد على صواب الكلمة المأثورة :

« إن العبادة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها »
والرسالة التى قدمتها لامتحان الدكتوراه يومئذ هى كتاب « الأخلاق عند الغزالي » وقد جاء فى ذلك الكتاب فى فصل لا أدرى ماهو لأننى نسيته أنى قد أخلع العمامة وألبس الطربوش ولكنى لا ألبس القبعة !

ذلك ما سجلته فى كتابى ، أيها الصديق .

ولكنى لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين حين هاجرت لطلب

العلم فى باريس سنة ١٩٢٧ .

ومن الغريب أنى لم أصنع كما يصنع زملائي ، وعهدى بهم بذهبون
إلى البواخر بالطرايش ، وإنما لبست القبعة من منزلى فى مصر
الجديدة ، فلم يعرفنى المودعون ، وفيهم الشيخ إبراهيم القاياتى ، رحمه
الله ، وفيهم الشيخ على مبارك الذى زاغ بصره ليعرف أين عمه
الغالى ، وكان يجهل أنه أصبح من الخواجات فى محطة باب الحديد ؛
ذلك تاريخ معروف : والمهم هو تسجيل لبس السدارة فى بغداد

وهنا أدخل فى صميم الموضوع من الناحية الفلسفية فأقول :

إننى أعتقد أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس واحد : هو
الاندماج المطلق فى البلد الذى تعيش فيه ، وحبتى فى ذلك أن الحيوان
الصالح للحياة هو الذى يأخذ لونه من الأرض التى يعيش فيها ،
وأدمة الغزال هى فى الأصل من لون الصحراء ، والربدة فى الأسود
والنمور هى اللون الغالب على الأرض التى يعيش فيها النمور
والأسود ، ولون الحوت هو من لون المحيط ، والحرباء تمثل السياسة
العالية فى عالم الحشرات ، لأنها تبيض وتسود وتخضر وتصفر وفقاً
لما تخالط من مختلف الألوان ، فتسلم من عيون الأعداء .

وما أزعم أنى وصلت إلى هذا الحد من السياسة العالية ، فما
أقدر على الوصول إليه ، وإنما أقرر بكل صراحة أن الأخلاق
الصحيحة توجب أن تندمج كل الاندماج فى الوطن الذى تعيش فيه ،
والغفلة هى التى تحدثك أن من العبقرية أن تنفرد عن القطيع ،

وبعض الجهلاء يظنون العبقرية في الشذوذ ، وأنا بالفطرة أشعر
بوجوب الاندماج في المجتمع ، وهذا ما صنعت حين وصلت إلى
بغداد .

وأعنيك أن تظن أنني كنت منافقا فيما صنعت ، لا ، فهناك سياسة
أخرى أعرضها عليك :

أنا أعتقد أنه لا بد لحفظ الصحة والعافية من مراعاة الجو والمحيط
ومن أجل هذا فكرت في أن ألبس ثيابا من صوف العراق قبل أن
أصل إلى العراق ، فلم أدخل بغداد إلا وأنا في ثياب صنع قماشها في
بغداد ، وكنت بحمد الله من الموفقين .

ومن عادتني أن أقرأ جرائد البلد الذي أعيش فيه ، فقد كنت وأنا
في باريس أعرف جرائد فرنسا كما يعرفها شبان باريس ، وكان
جيراني من الشبان الفرنسيين يسألونني رأيتني في السياسة الفرنسية لأنني
كنت أعرفها أكثر مما يعرفون ، وأنا اليوم أقرأ جميع الجرائد العراقية
وأعرف سياسة العراق أكثر مما يعرفها الشبان العراقيون ، وأجهل
سياسة مصر كل الجهل ، فكيف حالكم اليوم ؟ حدثوني فقد نسيت
وبمناسبة الأستاذ محمود عزمي أذكر أنني رأيت يلبس القبعة في
بغداد ، فعرفت أنه غير موفق ، وليتكم تسمعون بأن أسجل أنني

رأيته من أهل الجرد ، لأن ما يصلح لجو باريس قد لا يصلح لجو
بغداد ، ولى أصدقاء مصريون لم يعجبهم كلامي فتركوا رؤوسهم عارية
فلزمتهم عقابيل من برد العراق ستصحبهم طول الحياة .

والسدارة العراقية لباس جميل ، وليكنني « أكبسها » على رأسي
بعنف لا تقي بها البرد ، وأرجو أن أكون قدوة لسائر أهل العراق .
والله خلقنا بلا شعر ولا وبر ولا صوف ، وليكنه منحنا شعر
الرأس لينبها إلى أن الرأس يستحق الحفظ ، ومن أجل هذا كان
الإنسان هو الذي يغطي رأسه من بين سائر الحيوان ، ومن جهل
هذه الحقيقة فسيموت قبل أوان الموت !

وأذكر أيضا أن هذه السياسة العملية توجب أن أسأل عن طعام
البلد الذي أعيش فيه ، فأنا في مصر من عشاق الملوخية والخبيزة
والبطحاء والأصناف وضأن المنوفية ، وكنت في باريس لا أعشق غير
الألوان الفرنسية ، ولا أذكر ما أسماؤها لثلا يسيل لعابك ، وأنا في
بغداد لا أوثر غير الأطعمة الأصيلة في بغداد

وكنت في مصر أعشق العيون العسلية ، وفي باريس كنت أعشق
العيون الزرق ، وفي العراق أعشق عيون الطباء . . يظهر أنك غاير
مني ! تعرف شغلك !

وكنت في باريس أهرب من المصريين ، وأنا في بغداد أهرب
من المصريين ، وما أكره مصر ولا أهل مصر ، وإنما أحب أن

أعيش في باريس مع أهل باريس ، وفي بغداد مع أهل بغداد ، ولو
انتقلت إلى المريخ لما رضيت بغير صحبة أهل المريخ !
أما بعد فهذا درس ينفع ، ولكن أين من يسمع ؟
هذا هو السر في أنني أحببت أهل العراق ، وأحبني أهل العراق ،
وستمر أجيال وأجيال ولا ينسى أهل بغداد أن مدينتهم عاش فيها
رجل أحبها أصدق الحب اسمه زكي مبارك

أهدا زكي مبارك؟ أم هو جمال الأفغاني؟

أخي طاهر :

اسمح لي أن أعتب عليك ، فالعتاب صابون القلوب ، كما يعبر
أهل لبنان .

أنت طلبت مني صورتني بالسدارة ، وقد راعيت معك الأدب ،
فلم أرسل إليك صورة شمسية ، وإنما أرسلت إليك صورة رسمها
السيد بهاء الدين الراوي أحد الفنانين بالعراق .

وإنما اهتممت بك لأسباب ، أولها أنك صديق عزيز جداً ،
وإن كنت لا تعرف ، وثانيها أنك موصل الأواصر بأصدقاء أعزاء
منهم الأستاذ أميل زيدان والأستاذ فكري أياظة والأستاذ حسين
شفيق ، وثالثها أنك تقيم بحداثق القبة ذات الزهر والزيتون ، ورابعها
أنك تسير على قدميك في شارع قصر النيل وشارع فؤاد ، وخامسها
أنك تداعب الدكتور زكي مبارك من حين إلى حين . . .

ولكن هل تعرف أن مداعبتك الأخيرة كانت ثقيلة جداً؟

هل تعرف أنه ما كان يجوز لك أن تنشر صورتني وأنا طالب

بالأزهر الشريف؟

ومعـاذ الأـدب أن أتـنكر للأزهر وقد جـلست على حـصيره
الممزق خمسة عشر عاماً كما جلس محمد أبو شادي وإبراهيم الهلباوي
وسعد زغلول ، وهل يؤذيني أن أكون أزهرى النشأة ، وبفضل
الأزهر وصلت إلى ما يعرف خصومي من التفوق في اللغة العربية ،
وبفضل الأزهر استطعت أن أصال علماء النجف في بغداد ؟

إنما آذاني وأرمني أن تذكرني بشبابي ، فقد نشرت لي أربع
صور في صفحة واحدة ، كانت شاهداً على أني تنقلت رويداً رويداً
من الشروق إلى الغروب .

واسمح لي مرة ثانية أن أصرح بأن حقدك على أخيك حقد قديم
فأنت يا ظالم تريد أن تضيفني إلى طائفة الكهول ، مع أني في نفسي
وبشهادة ليلاي الغالية شاب رائع الشباب ...

أكتب هذا وأنا أعرف أنك ستبتسم ، لأن ديسيتك جازت
على قراء «الدياء» ، وهي مجلة محبوبة لدى ، لأنني اشتركت في تحريرها
مرات ، ولأنها كانت أنيسي في طريقى إلى البصرة ، وطن العلم
والأدب والخيال .

إن الحقد له حدود ، ياطاهر ، وكان الظن بذوقك أن تخفي عن
قرائك صورتي يوم كنت طالباً بالأزهر الشريف ، فهي صورة
تشهد بأنى كنت من أمراء الشباب ، ولكن التعقيب بصورتي مستدراً

في بغداد أزجني ، لأنني رأيت أنني أصبحت شبيها بالمفكر العظيم
السيد جمال الدين الأفغاني .

ولوشئت لقلت إن من الشرف أن تكون صورتى شبيهة بصورة
جمال الدين ، فأنا أصنع مثل الذي كان يصنع ، أنا أحاول التقريب
بين الأمم العربية والإسلامية ، ولكنني مع ذلك أتوجع لجنايتي على
شبابي ، وأشارك الشاعر الذي يقول :

ليت الحوادث باعتنى الذي أخذت

مني . على الذي أعطت وتجريبي

أخي طاهر :

كنت سمعت أنك نشأت في دمياط ، فإن كان هذا صحيحا فخبرني
كيف خانك الذوق ؟

ألم أعاتبك مرتين على ما كتبت في مجلة « الهلال » يوم قلت إنني
أجمع بين نشاط الشبان وحكمة الشيوخ . .

خذ ما عندي من الحكمة . وأعطني ماضع من شبابي

أخي طاهر . . ولوشئت لقلت إنك غريمي

اسمع يا أخي ويا غريمي :

لقد تركت دنيا شبابك بلا ورق وبلا أغصان ، وإن تدخل مكانا
إلا وقد ، وطئته قدماي وباريس التي تتشوف إليها لن تجد فيها مكانا

لم يضح أديمه وأنا أدوسه بعنفواني فانتقم مني كيف شئت ، فتمدسبقتك
إلى دنيا الحب والمجد بعزائم الرجال
وإن طاب لك أن تصر على الاختيال بشبابك فسأصارعك في
ميدان الجزيرة يوم أعود ، لتعرف أيننا الشاب وأيننا الكهل ، ولكن
متى أعود؟ حدثني متى أعود؟ فقد طال شوقي اليك وإلى الإخوان
الذين أتحداهم بقوتي وعنفواني في دار الهلال

أحييتني بغداد

صديق :

تحيتي اليك وإلى السامرين السعداء في ملاعب القاهرة ، وإلى
الأصدقاء الكرام الذين رفعوا قدرى بمزاحهم اللطيف في مجالات
الشباب والدينيا والإثنين وآخر ساعة والصبح ، وتحيتي إلى مصر
التي أمنحها البغض فتمنحني الحب

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
أما بعد فأنا أكتب هذه الكلمة والدمع في عيني ، ولكن
أى دمع ؟ دمع السعداء ، والسعداء يكون كما يبكي الأشقياء .
أبكي من الفرح لأنى أخرجت كتابا في جزأين سيجعلنى أبد
الدهر على السنة أهل العراق
أبكي من الفرح لأن الله رعاني فكنت بفضل رعايته عند
جميل الظنون ، ومن الشرف الهائل أن يعرف قومي أنى ظفرت
بثقة الأكرمين من أهل العراق

كان رؤسائى بوزارة المعارف المصرية يعرفون مذاهبى فى الأدب
والبيان ، وكانوا يخشون أن أخلق لمصر أعداء فى العراق ، وقد
نصحنى الدكتور طه حسين بصدق وإخلاص ، والدكتور طه - على
حد تعبيره الجميل - أستاذى وزميلى وصديق ، ونصحنى العثماني بك ،

الرجل النبيل الذي يجعلني كرما ولطفًا في منزلة ابنه رجاء ، نصحني
هذان الرجلان بالعقل ، ونهياي عن مصاولة الأدباء في العراق .

فهل ترانى انتصحت ؟

لقد لظمت العقل أسبوعا واحدا ، ثم أسلمت زمامي إلى الجنون
وكيف لا يكون مجنونا من ينفق من الخبر أضعاف ما ينفق من
الماء القراح ؟

كيف لا يكون مجنونا من يحول تلاميذه إلى مؤلفين سينتهبون
منه الميدان ؟

كيف لا يكون مجنونا من يثير الناس عليه فلا يصبح ولا يمسى
إلا وهو في حرب مع الجرائد والمجلات ؟
ولكن الأعمال يا صديقي بالخواتيم ، وليت أعمالى فيما بقى من
دنياى تختم بمثل الذى ختمت به أعمالى فى العراق

لقد صاولت من صاولت ، وعاديت من عاديت ، ثم رجعت
ورجعوا إلى كوثر الصفاء ، وأى حظ أشرف وأفضل من أن يصرح
أحد كبار الرجال بوزارة المعارف العراقية بأنه قرأ كتاب عبقرية
الشريف الرضى فى ليلة واحدة على ما فيه من الأبحاث الطوال ،
وعلى كثرة ما يعترض القارئ من غرائب الرموز ودقائق المعانى ؟
إن الحب بين القارئ والمؤلف أمنية عزيزة فى الأدب العربى ،
وقد أعانى الله فأبدعتها إبداعا ، وإن طالت حياتى فسأقنع شبان

العرب بأن أدبهم خليق بأن يشغلهم بأنفسهم وأهوائهم وأخلاقهم
ومطامحهم ، وأن أساتذتهم ليسوا أقل بصراً بالأدب والحياة من
أساتذة السوربون

لقد كوتني بغداد ، ثم شفنتني بغداد

كوتني هذه المدينة لأنني عشت فيها محبوساً لأدرى أين أذهب ،
وقد تطف الله فجعل للسبيئات رقيباً واحداً ، وأساءت بغداد فجعلت
للسبيئات ألف رقيب ، وكذلك عشت فيها أسير الهواجس
والوساوس فلم أنعم بغير الطيف ، طيف الحب العذرى بين
ليلي وظمياها

وشفنتني بغداد ، لأنني أنست بسواد الليل حين فاتني الأنس بسواد
العيون ، فشرفت نفسي بمراسلة الصحف في مصر والعراق ولبنان ،
وخرجت من ذلك كله بحصول أدبي سيملاً خمسة مجلات ، وسيكون
تذكرة باقية لفضل العراق

قدمت بغداد وقد حقت على لعنة المازني فهجرت الشعر إلى
الأبد ، وسأفارق بغداد وفي صدرى قصيدة هي أعظم ما نظمت
في حياتي .

قدمت بغداد في أسفاس الأشقياء ، وسأفارق بغداد وعلى رأسي

تاج البيان .

ليت قومي يعلمون .

ليت قومي يعلمون أن كرم العراق فوق الأوهام والظنون .
ليت قومي يعلمون لآي الأسباب تظفر مصر بثقة العراق ؟
الأسباب واضحة جدا ، ولكن أين من يعرف ؟
إن المصريين يفتدون إلى العراق وليس في صدورهم ثروة غير
الحب ، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصريا شقي
في العراق فاعلموا أنه مصري مزيف ، ومصر يكثر في أهلها
التزييف ، مع الأسف الموجه ، لأنها تجمع البحرين .
لقد صاولت العراقيين بلا تلطف ولا ترفق ، وآذيتهم في بعض
أحوالي أشجع إيذاء ، وظلوا مع ذلك إخوانا كراما ، فكيف كنت
وكيف كانوا ؟

غزوتهم وأنا مخلص فرعونى وهم مخلصون .
استطاعت عليهم باسم العلم الذى أدعاه فصبروا باسم العلم الذى
يحسنون .
من أتم يا أهل العراق ؟ أتكونون من الملائكة ؟ أتكونون
من الشياطين ؟

من أتم ؟ حدثونى من أتم فقد خبلتمونى ؟
إن عاصميسكم لا تساوى حيا واحداً من أحياء القاهرة ، فما هو
السحر الذى صرعتم به قلبى ؟

لقد سحرتتم أبا العلاء المعرى وهو ضيرير فظل طول عمره يتحدث

عن فضائلكم وشمائلكم ، فكيف أكون ولي بصر حاد أنعم الله به
وتفضل ؟ كيف أكون وأنا أشهد شقاءكم في الصباح ونعيمكم
في المساء ؟

كيف أكون وأنا أشهد شوارعكم تموج في النهار بالعاملين ،
وتموج في الليل بالعاشقين ؟

عشت بينكم محروما يا أهل بغداد ، وسأفارقكم وأنا محروم ،
فاذكروني بالشعر يوم أموت ، وما أريد شعر القوافي وإنما أريد
شعر الأرواح .

صديقي :

هل سمعت بالمستحيل ؟

عشت في باريس ما عشت ، وكنت أصدق مصري عشق باريس
ولكنني كنت أعد أعوامي في باريس . فكنت حين يقترب رجوعي
إلى مصر أجرب السفر في كل مساء إلى محطة ليون ، فكيف تراني
في بغداد ؟

أنا اليوم أتوجع كما تذكرت أني سأفارق بغداد بعد أسابيع .
أنا أضرب وألتاع كما تذكرت أني سأفارق القبط والغبار
في بغداد .

أنا أشرق بدموعي كلما خطر بالبال أني سأرحل عن بغداد .

فهل تراني يا صديقي عشت عيش المنعمين في بغداد ؟

لم أر في بغداد غير ظلام الليل .

لم أر في بغداد غير سواد المداد وبياض القرطاس .

لم أعرف كيف تصطرع الأهواء في بغداد ، فما عصيت فيها ربي ،
وذلك أعظم الذنوب ، فلولا المعصية لما ظفر الناس بأعظم نعمة
من نعم الله وهي الغفران .

رباه ! عاقبني بما شئت ، فقد كفرت بالعيون السود ، في وطن
العيون السود .

رباه ! اغفر ذنوبي ، فقد وقعت في أعظم ذنب وهو الحرمان .
رباه ! أنت تعلم أني لا أدارى المنافقين ، فنجني من شر المنافقين .
رباه ! أنا أحب العراق ، فاجعلني طول حياتي من المجاهدين في
سبيل العراق ، واحشرنى يوم الحساب مع أهل العراق .

رباه ! إن العراقيين رءوني وأكرموني فاجعلهم في الدنيا والآخرة
من السعداء .

فاجعة بغداد

ما أعجب ما تصنع المقادير !
وهل كان يخطر ببال أحد أن أكتب آخر مقال في بغداد وأنا
محزون ؟ .

من كان يظن ذلك ؟ لقد قضيت عامي كله فرحاً مسروراً ، أتقل
في أرجاء العراق من مدينة إلى مدينة ، فوق أمواج الجدل والابتهاج
وألقى من عطف العراقيين ولطفهم ما يشرح الصدر ويؤنس
الروح .

فكيف جاز أن تكون آخر أيامي في بغداد أيام أحزان ؟
تلك ضريبة تؤديها راضين أو كارهين ، فكذلك كانت الدنيا
وكان الوجود .

في ضحى اليوم العشرين من شهر حزيران ذهبت إلى دار المعلمين
العالية لمراجعة بعض الشؤون ، فلقيني الدكتور عقراوي مذعوراً
وهو يقول : وقع اعتداء على الدكتور عزمي ، فانزعجت وأسرعت
لنجدته ، وكان الظن أن يكون الاعتداء نوعاً من التلاحى والسباب
ولكنني ما كدت أجتاز باب كلية الحقوق حتى أفزعتنى مناظر
الدماء .

ودخلت إلى مكتب نائب العميد فرأيت الدكتور عزمى بخير ،
وجدته أصفر اللون ممزق الثياب ، وهو يرتجف ، فقلت : سلامتك
يادكتور، ماذا تجد وما الذى حدث ؟

فأشار إشارة خفيفة فالتفت فإذا رجل ممدد فوق بساط المكتب
وهو مخرج بالدماء ، رجل أخفى الدم معالم وجهه وكاد ينقله إلى
حظيرة الأموات ، ولكن صوته وهو يتأوه ويتوجع دلنى على
شخصيته فعرفت أنه الصديق الكريم الدكتور حسن سيف .

ما أنت يادنيا ؟ أرؤيا نائم ؟

أم ليل عرس ؟ أم بساط سلاف

نعمائك الريحان ، إلا أنه

مست حواشيه نقيع زعاف !

ذلك الدكتور سيف الذى قضى أيامه فى بغداد وهو يعتب
ويتلوم ، لآنى أنقطع عن زيارته ، وأعق واجب الاخاء فى السؤال
عنه ، ولا أراه إلا مصادفة فى الطريق .

وكان الدكتور سيف هو وحده الذى يعتب ويتلوم من بين سائر
الزملاء ، فهل كان يشعر بأن الأقدار ستفرق بيننا بعد قليل ؟
كان الدكتور سيف أخاً كريماً ، فعند الله أحسب فجيعتى
فى ذلك الأخ الكريم .

كنت أرتاب فى أكثر المودات وأثق بمودة ذلك الصديق .

وماهى جريمته حتى يقتل وهو غريب ؟

آه ، ثم آه ، لقد تذكرت

تذكرت أن الله ابتلاه بحرفة التدريس كما ابتلانى .

والتدريس حرفة صعبة قاسية لا يعرف أخطارها إلا الأقلون .

ولم تكن كذلك إلا منذ اليوم الذى وضعت فيه للتدريس

قواعد وأصول ، وأصبح من المفروض أن يمتحن الأستاذ تلاميذه

ليحكم لهم أو عليهم ، والتلاميذ كما عرفتهم فى مصر وفى العراق

لا يرضون أبداً عن أساتذتهم ، فإن نجح طالب فنجاحه لم يقع إلا

بفضل المحاباة ، وإن رسب فرسوبه لم يقع إلا بسبب المعادة ،

والأستاذ فى جميع أحواله مظلوم ، لأن التلاميذ فى أغلب أحوالهم

صغار ، لا يرون الحق والباطل إلا فى ضوء المنافع الشخصية .

والرصاصه التى تلقاها الدكتور سيف فى دماغه أقل خطراً من

كلية السوء التى يتلقاها غيره من الأساتذة ، فكم فى الدنيا من أساتذة

وصموا بأقبح الوصمات لأن لهم تلاميذ ساقطين يذيعون عنهم الإفك

والبهتان !

وجاء الإسعاف فنقل الدكتور سيف إلى المستشفى الملكى

وبقيت مع الدكتور عزمى أواسيه ، فأخبرنى أنه تلقى رصاصه

فى كتفه ، وأنه يخشى العواقب : لأنه مريض بالبول السكرى ،

فقدت له سيجارة فرفض ، فقلت : هي تلهية تنسى بها قليلا همومك
فلم يستطع أخذها بيديه ، ومدّ فمه للسيجارة فعرفت أن الرجل
يتكلف في ترضيتي ما لا يطيق .

وبعد لحظات أخذته في عربة إلى المستشفى الملكي وأدخلته إلى
حجرة الإسعافات ، ولكنه ما كاد يجاس حتى غلبه البكاء .

• • •

كنت أصدق كل شيء ، ولكنني كنت أنكر أن يبكي الأستاذ
محمود عزمي من الجزع .

هذا رجل له خصوم وله أنصار ، وقد أسرف في الحب وفي
البغض ، فما الذي مرّ بخاطره في تلك اللحظة حتى غلبه الدمع ؟
لعله تذكر أطياف ما لقي من الشقاء في دنياه ، فهذا الرجل لم
يعرف معنى الهدوء منذ ثلاثين عاما ، وهو قد انتقل من ميدان إلى
ميدان ، وظل يكافح ويناضل حتى عرف أخيراً أن في الدنيا شيئا
اسمه الرصاص !

ما أذكر أبداً أني أحببت الأستاذ محمود عزمي ، فقد اصطدمت
به في القاهرة في أعقاب الثورة المصرية ، واصطدمت به في باريس
واصطدمت به في بغداد ، ولكنني لم أخل يوماً من العطف عليه ،
فهو رجل مكافح يستحق الإعجاب .

ونكبتة في بغداد توجب الأسف ، لأنها أثر من آثار الحيوية

الذاتية التي امتاز بها هذا الرجل الجوال .

وجاء الطبيب الشرعي فشخص جرح الدكتور عزمي ، وبدأ الى
أن التشخيص خطأ ، ولكنني لم أعترض .

وبعد لحظات حملته نقالة إلى حجرة الاستراحة ، وكان يستطيع
أن يمشي على قدميه ، ولكن غلبه الإعياء .

ونظرت فرأيت معالي وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشيباني ،
ومدير المعارف العام الأستاذ طه الراوي ، ومدير التربية والتعليم
الدكتور فاضل الجمالي والمفتش العام الأستاذ يوسف عز الدين ، فجلسنا
جميعاً ننتظر رأي الأطباء في مصير الدكتور سيف .

ولم يكن بد من أن نتحدث ، فاقترحت على معالي وزير المعارف
أن يغير مواعيد الامتحان ، وأن يجعلها في الشتاء لا في الصيف ،
وقلت إنني اقترحت ذلك على وزير المعارف المصرية منذ سنتين ،
والحر في مصر يقتل أعصاب الشبان ، فكيف تروونه يصنع بشبان
العراق ؟ إن الحر في مصر يحمل الطلبة على قتل أنفسهم عند الرسوب
في الامتحان ، وهو في العراق يحمل الطلبة على قتل أساتذتهم وقتل
أنفسهم كما وقع للطالب الذي قتل نفسه بعد أن ضرب أساتذته .

وعندئذ قال الدكتور الجمالي إنه يدعو إلى هذا الرأي منذ

سنتين .

وجاء كبير الأطباء فأخبرنا أن الدكتور سيف قد لا يعيش .
وانصرفنا منزعجين ، وحملني الأستاذ طه الراوى فى سيارته إلى
وزارة المعارف وأخذ يعاتبني على ذنب جنيته ، وهو أنى اعتذرت
عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل بدون أخذ
رأيه ، ثم قال : لقد قضيت يومين وأنا مبلىل الخواطر بسبب فراقك
ولم أكن أعلم أن الدنيا ستفجعنى بما هو أشد من فراقك
وأخذ يبكى بكاء ألماً

وشرعت أواسى الأستاذ طه الراوى كما واسيت الأستاذ
محمود عزمى

فمن أنا فى دنياى ؟ وماذا عندى من العافية حتى أواسى المجروحين
والمحزونين ؟ وهل رأى الناس قبلى إنساناً يحترف الطب وهو عليل ؟
ثم ذهبت إلى المستشفى الملكى لأعود الدكتور عزمى فرأيت
من المحرم أن يدخل إنسان عليه ، فرجعت إلى منزلى وأنا مفطور
القلب محزون .

ما تغديت ولا تعشيت فى ذلك اليوم ، وطرق بابى طارق ومعه
خطاب ينتظر جواباً ، فقرأت الخطاب مرة ومرتين ومرات ، ولم
أفهم غرض السكاتب ، وكذلك فهمت أن التجلد لم يمنع من أن يهد
الحزن بنيانى .

أما بعد : فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل .

ولكن من واجبي نحو وطني أن أعلن جهرة أن هذه الفاجعة لا يجب أن تفسد ما بين مصر والعراق من الصلات الثقافية فالطالب الجاني كان مريضا ، وقد ضعفت أعصابه تحت تأثير المرض والقيظ . ، فجنى ما جنى وهو غير مسئول ، ثم قتل نفسه بعد ذلك .

أشهد صادقا أن مصر لها في قلوب أهل العراق أجمل مكان وأشهد صادقا أني لم أر من أهل العراق غير الجميل وأشهد صادقا أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا في هذه الفاجعة أجمل عزاء

وأشهد صادقا أن العراقيين إخوان أعزاء لا يضمرون لنا غير الحب والعطف والوداد

ودموع الأستاذ طه الراوي ، وجزع معالي الأستاذ الشيببي وحزن نخامة السيد جميل المدفعي رئيس الوزراء ، هي الشاهد على صدق ما أقول

إن أهل العراق يعيشون منذ أجيال في ماتم وأحزان

فما الذي يمنع من أن تمتزج دموعنا بدموعهم ؟

لنا في العراق شهيد ؟ وهو كذلك ، فنحن والعراقيون إخوان

مالقيني إنسان بعد هذه الفاجعة في بغداد لإقال :

« ماعسى أن يقول فينا المصريون ؟ »

فكنت أجيب : لن يقول المصريون فيكم شيئاً يا أهل العراق ،
فتلك أقدار قضت بماقضت ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو مخبول
أيها العراقيون

إن همومكم من همومنا ، وأحزانكم من أحزاننا ، وقد شاء الله
أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع ، وهو رباط وثيق ،
وقد تفردت مصر بأن يكون لها في أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد
فهو أصدق العهود
أيها العراقيون .

ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، وتمنى لكم الخير والعافية
ثقوا بأن مصر لا يؤذيها أن يموت في عاصمتكم أحداً بنائها الأوفياء
ثقوا بأن مصر يسرها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب
من الدماء .

أيها العراقيون :

هل تذكرون قول شاعركم المتنبي

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف
إن ذكرتم هذا البيت فنحن نذكر أنكم إن كنتم أسأتم إلى واحد
فقد أحستتم إلى ألوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب
مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون

إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق
هي جريمة فردية يسأل عنها جانباها المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق
هي سخابة صيف سيعقبها الصحو والصفاء
أيها العراقيون

لقد ساءنى أن تنزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية ،
فاسمحوا لى بأن أعتذر عنكم وأن أصرح بأن لله حكمة فى مستور
الغيوب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن وهدانا جميعا إلى سواء السبيل

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

مكانة مصر في العراق

كانت حادثة كلية الحقوق في بغداد مثاراً لكثير من الأقاويل والأراجيف حول التعاون العلي بين مصر والعراق ، وقد ظن فريق من الناس أن تلك الحادثة تقطع ما بيننا وبين ذلك القطر الشقيق من متين الصلات . ومن أجل ذلك أصبح من الواجب على من عرف عواطف العراقيين نحو إخوانهم المصريين أن يشرح جانبا من تلك العواطف السامية ، وأن يزيل ما قد يلحق بعض النفوس من كدورة وجفاء

لقد أقمت في العراق نحو تسعة أشهر ، ورأيت أكثر الحواضر العراقية ، وطوفت بكثير من أرجاء الريف العراقي ، وصادقت في العراق من صادقت ، وخاصمت من خاصمت ، وحييت بينهم حياة لا تكلف فيها ولا تصنع ، كما كنت أحيانا في بلادى ، واشتركت في كثير من المجادلات والمشاعبات ، فكان لى من ذلك كله فرص ثمينة أعرف بها حقائق العواطف عند أولئك الرجال ، وقد صح عندى بالخبرة واليقين أنهم أصدقاء أوفياء يرعون العهد ويحفظون الجليل والحادث الأخير محنة ، ولكنها محنة أراد الله أن يختبر بها قلوبنا وقلوبهم ، فالصداقة نوع من الايمان تصقله الحوادث والخطوب

فمن كان جزع من هذا الحادث الأليم فلينتظر قليلا، فقد يكون هذا الحادث امتحانا إلهيا تريد به الأقدار أن ترينا مبلغ ما في أنفسنا من استعداد لمقاومة المكاره والصعاب

وأقول بصراحة إن الصداقة كالعداوة لها متاعب وتكاليف، ونحن عقدنا أواصر المودة بين مصر والعراق، فليكن من واجبنا ومن واجبهم أن نحرس هذه المودة وأن نقيها مكاره التقول والبغى والإسفاف، وهذا الحادث فرصة نعرف بها كيف نصلح للتعاون وكيف نقدر على احتمال المصاعب، وكيف نفهم الأشياء على وجهها الصحيح بلا تحريف ولا تزيف.

والذي يهمنى في هذا المقال أن أشير إلى بعض الشواهد التي تبين مكانة مصر في العراق فأقول:

يدخل الزائر ببغداد فيسمع أول ما يسمع أغاني مصر، ويقرأ أول ما يقرأ أخبار مصر، ويروعه أن يرى المجلات المصرية أهم غذاء عقلي لجمهير الناس هناك. فإذا اتصل بأحد الأندية أو دخل إحدى المدارس رأى الجدل حول أقطاب الأدب في مصر وسمع المفاضلات والموازنات بين الشعراء والكتّاب والمؤلفين، وأحس إحساسا قويا بأن رجال مصر يحلون من قلوب أولئك الرجال أكرم مكان.

وفي أكثر البيوت العراقية نجد صوراً مختلفة لحضرة صاحب

الجلالة ملك مصر ، ونجد صوراً للزعماء المصريين من مختلف الأحزاب ، وتشعر بأن مودة العراق لمصر أصيلة لا يشوبها تكلف ولا افتعال .

وإذا وقع في مصر حادث سياسي أو اجتماعي أو أدبي كان اهتمام العراقيين به عظيماً جداً ، ولا أبالغ إذا قلت إن المصري قد يراهم يعرفون من أخبار بلاده أكثر مما يعرف ، وقد يراهم اطلعوا على ما لم يطلع عليه من المواقف المصرية ، وذلك لا يقع من باب المصادفات وإنما هو دليل على محبة أكيدة يضمها لنا أولئك الأصدقاء الأعزاء ، وهل يمكن أن يسود التجاوب الأدبي إلا بين أمم يعطف بعضهم على بعض ويتبادلون أواصر المحبة والإخلاص؟ أرجو الفارئ أن يطمئن إلى أنني لا أكتب هذا الكلام لتهدئة الخواطر بعد الحادث الذي وقع ، وإنما أريد أن أؤكد حقيقة لا تحتاج إلى تأكيد ، وهي أن مكان مصر في العراق مكان مرموق وأن لمصر في العراق ذخيرة من الثقة والمحبة يجب أن نحرس عليها أشد الحرص

وقد يتفق في بعض الأحيان أن يشعر بعض المصريين في العراق بشيء من الضجر والاستيحاء ، وهذا يرجع في الأغلب إلى سبب واحد : هو أن المصري في أكثر أحواله يتضجر من الاغتراب ، وقد

وقع لي شيء من هذا في الأيام الأولى من حياتي في بغداد ، ثم شاء
الله أن أقيم لنفسي وصلات من المودة مع كثير من أهل العراق ،
فبدل الله وحشتي أنسا ، وشاع السرور في نفسي ، ولم أفارق بغداد
إلا وأنا دامع العين ، مفطور الفؤاد

ليت قومي يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟

ليت قومي يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف
يحزنون لحزنهم ؟

ليت قومي يعلمون كيف تسير أنباؤهم في بغداد والحلة والموصل
وكر كوك والنجف و كربلاء والبصرة ، وما إلى هؤلاء من
حواضر العراق

ليت قومي يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناشيدهم في
مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامرين على شواطئ
دجلة والفرات

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيداً أننا نحبهم
وتتمنى لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التي
لا تضمر غير العطف والصدق

وستذكر مصر أن العراق وثق بها ، واطمأن إليها ، وتطأع إلى
أخبارها تطلع الصديق المشغوف ، ستذكر مصر أن العراق رآها

أهلا لجل الأمانة العلية فمكناها من غرس أصول الثقافة الحديثة في
رحاب دجلة والفرات

وسيدكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل فلم ير من أبنائها
غير الصدق والاخلاص والوفاء؛ ويرحم الله من قال :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

واذكروا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

نهضة التعليم في العراق

صديقي

سألتوني أن أكتب كلمة عن نهضة التعليم في العراق وعن تأثير
مصر في تلك النهضة وما ينطوي عليه من المعاني
وأجيب بأن التعليم في العراق يتقدم تقدماً سريعاً ، والأمة العراقية
في هذه الأيام تتطلع إلى حفظ مكائنها الأدبية والعلمية بين الأمم
الحية . وفي وزارة المعارف العراقية رجال أكفاء يصلون النهار
بالليل في درس مناهج التعليم ، والتفكير في تحقيق المستقبل العلمي
والأدبي لتلك البلاد

ومن الواضح أن العراق له ماضٍ مجيد في الميادين العلمية والأدبية
وهو يجاهد جهاد الأبطال ليكون في حاضره ما يذكر بماضيه ،
وهو اليوم يرسل البعثات العلمية إلى مصر وإلى غير مصر ليعتد فريفاً
من أبنائه للأستاذية الصحيحة التي تعرف مطالب العصر الحديث
ولن تمضي أعوام حتى نسمع بأن بغداد استردت مجدها العلمي
والأدبي في عصر بني العباس ، وليس ذلك بعزيز على الأشبال
في دجلة والفرات

وقد ظهرت بواكير ذلك الأمل المنشود ، ففي العراق لهذه
الأيام معاهد كثيرة ابتدائية وثانوية وعالية ، وسندسمع قريباً أن

حكومة العراق قررت إنشاء (الجامعة العراقية) وهو حلم جميل دعوت إليه مرات ومرات ، وسيحقق بإذن الله فما يمكن أن تعيش بغداد بلا جامعة وهي التي أذاعت علوم المعقول والمنقول في المشرقين ، وإلها يرجع أكثر الفضل في نشر علوم اللغة والدين

ولو شهدتم شواهد التشجيع للمعلمين والمتعلمين في العراق لرأيتهم المعجب والمطرب : ففي أكثر الحفلات المدرسية يحضر الوزراء والنواب والأعيان ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن يتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك غازي الأول بحضور بعض الحفلات تشجيعاً للحياة العلمية والأدبية .

أمانصيب مصر في نهضة التعليم بالعراق فهو يشرفها كل التشريف وأهل العراق يذكرون مصر بالخير ويثنون على جهود أبنائها في بلادهم أطيب الثناء

ولابد في هذا المقام من النص على بعض الأسماء التي نهضت بالتعليم في العراق ، وأول هذه الأسماء هو الأستاذ محمد عبد العزيز وهو رجل لم أسمع اسمه إلا من أفواه الأساتذة بالعراق ، هو رجل يجمله المصريون ويعرفه العراقيون وقد حدثني الدكتور فاضل الجمالي بأن هذا الرجل سيسجل اسمه حتماً في اليوم الذي يوضع فيه تاريخ نهضة التعليم الحديث بالعراق

ولا يمكن نسيان الأستاذ عبد الرازق السنهوري فقد كان له

فضل كبير في تنظيم كلية الحقوق
وللأستاذ الزيات والدكتور عزام سيرة عطرة عن السنة
الرجال هناك

وحيثما توجهت رأيت آثار الأساتذة المصريين في تلك البلاد
وفهم جنود مجهولون لا يعرفون غير الواجب ، وهم جمهور من
المدرسين في المتوسطات والثانويات

وتأثير مصر في العراق لا يقتصر على التدريس فهناك أوف
من العراقيين يتصلون بمصر اتصالا عليا عن طريق التأليف ،
فالمؤلفون المصريون لهم تلاميذ أوفياء بالعراق ، ولا يصدر في مصر
كتاب جيد إلا كان أهل العراق أول من يطلعون عليه ، وهم
يتابعون الثقافة المصرية بشغف وشوق . ولهم موازين يعرفون بها
أقدار النوابع من الشعراء والكتّاب والمؤلفين

وكذلك الحال في الصحافة المصرية فهم يطلعون على ما يصدر في
مصر من جرائد ومجلات ، وكلها كانت المجلة قوية كان اتصالهم بها
أشد ، والمجلات الجديدة تقدم عندهم على المجلات الهزلية ، بخلاف
ما قد يقع عندنا في بعض الأحيان

وقد درست هذه المسألة وأنا في بغداد وأخذت إحصائيات عن
توزيع المؤلفات والمجلات ، فصح عندي بعد التحقيق أن أهل
العراق يؤثرون المطبوعات التي يغلب عليها التعمق ، وليس معنى
هذا أنهم ينفرون من الفكاهات ولكن معناه أنهم لا يقبلون على

الأدب الخفيف إلا بعد التزود من الأدب الرزين
فإن سألتهم عن مصير التعاون العلمي بين مصر والعراق فإني
أجيب بأنه سيزداد من يوم إلى يوم ، ولكن ذلك الازدياد يتوقف
على فهم مصر لقيمة الأمانة العلمية ، وهذه الأمانة توجب التواضع
ونسيان الذات ، هذه الأمانة توجب أن يفهم المصري أنه ليس غريبا
في العراق ، فأهل تلك البلاد يؤذيهم أن نشعر في بلادهم بالغرابة ،
لأنهم في الواقع أهل وأحباب

وقد اتفق لي أن كتبت رسالة وجدانية بعنوان (القلب الغريب
في ليلة عيد) فعاتبوني عليها مرات كثيرة وساءم أن أقول إنني في
بلادهم غريب

والعراق يثق بمصر ثقة عظيمة ، ولهذا الثقة أثمان يجب أن
يؤديها المصريون . والمصري لا يحتاج إلى مجهود كبير ليظفر بمحبة
أهل العراق فيكفي أن يكون رجلا أميناً يعرف الواجب ولا يتدخل
فيما لا يعنيه من شؤون تلك البلاد

وأعتقد أن الاتصال بالعراق ينفع أجزل النفع ، فهو يقوى
روح العروبة ويغرس معنى التضحية ويصل الرجل بأصول
الشهامة والنبيل

ولو كان يبدى شيء من الأمر لفرضت أن لا يعين في مصر وزير
للخارجية إلا بعد أن يثبت أنه رجل زار الأقطار العربية وعرف

ما يجب أن يقوم بيننا وبين تلك الاقطار من صروح المحبة والوداد
ومستقبل مصر بين الأمم العربية مرهون بفهم هذه الحقائق ،
وظفر مصر بمحبة الأمم العربية هو في ذاته مغنم عظيم لا يزهده فيه
إلا غافل أو جهول

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعا إلى سواء السبيل

مصر والبلاد العربية

خطبة المؤلف في حفلة تكريمه بالقاهرة

أيها السادة

أشكر لأدبكم وكرمكم التفضل بالحضور للتسليم على صديق
كان اغترب مدة في سبيل خدمة العلم بالعراق
وأعذر عن كلمة « اغترب » وأقترح حذفها من المعجمات ، فهي
كلمة تفردت بها اللغة العربية ولا يكاد يوجد لها نظير في اللغات
الأجنبية ، وعن لغة العرب نقلت إلى الفارسية والتركية ، وهي كلمة
حزينة يتمثل سوادها في كلام من يقول :

وكل محب قد سلا غير أتى غريب الهوى يا ويح كل غريب
وفي كلام من يقول :

أنا في الغربة أبكى ما بكت عين غريب

لم أكن يوم خروجي من بلادى بمصيب

عجباً لي ولتركي وطناً فيه حبيبي

ولي مع هذه الكلمة الحزينة تاريخ ، فقد سببت أول معركة أدبية
شهدتها في العراق . ذلك بأنى كنت نشرت مقالا في مجلة
الرسالة عنوانه : « القلب الغريب في ليلة عيد »

فجز على أدباء العراق أن أقول إنى في بلدهم غريب ، ودار الجدول

أشهرًا حول ذلك المقال في الجرائد والمجلات

والحنين إلى الوطن مرض لا يصيب غير الضعاف في عالم الإنسان
والحيوان ، فأرجو أن يكون فينا من القوة ما يعصمنا من هذا
المرض العضال

أنا ما كنت غريبًا في العراق ، وإنما كنت بين أهلي وقومي ، وإذا
صح للبصرى أن يشعر بالغربة وهو في وطن عربي مثل العراق ، فماذا
ترويه يصنع لو هاجر إلى بلد في استراليا أو في إحدى الأمريكيتين ؟
لقد آن للبصرى أن يبرئ نفسه من ذلك المرض الذى يقضى
بأن يتوجع حين تنقله الحكومة من القاهرة إلى حلوان ، آن
للبصرى أن يفهم أن في دمه روحًا عربيًا يسوقه إلى الانتقال من أرض
إلى أرض في سبيل المنافع العلمية والأدبية . آن للبصرى أن يفهم
أن رجولته لا تكتمل إلا إذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق
لنفسه ولوطنه أصدقاء في مختلف البلاد

وما أقول إنى كنت أقوى من سائر زملاء الذين تشرفوا بخدمة
العلم في العراق . وإنما أقول إنى رضت نفسى على التخلق بأخلاق
أسلافنا من العرب فرأيت الأرض كلها وطنًا أصيلاً ، ولم تجر كلمة
الغربة على لساني إلا تأثرًا بالميراث الحزين الذى قضى بأن تتفرد لغتنا
بكلمة «غريب» من بين سائر اللغات

ولما زار سعادة العشماوى بك مدينة بغداد دعا الأساتذة المصريين

السمع ماقد يكون عندهم من مقترحات أو شكايات ، فضيحت أبحاث
عمن أعرف منهم لأصدهم عن حضور ذلك الاجتماع ، فقد كنت
أحب أن لا يكون بيننا وبين حكومة العراق وسيط ، ولو كان ذلك
الوسيط هو العشماوى بك الذى أحب العراق وأحبه العراق

إن صداقتنا للعراق لاتزال فى أول عهد من عهود التسكوين ، وهى
لاتزال فى حاجة شديدة إلى من يحرصها ويرعاها ، وهى تستحق
الحراسة والرعاية ، لأنها رباط بين أمتين كانت بينهما صلوات ودية
من أقدم عهود التاريخ

ولا يعرف قيمة هذه الصداقة إلا من زار العراق ، فأهل العراق
بمودةهم المتينة يبعثون فينا شعور الثقة بالنفس ، ويفرضون علينا أن
نؤمن بأن جهادنا فى سبيل العلم والمدنية لن يضيع

أهل العراق منا ونحن منهم ، ولو نطقت الأحجار لحدثتكم أن
علماء العراق اتصلوا بمصر ونقلوا إليها علومهم ومعارفهم يوم أراد
التتار أن يقوضوا حضارة بغداد ، ولعل هذا هو السبب فى أن
مخارج الحروف لاتتفق بين أمتين عربيتين كالتفوق بين مصر والعراق
أهل العراق منا ونحن منهم ، فلمؤلفات القديمة فى معاهد مصر
هى فى الأغلب عراقية ، والمؤلفات الحديثة فى معاهد العراق هى فى
الأكثر مصرية

فأرجوكم بالله أن تكونوا جميعاً أنصاراً الأخوة التي تربط بين

مصر والعراق

وقد عجب بعض الناس حين رأوني أتصدى لدفع الأذى عن سمعة العراق ، فاعرفوا إن شئتم أنى أدفع عن مصر ديناً ثقيلاً ، فأهل العراق في أنديةهم وجراندهم ومجالاتهم ومدارسهم يدفعون عن مصر قالة السوء ويخاصمون في سبيلها كثيراً من الناس ، ولو عرقتهم من ذلك بعض ما عرفت لرأيتهم أن من القليل أن ينهض كاتب أو كاتبان للإشادة بفضائل أهل العراق

إن القاهرة تقوم في العصر الحديث بالواجب الذي كانت تقوم به بغداد في عصر بني العباس : فمن واجب القاهرة أن تحمل من التكاليف ما حملت بغداد ، بل من واجب القاهرة أن ترحب بمطلع اليوم السعيد الذي يقضى بأن يكون لها في الشرق منافس قوى هو بغداد ؛ فتفرد القاهرة بالزعامة الأدبية قد يضر أكثر مما ينفع ، لأن التفرد بالتفوق قد يخلق عيوباً أيسرها الزهو والخيلاء والاطمئنان إلى أن ليس في الامكان أبدع مما كان !

وقد بدأت هذه العيوب تظهر مع الأسف ، فأهل مصر شغلهم ثقافتهم التي اتسعت وتشعبت عن التطاع إلى ما يبدع أهل الأدب في العراق وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والجزائر وتونس ومراكش ، وما إلى هؤلاء من البلاد العربية . وانصراف

أهل مصر عن الأدب في تلك البلاد يحجبهم عن تطور الحياة في
أقطار حية سيكون لها بإذن الله مكان بين الأقطار التي تسود
العالم في المستقبل القريب

ومن الواجب في مقامى هذا أن أوجه أنظاركم إلى حقيقة لا يختلف
في صحتها اثنان ، تلك الحقيقة هي أن مصر تنفرد بالسيادة العقلية في
البلاد العربية : فمؤلفات مصر ومجلات مصر ليس لها مزاحم يخشى
خطره في تلك البلاد ، وشعراؤنا وكتابناهم الذين يقدمون الغذاء
الأدبي لجمهور المتعلمين في الأقطار العربية ، وبفضل إقبال أولئك
الاخوان على مؤلفات مصر ومجلات مصر استطاعت اللغة العربية
أن تقف على قدميها بجانب اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية . فاللغة
العربية هي اليوم لغة حية حقا وصدقا ، وهي تكافح وتناضل لتسيطر
وتسود ، وما كان من الغريب أن تسيطر اللغة العربية في أقطار
كتب الله أن تستعرب منذ أجيال ، ولكن فساد الزمن وتوالي
الأحداث والخطوب جعل سيادة اللغة العربية في بلادها من الغرائب ،
فلنفهم ذلك ولنواصل الجهاد ، ولنعرف أن من أعظم الشرف أن
نكون في الحياة من المجاهدين ، ولنتذكر دائما أن انتصار اللغة
العربية في أوطانها هو البشير بان تلك الأوطان تستعد من حيث
تشعر أو لاتشعر لحياة مجيدة سترون أعلامها بعد حين

وإخواننا العرب يعجبون من تفرد مصر بالتفوق في اللغة

العربية ، فإن أذنوا شرحت لهم بعض أسرار ذلك التفوق ، فصر
هي الأمة الوحيدة التي استعربت استعراباً تاماً ، وصارت العربية
لغتها الرسمية والقومية في مدة ترجع إلى ثلاثة عشر قرناً ، وهذا حظ
لم يظفر بمثله المغرب ولا الشام ولا العراق ، فما انقرضت اللغة
البربرية في المغرب ولا اللغة السريانية في الشام ولا العبرانية في
فلسطين ولا اللغة الكلدانية في العراق . وإنا نرجو أن يكون لمصر
يد يبضاء في رجوع اللغة العربية إلى بلاد فارس بفضل المودة
الجديدة التي أنشأتها المصاهرة الملكية بين مصر وإيران ، فمن المؤكد
أن قادة الرأي في تلك البلاد سراعون عواطفنا مشكورين
فلا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير كما فعل إخواننا الأتراك
ساحمهم الله حين استبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية

وقد وقع بيني وبين سفير إيران في العراق عتاب حين رأيت
أول مرة في بغداد ، ولم أكن أعرف أن الله سيخاق بيننا وبينهم
صلوات جديدة تجعل من الحق علينا أن نذكرهم بماضيهم الجميل في
خدمة لغة القرآن يوم كان منهم كبار النحاة وكبار اللغويين

إن فرنسا لها مدرسة في طهران لنشر اللغة الفرنسية بين أهل
إيران ، فمتى يجيء اليوم الذي تقوم فيه مدرسة عربية في وطن
الجرجاني والتوحيدى وابن العميد ؟

لقد ألفت كتاب النثر الفنى أول مرة باللغة الفرنسية وأنا في

باريس ، وكان قلبي يفيض بالحزن الدامى كلما تذكرت أن أكثر
من تحدثت عنهم فى كتابى كانوا رجالا نشأوا فى بلاد فارس ، وأن
لغة العرب فى تلك البلاد صارت غريبة الوجه واليد واللسان
وكذلك كان حالى حين ألفت كتاب التصوف الإسلامى : فقد
رأيت أن أطيب أرواح التصوف هبت علينا من الأقطار الفارسية
فيا أصدقاءنا الأعزاء فى إيران تذكروا ، ثم تذكروا ، تذكروا
وأتم مسلمون أبرار أن اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة الرسول ،
وتذكروا أن الأمم العربية لها فى العالم السياسى والأدبى والاقتصادى
موازن ، وأنها خليفة بأن تزيدكم قوة إلى قوة حين تراكم ترجون
باللغة العربية التى كان لها فى بلادكم أبناء وأحفاد وأسباط

أيها السادة

تلكم مكانة مصر بين الأمم العربية والإسلامية ، وذلكم حظها
بين الممالك والشعوب ، وهذا التجاوب الأدبى بيننا وبين من نعرف
ومن لا نعرف لم يقع من باب المصادفات ، وإنما هو علامة حب
صادق يضمه لمصر من عرف فضلها من الرجال
وأخشى والحزن يفعم قلبي أن يكون ماظفرتنا به من المجد الأدبى
ميراثاً تلقيناه عن أجدادنا النبلاء الذين ملأوا الدنيا بالتأليف
 والتصنيف وجعلوا مصر تاجاً تزدان به هامة اللغة العربية ، أخشى
أن لا تكون لنا سياسة مرسومة تفكر دائماً فى حفظ مكانة مصر

بين الأمم العربية ، أخشى أن نجهل نعمة الله علينا فننسى أننا أغنى
الأمم العربية بالأموال والرجال ، أخشى أن لا نعرف أن الجهاد في
سبيل اللغة العربية هو مجدٌ أبقي على الزمن من الأهرام ومن قصر
الكرنك وقصر أنس الوجود

إن اللغة العربية هي التي ستجعل لنا لسان صدق في الآخرين ،
وهي التي ستسطر محامدنا على جبين الزمان

والذي أدعوكم إليه هو تجارة لا تعرف غير الربح
فإن كنتم في ريب من ذلك فسيروا في الأرض وانظروا كيف
تذكر مصر بالحمد والثناء

لأنتى أفرض زيارة الشرق على رجلين : الأول وزير المعارف
والثاني وزير الخارجية

أما وزير المعارف فهو اليوم معالي الدكتور محمد حسين هيكل
باشا ، وليته كان في بغداد كما كنت في بغداد يوم ظهر كتابه عن منزل
الوحي . ليته كان هناك ليرى كيف استقبل البغداديون كتابه بموكب
لم يعرفه القاهريون . وأما وزير الخارجية فهو اليوم دولة عبد
الفتاح يحيى باشا ، وليته يرى كيف يأنس أهل بغداد إلى ضوره
الكاريكاتورية في الجرائد والمجلات ، إنه لو رأى ذلك لعرف أن
مصر لا تعيش وحدها وإنما تعيش في أنس بأصدقائها في الشرق

ولن أنسى اليوم الذى زرت فيه نادى المعارف فى بغداد مع
سعادة الأستاذ طه الراوى فقد رأيت مكتب رئيس النادى يزدان
بصورتين كريمتين صورة الملك فاروق وصورة الزعيم سعد زغلول
ولما زرت النجف أراد أدباؤه أن يقدموا إلى هدية فكانت
تلك الهدية هى صورة الرجل الموفق محمد العشماوى بك وكان
قد زار النجف واستقبل فيه أكرم استقبال

ولما زرت الموصل رأيت رئيس نادى الجزيرة أحد تلاميذى
القدماء فأحسست أنى فى إدارى وبين أهلى

فيا أهل مصر متى تعرفون نعمة الله عليكم؟ ومتى تؤدون للأمم
العربية واجب الوفاء؟

إن الذى كتب أن تكون عاصمتكم عروس الشرق هو وحده
القادر على أن يجعلكم أهلاً لرعاية العهد وحفظ الجليل
زكى مبارك

تم الكتاب بعونه تعالى

فهرس

	صفحة
فاتحة الكتاب	٥
من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد	٨
مداعبة الدكتور زكي مبارك	١٦
بغداد كما تصورتها وكما رأيتها	١٧
المذاهب الأدبية في مصر	٣٠
القلب الغريب في ليلة عيد	٤٥
العروبة في مصر	٥٤
خطاب المؤلف في حفلة تكريمه في بغداد	٦٦
النبي الصبور	٧٢
مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث	٧٩
الأسمار والأحاديث في ليالي رمضان	٨٤
من صديق إلى صديق	٩٢
صورة آمال	٩٧
دروس الأدب في المعاهد العالية	١٠١
الفن المصري في العراق	١٠٧

صفحة	
١١١	زكى مبارك في لبنان
١١٤	الجامعة العراقية
١٢١	أخت بغداد والأستاذ محمود عزمى
١٢٤	شاعرية زكى مبارك
١٣٢	غريب الهوى في عيد القمر
١٣٧	إلى ليلي المريضة في الزمالك
١٤٤	طبيب ليلي بوصى بنظارة للدكتور محمد صبحى بك
١٤٦	حيران حيران
١٥١	محمد العشماوى بك في بغداد
١٥٣	بين الآباء والأبناء
١٦١	الساعة صارت عشرة
١٧٥	ليلي المريضة في العراق ليست مصرية وإنما هي عراقية
١٨٢	إلى ليلي المريضة في الزمالك
١٨٨	الأدب والأخلاق
١٩٢	الشهرة مرض مزعج
١٩٤	سهرات المسيو دى كومنين
٢٠١	غرام مى بالرافعى

- ٢٠٤ غزال يترنح في شوارع بغداد
٢٠٦ أسئلة أدبية
٢٠٧ لكل سؤال يابئين جواب
٢٢٢ حقائق وأباطيل
٢٢٣ من صديق ليلى الباريسية إلى الدكتور زكي مبارك
٢٣٧ إلى صديق ليلى الباريسية
٢٤٢ خطبة المؤلف في تحية من كرموه بالنجف
٢٤٩ أول الحرب كلام
٢٥٩ عبقرية الشريف الرضي
٢٦٨ بين مصر ولبنان
٢٧٢ بعض ما رأيت في العراق
٢٩٠ الحياة الأدبية في العراق
٣٠٤ أبو العلاء في الميزان
٣١٥ في ضيافة القرآن
٣٣١ كيف رأيت الرصافي
٣٣٨ إصلاح الخط العربي
٣٤٥ مذاهب التربية

٣٥٢ إلى الدكتور أمير بقطر

٣٥٨ كيف نصادق أطفالنا

٣٦٧ حديث المؤلف مع جريدة الاخبار

٣٧٣ من العمامة إلى الطربوش ثم إلى القبعة فالسدارة

٣٨٠ أهذا زكي مبارك أم هو جمال الدين الأفغاني

٣٨٤ أحييتي بغداد

٣٩٠ فاجعة بغداد

٣٩٩ مكانة مصر في العراق

٤٠٤ نهضة التعليم في العراق

٤٠٩ مصر والبلاد العربية

{تم الفهرس}

النصوص الإسلامية

في الأدب والأخلاق

قدم هذا الكتاب

إلى الجامعة المصرية وبال به المؤلف

إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف

يقع في مجلدين كبيرين وثمانهما معاً

أربعون قرشا

يظهر قريبا

ليلي المريضة في العراق

تحليل دقيق

سرائر القلوب

و

لأسرار المجتمع

يظهر قريبا

عبد القادر الشيرازي

ثمان الجزاين وعا خمسة وعشرون قرشا

النَّبِيُّ الْفَتَى

في القرن الرابع

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثن الجزأين معاً

أربعون قرشا

تطلب الطبعة الثالثة من ﴿حب ابن أبي ربيعة﴾ والطبعة الثانية من ﴿مدامع العشاق﴾ من المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة وكذلك يطلب من هذه المكتبة كتاب ﴿الأخلاق عند الغزالي﴾ وكتاب ﴿ذكرات باريس﴾ وكتاب ﴿النثر النفى﴾

I 14580081

B 1294483

sabah DATE DUE
Ramadan (staff)

31 JUL 1984

MAY 1974

MAY

AC
106
Z32x
1938

UNIVERSITY MICROFILMS



79 OCT 1938

